

بنجامین پ. توماس

ابراہام لنکولن



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com



twitter مكتبة لسان العرب



facebook مكتبة لسان العرب



instagram مكتبة لسان العرب



ABRAHAM LINCOLN

by Benjamin P. Thomas

Courtesy of Alfred P. Knopf

”هذه الشعب، بحر است الله،
سيشهر مولد عريت الخيرية،
وهذه الطائفة، حكومة الشعب،
التي تبنى عن الشعب، كلمة الشعب،
لكن نكوشى من على القومى“

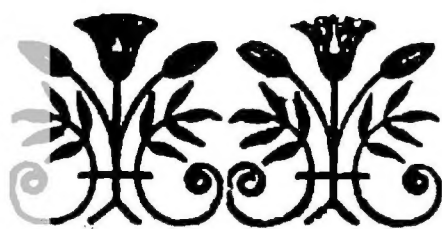
من خطاب ابراهيم لنكولون
في غيتسبرغ . ارض المعركة الحاكمة
في الحرب الاهلية فهدل تموز ١٨٦٣

المقدمة

هذا الكتاب يحوي بين دفتيه سيرة رجل من اولئك الرجال الذين ساهموا في بناء الحرية للجنس البشري ، فلقد عرف الرئيس ابراهام لنكولن بانه اول رئيس وقف حياته في الولايات المتحدة لتحرير العبيد ، وخلق المساواة بين سكان الولايات المختلفي العرق واللون . ولئن كانت اميركة بلد الحرية والاخاء والمساواة اليوم ، فان لنكولن هو الذي وضع اساس المساواة ، ووطد بناء الحرية ، وجاهد في سبيل الاخاء بين السكان ، ولهذا كتب عنه الكاتبون ، فاسهبوا في ذكر تطورات حياته .

والكتاب الذي نقدمه لقراء العربية ، منقول عن أحدث مؤلف يصف سيرة الرئيس لنكولن ، وفي اطوار هذه السيرة عبرة بالغة ودرس للمحدثين بليغ .

في ٢٠ شباط ١٩٥٤



الفصل الأول

تاريخ حياة لفقراء

على مسافة نحو اربعين ميلاً الى الجنوب من مدينة لوزفيل في ولاية كنتيكي ، يقوم مرتفع وعر المسالك حاد المنحدر ، يُعرف باسم تلّ يخرقه نهر نوب ليتابع مجراه الى رولنغ فورك . وقد تفرعت عنه على الجانبين جداول احتفرت فجاءاً عميقة في المنحدرات وجرفت الطمي لتؤلف منه رقاعاً خصبةً اشبه بالجزر على طول المجرى . على احدى تلك الرقاع وعلى مسافة ميل ونصف من رولنغ فورك ، كان توماس لنكولان قد شيد منزلاً اقام فيه مع زوجته نانسي وابنه وابنته . وكانت مساحة مزرعته تبلغ ٢٣٠ فدانا ، لم يكن قابلاً للفلاحة منها سوى ٣٠ فدانا فقط ، اما الباقي فقد تخلمته الشجاب الوعرة والادوية السحيقة ، وغطته الانجم الشائكة والادغال المتشابكة .

لا نعرف عن طفولة ابراهيم لنكولان في كنتيكي اكثر مما عرف هو ، اي انه ولد يوم ١٢ شباط ١٨٠٩ في كوخ ريفي على مسافة ثلاثة اميال الى الجنوب من بلدة مهد جنفيل وانه جيء به وهو في الثانية من عمره الى المنزل عند نهر نوب ، حيث عاش اكثر من خمس سنوات .

وفيا هذا انقاذ احد الصبيان اباه من الفرق في النهر ، فان سني طفولته هناك كانت خلواً من الأحداث . لقد عانى في الشتاء البرد الهارم الذي

كان ينسرب من شقوق الكوخ يتعدى نيران الموقد المتأججة ، واختبر
حرارة جو تلك المنطقة ، ولمس تربتها الناعمة بقدميه الخافيتين . كان طعامه
خشناً بسيطاً ، ولباسه بما حاكته له امه او فصلته من جلود الحيوان من
صيد ابيه . وكان يقوم بما يقوم به الاطفال عادةً ، من قضاء حاجات الكبار ،
والاحتطاب ونقل الماء ، وتعشيب الحديقة ، ونثر البذور في موسم الزراعة
واقطف العنب والثمار البرية وما الى ذلك ، فلما مرشح فيما بعد لرئاسة
الجمهورية سأل احد هم عن طفولته ، فاجاب : ان من السخف يا صديقي
ان تحاول استخلاص شيء ذي بال من تلك الايام . انك تستطيع ايجازها
في جملة واحدة ، وردت في مرثاة الشاعر غراي ، وهي : تاريخ حياة
الفقراء موجز بسيط .

وانتقل العروسان توماس ونانسي بعد قرانها الى بلدة اليزابيث تاون ،
حيث ابتاع الزوج قطعتي ارض وابتنى كوخاً من جذوع الشجر ، وكان
يكسب رزقه بالاشتغال في التجارة التي حدقها والقيام باعمال اخرى . وقد
ولدت ابنتها البكر سارة هناك في ١٠ شباط ١٨٠٧ . وفي العام التالي
اشترى مزرعة ثانية مساحتها ٣٤٨٥ فدان وتبعد ١٨ ميلاً عن البلدة ،
ودفع ٢٠٠ دولاراً ثمناً لها . وكانت التربة فقيرة تكسوها طبقة من
الاعشاب الشائكة الغليظة ، فلم يفلح فيها سوى اشجار قليلة . ولم يكن فيها
ما يغري بشرائها سوى نبع يخرق مجراه اكمةً ، ثم يتعذر فجأة فيصب
في حوض عميق في الصخر حيث يختفي ، هناك فوق النبع بني توماس
كوخاً آخر من جذوع الشجر ، لا ارضية له غير التراب ، واقام فيه
موقداً من الجذوع والعصي المبطنه بالطين ، وهناك ولد ابراهيم . وكان
والده لا يزال يملك المزرعتين اللتين اشتراهما سابقاً ، فبلغ مجموع ما كان
يملك اذ ذاك ٥٨٦٥ فداناً وقطعتي ارض في اليزابيث تاون وبعض المواشي
مع المقتنيات الاخرى التي يفتننها عادة رواد الفلاحين .

وانتقلت الاسرة في ربيع ١٨١١ الى مزرعة نهر نوب ، وكان اول مكان وعاه الطفل ابراهيم . وكان الطفلان ، كما يمكن الاستغناء عن خدماتهما في المنزل ، يسيران مسافة ميلين الى مدرسة قائمة في كوخ ، حيث تعلمتا مبادئ القراءة والكتابة والحساب على يد المعلم زكريا رايني وخلفه المعلم كالب هازل . بيد ان ذهابهما لم يتيسر الا على فترات متقطعة متباعدة . وولد في تلك المزرعة طفل ثالث ولكنه ما لبث ان توفي . وفي عام ١٨١٤ باع توماس احدى مزرعتيه الاخرين بمئة جنيه ، اي بخسارة ١٨ جنياً ، بسبب خطأ في عقد التملك ، افقده ٣٨ فدانا من مساحتها . ثم اقيمت عليه دعوى بشأن مزرعته الاخرى ، واخيراً بشأن مزرعة نهر نوب التي كان يقيم فيها ، فعصف به اليأس وقرر الانتقال الى ولاية انديانا شمالاً ، حيث يمكن شراء الاراضي من الحكومة ، بعد ان كانت قد قامت بسحبها . وشدت اسرة لنكولن الرحال الى انديانا في كانون الاول من عام ١٨١٦ وكان عمر ابراهيم اذ ذاك سبع سنوات .

* * *

لا نعرف كيف سافروا ، والارجح انه كان على ظهور الخيل . وبعد ان مروا وسط اليزابيت تاون ، اتجهوا شمالاً فغريباً الى نقطة مقابل بلدة تروي على نهر اوهايو ، حيث يمكن عبوره الى الضفة الاخرى في ارض انديانا ، واجتازوا في طريقهم اراضي مجهولة مهجورة لا طرق فيها ولا معالم ، وغابات كثيفة من شجر البلوط والدردار والقيقب والجميز والبتولا وقد تشابكت بالدوالي البرية ، وكست الارض بينها طبقة كثيفة من الاوراق المتعفنة والنباتات الشائكة ، فكان الوالد يضطر الى ان يتقدمهم ليفتح لهم بفأسه ممراً ، وكثيراً ما يجيم الضباب الكثيف فيزيد المكان رهبة وغموضاً . وكانت الغابات تزخر بمختلف الحيوان ، كالزواكون (وهو

حيوان مفترس. مججم الهر) والسنجاب والغزال والذئب والنمر الارقط
والهر الوحشي والذب ، ويعيش فيها مختلف الطيور ككديك الحبش
والساوى والقطا والحمام والبطة والاوز ، ويعيش فيها في الصيف ملايين
البعوض والذباب ومئات الحشرات . ولم يكن هناك من السكان الا بنسبة
هائلة واحدة في كل اربعة اميال مربعة ، من الاقوام الهائلة التي تجمع بين
الصيد والزراعة . اما انديانا فقد صار فيها من السكان ما يؤهلها لقبولها في
الاتحاد كولاية .

واختار توماس موقعا لاقامة اسرته على بعد ١٦ ميلا شمال المسكان الذي
عبروا فيه النهر على رابية في ما هو الآن قضاء سينسر . وكان قد دهمه
الشتاء ، ولم يتوفر له الوقت الكافي لبناء كوخ ؛ فارتجل مأوى مؤقتاً
جعل له ثلاثة جدران من الجذوع والاعصان ، وترك الواجهة الرابعة
مكشوفة لا تدرا عن الاسرة عوادي البرد والزمهرير الابنار يجب ان
تظل متأججة ليلاً نهاراً . ومن الغريب انه اغفل مسألة الماء للشرب
والطبخ ، وكان اقرب مورد على بعد نحو ميل ، وكان غلى ابراهيم ان
ينقل الماء منه . وقضوا الشتاء الاول يعيشون على لحم الصيد الذي يجيء
به الوالد ، ويكتسبون مجلوده وفرائه ، وكانت فترة هبط فيها حظ الاسرة
الى اسفل الحضيض .

في سيرته الوجيزة التي كتبها ابراهيم انكولن عن حياته عام ١٨٦٠ ،
اشار الى مهمته الصعبة في قطع الاحراش ، وكان على صفره يبدو اكبر
من سنه الحقيقية ، فعهد اليه بالفأس منذ ذلك الحين ، وظل يعمل بها حتى
شارف على الثالثة والعشرين ، بالاضافة الى اعمال مواسم الحراسة والحصاد .
وقد اجمع المؤرخون على ان الاسرة ظلت تقسم في ذلك المأوى الزري
المفروح قرابة عام ، مدللين بذلك على ضيق حيلة توماس الوالد ، والواقع
انه لم يتوان في بناء كوخ افضل ، فقد ذكر ابراهيم انه قبل ذكرى مولده

الثامنة ببضعة ايام ، كان واقفاً داخل الكوخ الجديد ، فرأى من خلال احد الشقوق سرباً من ديك الحبش البري ، فرمى واحداً منها ببندقية وأردف قائلاً انها كانت اول وآخر مرة صوب فيها ببندقية الى صيد . ومن الغريب انه لم يولع قط بالقنص ولا بصيد الاسماك ، على رغم ولع والده بها وحاجة الاسرة اليها .

وما حل الربيع حتى كان توماس وابنه قد ازالا الاشجار من رقعة لا بأس بها لزراعة المحاصيل ، وظلا يداًبان حتى تمكنا من زراعة ١٧ فدانا بالذرة والحنطة والشوفان ، وربيا الخراف والخنازير وبعض الابقار ، وبذلك تنوع طعام الاسرة . وكان ابراهيم ، اذا اثر على منحلة في احدى الاشجار ، يطرد النحل بالدخان ، ويقطع الشجرة بفأسه ويجمع ما فيها من عسل .

وكان توماس قد استولى على ارض مزرعته بوضع اليد ، ولكنه في ١٥ تشرين الاول ١٨١٧ سجلها في مكتب الحكومة ، ودفع ١٦ دولاراً كجزء من القسط الاول من ثمن ١٦٠ فداناً ، وبعد شهرين دفع ٦٤ دولاراً لتكملة القسط الاول ، وهو ربع مجموع الثمن .

في ذلك الوقت قدم للسكنى معهم توماس سبارو وزوجته اليصابات وهما خال وعمة الام نانسي اللذان ربيها في طفولتها . وجاء معها دنيس هانكس ، وهو ابن غير شرعي لاحدى عماتها . وكان مرحباً نشيطاً في التاسعة عشرة ، فاصبح رفيق ابراهيم الحميم . ونزل الثلاثة في شتاء ذلك العام في الكوخ الزري المفتوح الذي كانت قد اخلته اسرة لنكولن . واجتاح المنطقة في اواخر صيف ١٨١٨ داء وبيل ، يعرف اليوم باسم « مرض الحليب » للاعتقاد بانه ناشيء عن رهي بعض النباتات السام ، وافراز السم في الحليب ، واصيب به توماس سبارو وزوجته في شهر ايلول .

وكان اقرب طبيب على مسافة ٣٠ ميلاً ، وما كانت خدماته لتجدي
فتيلاً حتى لو تبسرت دعوته ، وما لبثا ان توفيا . فارتحل توماس لنكولن
لها تابوتين وضعها فيها ودفنها ، وما عتبت ان اصيبت ايضاً زوجته نانسي
وتوفيت في ٥ تشرين الاول ، وأسجى جثمانها في الغرفة التي كانوا اياً كلون
فيها وينامون . وقامت الاسرة براسم الجنازة والدفن ، لعدم وجود
قسيس في تلك الناحية ، ودفنت بجوار قبري سبارو وزوجته بينما كان
الحريف يضيف الروان السحرية على الغابات والحقول المجاورة .

وعاودهم شظف العيش وسوء الحال ، لخلو المنزل من تأثير المرأة ، اذ
وقع تدبير شؤونه على عائق سارة ولم تكن قد تجاوزت الثانية عشرة .
وفي اوائل شتاء ١٨١٩ ارتحل لنكولن عائداً الى اليزابيت تاون في كنتكي
حيث اتخذ لنفسه زوجة ثانية ، من ارملة فارعة حسناء ذات ثلاثة اطفال
تدعى سارة بوش جونستون . وكانت تملك بعض الاثاث وبائنة متواضعة
ولكنها خير بائنة ظفر بها رجل من اسرة لنكولن ، فحملها مع اطفالها
وما تملك في عربة مستأجرة تجرها اربعة خيول ، عائداً الى انديانا .

واصبح ذلك الكوخ الحقير يؤوي ثمانية أشخاص ، هم لنكولن وولداه
ابراهيم وسارة ، ودينس هانكس ، وزوجته الجديدة اطفالها الثلاثة
اليصابات وعمرها ١٢ سنة ، ومائدا وعمرها ٨ سنوات ، وجون وعمره
خمس سنوات . وعلى رغم اكتظاظ المكان بهم ، فقد تحسنت احوالهم ،
اذ عكفت زوجة الاب على ترتيب شؤون المنزل وعلى رعاية الطفلين
اليتيمين ، حتى اخذ ابراهيم يعبدها ، وغامت في مخيلته ذكريات امه ،
وقد اشار الى زوجة ابيه فيما بعد بقوله « امي الملاك » . واهتمت هي
بتعليمه فارسلته الى مدرسة المعلم اندرو كروفورد ، اذ لم تكن الولاية
تعرف المدارس العامة بعد . ولم يكن المعلمون يكثون طويلاً في تلك
الناحية ، لصاله ما كانوا يحصلونه من رسوم التعليم ، فاقتلت المدرسة .

وبعد عامين عاود ابراهيم الذهاب الى مدرسة أخري يدبرها جيمس سويني ،
على بعد اربعة اميال من كوخه . وبعد ان انقطع عاماً آخر عن الدراسة
عاودها لبضعة اسابيع في مدرسة المعلم آزل وورسي . وكان التسميع
في تلك المدارس يتم بصورة جماعية وبصوت مرتفع ، فيقيس المعلم مبلغ
اجتهاد تلامذته بمقدار ما يسمع من البلبلة الصاخبة . وكانت العصا اداة
النأديب والحث على الاجتهاد . وبهذا اختتم ابراهيم دراسته الرسمية ، ولم
يبلغ مجموع ايام دراسته الا اقل من عام .

وازداد عدد السكان في ذلك الاقليم ، وقد نزع معظمهم من الجنوب
بيد ان احوال المعيشة والعمل ظلت بدائية ، يحرثون بمحراث ذي سكة
من حديد ، ويستعملون مناجك ومهاول وامشاطاً بدائية تقصم الظهر ،
ويدرسون الحنطة بمدقات يدوية ، ويدرّونها في الهواء ، ويطحنونها في
طاحونة مائية . وكان النازحون خشني الطباع ، يؤمنون بالارواح الشريرة
والسحر والمعالجة بالتعاويد والرقى . وللفال والشؤم دخل كبير في
سياتهم ، فالزراعة والحصاد النخ . يجب ان تتم في اوقات معينة من مراحل
القمر . وكانت الشؤون الصحية معدومة في مثل ذلك المحيط . وكانت
دعاياتهم بدائية صاحبة فاسقة على المكشوف .

وعلى رغم تباعد مساكنهم ، فقد كانوا يتجمعون للهو والطرب ، وكانوا
يحملون حفلاتهم ومهرجاناتهم منسقة مع مواسم اعمالهم ، كموسم قشر الحنطة
ودحرجة جذوع الشجر ، وجز الصوف ، وجني العسل وصيد الخنزير البري النخ ،
فيشتغلون ويهزجون ويشربون ويرقصون ، كانوا ينتعلون الاحذية الطويلة
(الجزم) او البوابيج في أغلب الاحيان ، وكثيراً ما كانت النساء
والاطفال تسير حفاة . أما كساؤهم فكان يصنع في المنزل من الجلود والفراء
والاقمشة الخشنة ، وكانت العملة نادرة غير ثابتة القيمة ، فكانت تجارتهم بالمقايضة .
وكان أغنى رجل في تلك الناحية هو جيمس جنثري الذي نزع من

كنتسكي مع عائلته الكبيرة في نفس الوقت الذي تزحت فيه أسرة لنكولن .
كان يملك ألف فدان ، اخذ يوسمها بمشريات اخرى ، وانشأ في مزرعته مخزناً
للبيع ، وما لبث ان صار مخزنه مركزاً تجارياً ، على مسافة ميل ونصف
من منزل لنكولن ، وصار ابرهيم يختلف اليه كلما فرغ من اعماله ، مصطحباً
هانكس دنيس ، فيقضي الساعات في معاينة الشبان الفلاحين ورواية القصص
والنكات ، مما يستدر منهم الاعجاب الصاخب والقهقهة العالية ، وكثيراً
ما كان يتأخر ليلاً ، فيضجر منه دنيس ويستحثه على العودة الى المنزل متبرماً .
وازداد جسم ابرهيم طولاً ونحافة وبرزت عظامه ، واشتدت قوة
عضلات صدره وساقيه وذراعيه ، فكان يمسك بطرف مقبض الفأس الثقيلة ،
ويعد ذراعيه أفقياً ، فيرفع الفأس حتى تساوي ذراعه المحدودة ، وكان يعتبر
الرياضي الاول في تلك الناحية ، لشدة بأسه وقوة عضله وسرعة جريه ، وكان
حاذقاً في تقليد الكلام والحركات ، وكثيراً ما قلد من سمعهم من الواعظين
او السياسيين ، كان يقف فوق جذع شجرة مقطوعة ليخطب ، فيتوقف
عمال الحقل عن اعمالهم ويفربون في الضحك والقهقهة ، بما يضطر والده الى
تقريبه او صفعه ، وقد أجمع الكل على امتداحه على لطفه ودمائه ، ورعايته
للعمل والانصاف ، وتفانيه في خدمة الغير ، وحببه على الحيوان الايبكم
وطموحه الى الفوز والتفوق ، وقد لاحظ جيرانه عدم ميله الى الاعمال التي
كان يقوم بها . وكانت مزرعة والده صغيرة ، فكان هذا يؤجره للعمل في
المزارع الاخرى ، فكان يؤدي ما عهد به اليه دون ما رغبة ولا حماس ، اذ
كان يفضل المطالعة . ذكر احداهم ان ابرهيم كان يأخذ كتابه معه الى الحقل
فيقرأ فيه عند آخر كل ثلم من الحراثة ، بينما يعطي الحصان فرصة للاستراحة .
كانوا يعدونه كسولاً على الاجمال ، الا في رغبته في التعلم ، ومن
المدهش حقاً ان يكون قد حصل ما حصله ، على ضالة ما منحه له من الفرص .
كان يقوم بكل ما تحتاجه أسرته من الكتابة وبمعظم ما يحتاجه جيرانه ،



لنكولن بطالع في كتابه على نور المدقاة في كوخه الحشبي

وكان اذا افتقر الى الورق او اللوح يكتب على صفائح من الخشب ،
 ثم يكشط ما كتب بالسكين ، ليكتب عليها ثانية ، وقد عثر على أقدم
 أنموذج لحطه في دفتر كتب فيه هذا البيت من الشعر الصبياني الركيك :
 ان ابراهيم لنكولن بيده والقلم سيصبح جيداً ، ولكن متى؟ الله يعلم
 وكان على قلة ما قرأه من كتب ، يكن احتراماً قلبياً مؤسسي
 الجمهورية الاميركية ، ولما أدى وثيقة اعلان الاستقلال ، فلما قرأ حياة
 وشنطون بقلم بارسون ويمز ، اخذ وصف معارك الحرب الاستقلالية
 بجماع قلبه ، وقد أعجب بعزيمة الجنود وصبرهم على المشكاره ، وحدثته
 نفسه ، على صفرسنه ، بان ما اهاب باولئك الجنود الى الكفاح كان لاشك
 أمراً غير عادي . يذكر جيرانه انه كان يجوب المنطقة في طلب الكتيب ،
 ومن الصعب التوفيق بين هذه الرغبة الملحة ، وما كتبه هو عن أيام صباه
 إذ قال انه لم يكن يجد في بيته ما يشير الطموح الى العلم ، وانه عندما بلغ
 سن المراهقة كانت معارفه قليلة ، لاتعدو القراءة والكتابة والحساب
 حتى القاعدة الثالثة ، وما كان إحساسه بالتقصير في التربية والتعليم ، يفقده
 الثقة والاطمئنان اللذين يشعر بهما عادة كل عصامي شق طريقه الى النجاح بنفسه .
 وقد اختلفت الآراء حول منزلة الكتاب المقدس من مطالعته ، فبينما
 يؤكد بعض معارفه انه كان يواظب على دراسته ، يقول الآخرون انه لم
 يعن به كثيراً ، ولكن من المرجح ان الكتاب المقدس كان الكتاب
 الوحيد الذي اقتنته أسرته ، وانه أكب عليه منذ الصغر ، فاستوعب منه
 ما كان يجلي به خطبه وكتاباتهما فيما بعد .

•••••

على مسافة ١٦ ميلاً من منزل أسرة لنكولن ، يلتقي نهر اندرسون
 الصغير بنهر أوهايو ، بالقرب من بلدة تروي ، هناك كانت السفن ترسو ليلاً
 وتزود بالوقود ، فينزل الركاب والبحارة الى تروي للتبضع واللهو ،

فازدهرت البلدة ورغد عيش اهاليها ، وكان جيمس تايلور يدير هناك معبرة
أي زورقاً لعبور النهر بين ضفتيه ، فاتخذ ابراهيم مساعداً له ، وكانت في
السابعة عشرة ، له بنية الرجل المكتمل ، ولكنه لم يكن يتقاضى سوى ٣٧
بنساً في اليوم ، مقابل ما وصفه بانه افدح عمل يكلف به فتى في سنه ، فعكف
في أوقات فراغه على بناء زورق صغير . وحدث ذات يوم ان اثنين من
المسافرين هرعا يطلبان ما ينقلهما الى السفينة التي كانت على أهبة الاقلاع ،
فحملها ابراهيم في زورقه يجدف بمجدافه الوحيد جاهداً حتى أوصلها الى
جانب السفينة ، وكانت قد تحركت ، وبينما كانا يتسلقان الى الظهر رمى اليهما
بحقيبتيهما ، وما كان اعظم دهشته وسروره اذ رمى اليه كل منهما بنصف
ريال فضي ، وقد قال فيما بعد : « لم اكن أحلم انا الولد الفقير ان ا كسب
دولاراً في أقل من يوم كامل » .

تعاقد وهو في التاسعة عشرة مع جيمس جنترى على ان ينقل له شحنة
من البضائع الى مدينة نيو أورلينز ، وابتنى قارباً مسطحاً شحنه هو وابن
جنترى بالمحاصيل الزراعية ، ونحرا به نهر أوهايو الى نهر المسيسي حتى بلغا
عاصمة الغرب التجارية ، وكان يراقب كل شيء ويلاحظ كل شيء ، فأخذ
يدرك سعة بلاده ورونقها وعظمتها ، وبينما كانا نائمين ذات ليلة والمركب
راس ، داهمتهما عصابة من الزنوج اللصوص ، فاشتباك معها وتمكنا من طردها
دون ان يلحق بها الا القليل من الاذى . ولما بلغا نيو اورلينز وهي على
مسافة الف ميل من مصب نهر اوهايو ، باعا المركب وشحنته ، وقفلا عائدين
على ظهر احدى البواخر .

افتتحت تلك الرحلة التي دامت ثلاثة شهور آفاقاً جديدة لذلك الشاب
الطموح ، فقد تعرف لأول مرة بحياة المدن . كان المرفأ يزخر بالنشاط ،
و كثيراً ما تتجمع فيه الف وخمس مئة من مختلف المراكب والمواهب
يسير كل اربعة او خمسة معاً الى رصيف الضفة حيث تفرغ حمولتها ،

فتنقلها العربات والوكازات الى العنابر المكتظة بانتظار شحنها الى مختلف اسواق العالم ، وشاهد في شوارع الرصيف المبلطة خشوداً من الزراع والتجار والباعة والكتاب والنوتية والعمال ، وعند الرصيف القريب من السوق العامة سلسلة من الموازين محملة بالدواجن والخضار لتسوين المدينة ، كما شاهد الالاف من بالات القطن وصناديق السكر والتبغ ، وأنى جال ببصره كان يجد ثروة هائلة ما كانت لتخطر له على بال ، وسمع شتى اللغات واللهجات من افرنسية واسبانية وبرتغالية وارلندية وزنجية ، ومزيجاً من اللهجات الهجينة ، وتفرج في الضواحي على الحدائق الغناء والبساتين المنسقة ، والمروج الخضراء ، ورأى كنيسة المدينة قائمة في وسطها في أبهة وجلال ، والمباني الفخمة وما لها من شرفات وأروقة وما عليها من نقوش وزخارف .

لقد بهرته تلك المدينة الغريبة الفريدة بما جمعته من مختلف الحضارات والتقاليد الاوربية ، والمحافظاة على حرمة يوم الاحد ، وبما حوته من مراقص ومسارح واماكن اللهو ، وفننته حيوية أهلها وثقافتهم وفلسفتهم وآداب سلوكهم ، وما كانت تسترته تحت ثوب رقيق من أفضح الشرور والمعاصي ، فقد اشتهرت المدينة بما فيها من قصور فخمة للقمار ، ونساء فانتات رخيصات ، ودور للفسق والمتاجرة بالاعراض ، كما اشتهرت بسوق النخاسنة ، حيث كانت تعرض الرجال والنساء والأطفال وتباع بالمزاد ، فعاد الى بساطة عيشه الرتيب في انديانا ، ثأثر النفس ، تتنازعه شتى العوامل والافكار ، ونقد والده ما كسبه في تلك الرحلة ، وهو ٢٤ دولاراً ، كما كان يقضي بذلك العرف والقانون .

كان الموت قد زار أسرته ثانية قبل ذهابه الى نيو اورلينز ، ففي ٢٠ كانون الثاني ١٨٢٨ توفيت اخته سارة من جراء تعسر الوضع ، اذ كانت قد تزوجت من شاب فلاح يدعى هارون غريغزبي ، وكانت العداوة

قد استحكمت بين ابراهيم وأسرة زوج أخته ، إما لانه عده مسؤولاً عن وفاة أخته واما لسبب آخر مجهول ، فلما عقد قران أخوين آخرين من أسرة غريغزبي على فتاتين شقيقتين في حفلة مشتركة ، كان ابراهيم على رأس المؤامرة التي حيكت لادخال كل من العروسين الى مخدع زوج الاخرى ايلة الزفاف ، وقد اكتشف الامر في آخر لحظة ، وأمكن تفادي الخطأ قبل وقوعه ، ولكن من كان يعنيه الامر لم يندسوا تلك الاساءة فظلوا ساخطين حاقدين ، وأذكى ابراهيم نيران حقدهم بان فضح القصة بنشر رواية شعرية عنها كتبها بأسلوب لغة التوراة ، تحت عنوان « سفر اخبار رويين » ، وكاد الناس ان يفسوا تلك الرواية الانتقادية الهزلية ، لولا ان وليم هيرندن ، شريك ابراهيم السابق في المحاماة ، طفق يوجب ارجاء انديانا بحثاً عن معلومات تساعد على كتابة ترجمة لنكولن ، فعثر بمجوز أسميته الرواية عن ظهر قلب ، وقد كتب لنكولن مقطوعات اخرى من الشعر الركيك ، كانت كلها من باب النقد الهزلي

في ٣٠ نيسان ١٨٢٧ دفع توماس لنكولن رصيد ثمن الثمانين فدانيا الغربية من مزرعته وتنازل عن ملكية الثمانين فدانياً الشرقية . وفي ٢٠ شباط ١٨٣٠ باع المزرعة لتشارلز غريغزبي بمبلغ ١٢٥ دولاراً ، لانه لم يحقق ما كان يؤمله منها ، وقد أفرغت الأسرة وافدة ثانية من مرض الحليب وكان جون هانكس احد ابناء عم زوجته قد غادرهم قبل اربع سنوات وانتقل الى اواسط ولاية إلينوي ، وكان يكتب اليهم يغريهم باللحاق به لما في تلك الولاية من إمكانيات . وفي ١ اذار ١٨٣٠ ارتحلت الاسرة بكل ما لها من منقولات في ثلاث عربات ، تجر احداها اربعة رؤوس من الخيل ، ويجر كلا من الاخرين زوجان من الثيران . وكان يسوق احدهما ابراهيم يستشير الثيران البطيئة بصوته ومنخسه ، وكان قد بلغ سن الرشد .

وكانوا في طريقهم يعبرون الانهار التي لم تكن عليها جسور بعد ،
ويتوقفون في مراحل لطهي الطعام ، ويببتون حينما دهمهم الليل ، وبعد
ان قطعوا اكثر من مئتي ميل ، وصلوا الى نقطة على الضفة الشمالية من نهر
سنغامون ، تبعد قليلاً عن ديكانور ، وهي المكان الذي اختاره جون
هانكس لاقامتهم . وكان جون قد هبأ لهم جذوع الأشجار لبناء الكوخ
فاقاموه بسرعة . ووجدت الاسرة ان ظروف المعيشة كانت بدائية كالتي
عهدوها في انديانا ، الا ان الارض كانت مروجاً منبسطة ، لا احراشاً
كثيفة ، والاشجار فيها تنمو على جانبي مجاري المياه .

وعمل الرجال في اثناء الربيع والصيف في تنظيف وتمهيد ١٥ فداناً
من الارض ، وسيجوها بالقضبان الخشبية ، وزرعوها ذرة . واشتغل
ابراهيم وابن خاله جون هانكس في تنجير واعداد ٣٠٠٠ من الاوتاد
وقضبان السياج لوايم وارنك مدير الناحية ، وفي اعداد الف اخرى
لاثنين من الجيران ، كما عاون تشارلز هانكس في حراثة ارضه وتفتيش
ما فيها من مدر . ولم يميز ابراهيم بعد بأي من بشائر النجاة والذكا ،
مع انه كان قد بلغ مبلغ الرجال ، بل لاح انه منساق مع تيار الحياة
الحاملة المغمورة ، حياة الفلاح الرائد او العامل المهاجر ، التي كانت من
نصيب والده ومن حوله .

وفي الخريف اصيب جميع افراد الاسرة تقريباً بالحمى والبرداء ، وهي
من العلل الشائعة في إلينوي في تلك الايام ، فاستحوذ عليهم اليأس وعولوا
على الرحيل . واكثرت بقوا هناك طيلة الشتاء ، وكان شتاء قاسياً ، فقد
هبّت عاصفة ثلجية هوجاء في كانون الاول ، ودامت اياماً دون انقطاع
حتى بلغ ارتفاع الثلج على الارض ثلاثة اقدام . وعقب ذلك مطر مدار
اخذ يتجمد ، وتلاه الثلج ثانية ، فلما صبحا الجو ، عصفت ربيع شمالية
صرصر اخذت تدور كالذوااة وتذرو حبات الثلج المتجمد في هبات تعمي

الابصار وتخنق الانفاس ، وكانوا كلما شقوا دربا للمرور ، تختفي معالمه
في اليوم التالي ، وكان سطح الجمد ينهار تحت حوافر الخيل والبقر .
واصبحت الظباء فريسة سهلة للذئاب ، اذ تحتبس قوائمها الدقيقة في الثلج ،
فلا تستطيع النجاة . وقل علف الماشية ، لان معظمه لم يكن قد جمع من
الحقول . وظل الثلج على الارض تسعة اسابيع ، لم ترتفع فيها الحرارة
عن ١٢ درجة تحت الصفر . فلما جل الربيع وذابت الثلوج ، غمرت السيول
تلك الناحية .

وانتقلت اسرة لنكولان مرة اخرى الى ناحية ثانية من ولاية الينوي
وهي قضاء كولز . ولكن ابراهيم لم يصحبها ، اذ كان قد اتفق مع جون
جونستون ابن زوجة ابيه ، ومع جون هانكس ، على القيام برحلة الى
نيواورلينز ، لنقل شحنة تخص دنتون اوفوت . فاشتروا زورقا كبيراً
وساروا به في نهر سنغامون الى نقطة قرب مدينه سبرنغفيلد ، حيث
يلاقهم اوفوت . ولم يدر في خلد ابراهيم آنذاك ، ان تلك الرحلة كانت
نقطة الانطلاق في حياته ، فلن يظل مقيداً بسلاسل اسرته ، وقد بلغ السن
التي لا يحق لوالده فيها ان يطالبه بمكاسبه ، فليعمل اذن مستقلاً بنفسه .

.....

هكذا دخل ابراهيم طور الرجولة ، يحمل طابع حياة الرواد المرهقة .
ان نظام تلك الحياة صارم عنيد لا يرحم ، ينهار امامه بعض الرجال ،
كما انهار والده ، واكنه نظام يبث الشجاعة والمثابرة والحزم والثقة بالنفس
والتصميم على تقرير المصير ، في اولئك الذين يـوون على احتمالهم . وكما
ان الغرب كان من اهم العوامل في تقرير مصير الحياة القومية الاميركية ،
فكذلك كان تأثيره على لنكولان وتكييف رجولته .

ولم ينته لنكولان بعد من تأثير ذلك النظام ، فقد قدر له ان يعيش في
بيئة الريف البدائية عشرين عاماً آخر . وقد تجلى طابعه في خطبه وكتاباته

حتى آخر أيام حياته ، فكان يتخذ من الحصان والكلب والثور والمهرات
امثالاً يوضح بها معانيه للبسطاء والسذج ، ويشتم عبير الريف في كثير
بما استعمله في أسلوبه الأدبي من تشبيه واستعارة ومجاز .

كان الشغل الشاق المرهق قد أ كسب جسمه قوة وصلابة ، بما صان
صحته خلال حياته الهادئة الرأ كدة ، كان قوي الجسم قوي العقل ، ولكنه
بطيئهما ، كما هو شأن أهل الريف ، كانت مشيته ثابتة ، يشوبها شيء من
الحذر ، يطأ الأرض بقدمه دفعة واحدة ، لا يسبق عقبها مقدمها ، شأن
الذي ألفت قدماء الأرض المحروثة ، وقد ظل مسلكه وأسلوبه في الحياة
مطبوعاً بنوعاً ما بالطابع القروي الريفي .



الفصل الثاني

شاب متقل

سار لنكولن ورفيقاه هانكس وجونستون بقاربهم في النهر ، حتى بلغا عبارة جودي حيث تقوم الآن قرية رفرتون ، فارتسوا ثم مشوا الى سبرنغفيلد للاقاة اوفوت . وكان هذا الرجل مرحباً ، يكثر من الشرب والتحدث عن المشاريع الكبرى المغربية بطلاقة ، ووجدوه فعلاً في احدى الخارات يطرف سامعياً بمشاريع الثراء السريع . ولكنه في غمرة ذلك الحماس الملهب ، نسي إعداد القارب لتجارته ، فتعاقد الثلاثة معه على بناء قارب لهم ، باجر شهري لكل منهم قدره عشرة دولارات . وابتنوا لهم كوخاً خقيراً ياوون اليه ، وعهدوا الى لنكولن بطهي الطعام وقطع الخشب اللازم للقارب من حرش الحكومة ، وكانوا يقطعون الجذوع الى اقسام ، ويرسلونها في النهر مع التيار الى منشرات كير كباتريك لشقها الواحاً . ويقول احد الذين شاهدوا لنكولن آنذاك ، انه كان يعمل في بناء المركب وقد تعرى إلا من ثيابه التحتانية ، وبدنه يتصبب عرقاً ، وهو يزيح شعره المبلل عن عينيه بين آونة واخرى . وأنجز المركب في شهر ، فشحنوه ببراميل لحم الخنزير المقدد وبعض الحبوب والماشية وساروا بجذفين مع التيار ، الى ان وصلوا قرية نيو سالم حيث سد احدى المطاحن كانت المياه تنساب من فوقه . ونخيل الهم انه يمكن اجتيازه بقاربهم ،

ولكن القارب علق في منتصف السد وتسربت المياه اليه من المؤخرة ،
ونجمع القرويون على الضفة يصيحون بمختلف النصائح والتعليقات ، ولكن
عبثاً ، فلم يستطيعوا زحزحته لثقل شحنته . وأخيراً امر لنكولن بنقل
جزء من الشحنة الى الضفة ، ثم نقل الباقي الى المقدمة لموازنة المركب ، ونزل
الى البرفاستعار مثقباً فتح به ثقباً لتصريف الماء ، ثم سده بسطام ، وهكذا
تمكنوا من المرور فوق السد . وأعجب أوفوت بحصافة لنكولن واثني
على سعة حيلته وقدر له مستقبلاً باهراً ، كما أدرك ببصيرته الثاقبة ان
تلك البقعة قابلة للنمو والازدهار ، فعول على استئجار المطحنة وافتتاح
متجر ، وعهد الى لنكولن بإدارتها لدى عودته من الرحلة .

وعاد لنكولن الى نيو سالم في اواخر تموز ١٨٣١ منهو كماً محطماً ،
وفي اوائل آب جرت انتخابات في القرية ، فمارس حق الاقتراع لأول
مرة ، وأمل على كاتب الانتخاب اسماء مرشحيه علناً ، وكانت قرية نيو سالم
تقع على مرتفع فوق نهر سنغامون ، ويكتنفها من الشمال والجنوب واديان
عميقان ، ولم يبق مفتوحاً الا الغرب ، حيث ينحدر المرتفع الى مستوى
المروج المجاورة ، اما من الشرق عبر النهر فكانت الارض مغطاة بغابات
كثيفة ، وازدهرت القرية بعد وصول لنكولن اليها بعامين ، فصار فيها
نحو ٢٥ عائلة ، بين افرادها صانع براميل وصانع أحذية وصانع دواليب
ونجار وحداد وصانع قبعات وطبيبان ، وفيها حانة ، وآلة لتمشيط الصوف
ومخزنان ، ومكتب بريد ، وعبارة لعبور النهر ، ولكن الحياة فيها لم تكن
قد استقرت بعد ، فكان الوافدون اليها ، ومعظمهم من الجنوب ، لا يلبثون
ان يغادروها ليحربوا حظهم في مكان آخر ، ولذلك كثر انتقال الاعمال
والمشاريع من يد الى اخرى . كانت نموذجاً صادقاً لمجتمع من الرواد
يكفي نفسه بنفسه ، يعيش القسم الاكبر من افراده على الزراعة بأدوات
بدوية بدائية ، وكان حظ النساء من العمل أصعب وأقسى من حظ الرجال

فكن يمتن في سن مبكرة، ويمتد عمر الرجل حتى ليتخذ زوجتين او ثلاث واحياناً اربع . وقد وصف سائح انكليزي الحالة في واسط ولاية البنيوي آنذاك ، فقال ان الحياة هناك قاسية على النساء وعلى الماشية ، والعائلات كبيرة يولد فيها الاطفال في كل عام ، وقال احد الاهالي : كان الانسب يبقى على قيد الحياة ، والآخرون يتوفون لان الله استنسبهم .

وجد لنكولن في تلك البيئة نفس الملاهي التي ألفها في انديانا ، من رقص جماعي ، واحتفال ببناء المنازل ، وصيد الذئاب ، وجني العسل وما اشبه . لم تكن في القريه كنيسة ، ولكن القس جون بري كان يعظهم ويصلي فيهم ، كما كانت يزور القريه بعض القسس الطوافين ، لاسيا القس الشهير بطرس كارتر ايت .

واخيراً وصلت البضائع التي طلبها او فوت ، فافتتح مخزنه وعين لنكولن كاتباً فيه ، براتب قدره ١٥ دولار شهرياً ، مع الحق في سكنى الغرفة التي خلف المخزن ، وكانت بقالة كلاري المجاورة مرتعاً لنفر من رعاك الشبان يعربدون ويتلهون بالمعاكسات وشتى اعمال الشقاوة ، مثل قص اذئاب الخيل ، او وضع الحصى تحت سروجها لكي تطوح براكبيها ، او وضع السكاري في براميل ودحرجتها على المنحدر ، وكانت رياضاتهم المحببة المصارعة و قتال الديكة وقطع رأس الاوزة ، وذلك بأن يأخذوا اوزة مسنة ، فيشحمون عنقها ويعلقونها على شجرة بحيث يتدلى رأسها ، فيمر الخيال من تحته باقصى سرعة محاولاً قطعه .

واسترعى لنكولن انتباه تلك العصابة اليه لكثرة ما فاخر به او فوت زاعماً ان احداً لا يستطيع ان ينده في الركض او القفز او المصارعة ، وأبى اهالي نبوسالم التسليم بذلك التفوق ، وتحداه جاك آرمسترونغ زعيم العصابة لمصارعته ، وكانت المشجاعة أولى ضروريات النجاح في مثل ذلك الهبط ، فلا شيء أدى الى نبذ شخص من المجتمع ، من ظهوره بظهر

الجيان ، وقد قبل لنكولن التعدي من فوره ، وفي اليوم المحدد ، اجتمع حشد من الرجال والفتيان المتلهفين على المرتفع المشرف على النهر ، واخذوا يتراهنون على الغالب بالنقود والسكاكين والجلي للزهيدة ، بينما خلع الشبان ثيابها استعداداً للمصارعة ، واحتدم الصراع بين تحويم ومداورة وقبض وافلات وجذب ودفع الى ان تمكن لنكولن من خصمه بقبضة محكمة فطرحه ارضاً وارتمى فوقه ، ضاغطاً على كتفيه حتى ألصقها بالارض ، ولم يعجب الشبان ان يروا زعيمهم مغلوباً فثاروا وهاجموا لنكولن ، ولكنه تخلص منهم وأولى ظهره احد الجدران ، وتجداهم ان يصارعوه او يقاتلوه فرداً فرداً ، فلم يتقدم احد منهم ، بل دنا منه آرمسترونغ متثاقلاً ، وصافحه مثنياً عليه معجباً به ، وأصبحا صديقين حميمين منذ تلك الساعة ، وأذعن رفاقه للامر الواقع ، فرحبوا بقبوله في زميرتهم واعترفوا له بالزعامة ، وقد لاقى من شدة ولائهم طيلة اقامته بينهم ما لا يثنى به مال .

.

فاز لنكولن ، لا بقبوله في مجتمع نيو سالم فحسب ، بل بتزعمه العناصر العربية ايضاً ، وما ان تحرر من الاشغال البدنية الشاقة ، حتى صار يطمح الى تحسين ثقافته ، وقد كتب هو عن نفسه قائلاً انه لما بلغ الثالثة والعشرين وانفصل عن ابيه ، اخذ يدرس قواعد اللغة الانكليزية بقدر ما تيسر له لكي يحسن الكتابة والقراءة ، كما درس الحساب ، وكان يعلم نفسه بنفسه ، الا في بعض الاحيان ، حينما يضطر الى استشارة المعلم منتورغراهام ، اما ولعه المقيم بؤافات شكسبير وروبرت بيرنز ، فيعود الفضل فيه الى قروي نكرة اسمه جاك كلسو ، شغف بالقنص وصيد السمك وكان يلم ببعض الثقافة الادبية . وشجعه جيرانه على ان يجرب حظّه في السياسة ، فعول على ذلك ، لان السياسة كانت أسرع سبيل الى التقدم في مثل تلك البيئة ، وكان في وسعه ان يفوز بوظيفة محلية على أهون سبيل ، ولكنه كان بعيد المطامح ،

فرشح نفسه لعضوية مجلس الولاية التشريعي ، وفي برنامج الذي نشرته صحيفة سنغامون في مدينة سبرنغفيلد يوم ٩ آذار ١٨٣٢ ، اعلن انه يهدف الى الاصلاح الداخلي ، وتحسين اسباب التربية والتعليم ، وسن تشريع يحدد نسبة الفوائد على الديون ، وكان أهم الاصلاحات الداخلية في نظره تسهيل الملاحة في نهر سنغامون ، وذلك بتعديل مجراه بحيث يصبح مستقيماً لا تعتوره المنعطفات التي تعرقل جريان مياهه بما يتجمع فيها من الاخشاب والاعشاب ، وقد سلم بأفضلية النقل بالسكك الحديدية ، لولا تكاليفها التي تفوق الطاقة ، وقال عن التربية انها أهم ما يجب ان يعنى به الناس ، ليمكن كل فرد من قراءة تاريخ بلاده وسائر البلدان ، « فيدرك من ذلك قيمة نظامنا الحر ... فضلا عن الفوائد الاخرى والشعور بالرضى حين يستطيع الجميع الجميع تلاوة الكتاب المقدس والكتب الاخرى الدينية والادبية . » ورأى في قانون يمنع الربا الفاحش امراً لا بد منه في بلاد جديدة فتية يحتاج اكثر اهلها الى رؤوس الاموال ، وقال ان قانوننا كهذا لا يضر بمصالح أية طبقة من الناس ، اذ يمكن التملص من القانون في الظروف الاستثنائية التي قد تبرر فرض الفوائد العالية .

واختتم فدائه بقوله : يقال ان لكل انسان مطامحه الخاصة ، ومهما كان مبلغ هذا القول من الصحة ، فاني واثق من ان لا مطمح لي اعظم من ان اتال احترام مواطني و ثقتهم ، وذلك بان اجعل نفسي اهلاً لاحترامهم وثقتهم . اما الى أي حد سأنجح في تحقيق تلك الائمة ، فأمر منوط بالمستقبل ، فانا لا ازال حديث السن مجهولاً من قبل اكثركم ، وقد ولدت وترعرعت في أوضاع البيئات ، وليس لي من يسندني من الاقارب الاثرياء او المرموقين ، فقضيته برمتها أطرحها بين يدي الناخبين المستقلين في هذا القضاء ، فاذا انتخبوني ، حملوني فضلاً ان أفتر لحظة في جهودهم لتعويضهم عليه ، وان رأوا بحكمتهم ان من الاجدر ان يقوني متخلفاً في المؤخرة ، فلقد ألفت من

الفشل في حياتي ما يكفيني شر الحنق والسخط .

لقد اصاب لنكولن في اختيار الاصلاح الداخلي موضوعاً لملته الانتخابية ، لان مصير غربي البلاد كان يتوقف على تحسين وسائل النقل ، كانت التربة خصبة ، لكن تكاليف نقل المحاصيل الزراعية الى الاسواق كانت تلتهم الارباح ، كما ان اختياره هذا قد جاء في اوانه ، لان ذلك الاقليم كان آنذاك يتطلع الى امكانية النقل بالسفن التجارية ، وكانت احدى هذه السفن الصغرى ، واسمها « الطلمس » راسية في بيردزتاون على نهر الينوي مستعدة لاقتحام نهر سنغامون حالما تذوب الثلوج . وفي سبيل تحقيق هذا المشروع ، نزل لنكولن مع بعض الرجال الى النهر ، وأعملوا الفؤوس والعتلات في ازالة الجذوع والاحطاب التي كانت تعرقل مجراه ، وقضوا اربعة ايام في تحطيم الجليد الذي كان يسد مصب النهر ، فعبرت السفينة مصعداً في النهر ، يرافقها على الضفة حشد من الرجال والصبيان يهتفون ويهلاون ، الى ان ربطت في مرسي بورتلند ، على مسافة سبعة اميال من سبرنغفيلد . وقد استبشر الجميع بهذا ، اذ رأوا فيه ما يحقق الامل في نقل رخيص منتظم على النهر ، الا ان منسوب مياه النهر كان قد ارتفع من جراء ذوبان الثلوج ، واخذ في الهبوط بسرعة ، فلا بد من ان تقلع السفينة على الفور والا جنحت ، فتقدم البحار الماهر روان هيرندن ليقود السفينة عائداً بها ادراجها ، واتخذ لنكولن مساعداً له ، وكان لا بد من ازالة قسم من سد الطاحونة في نيوسالم لتمكينها من المرور ، ثم قاداها الى بيردزتاون بسلام ، وقبض كل منها اربعين دولاراً ، ثم قفلا عائدين سيراً على الاقدام .

• • •

ما كاد لنكولن يعود الى نيوسالم ، حتى حدث ما كهرب الجو ، كانت البلدة تقع على الطرف الشمالي من الاقاليم المستعمرة ، ولم يكن

بعدها الا اكواخ مبعثرة هنا وهناك ، وبضعة مستعمرات ، كالتى كانت في منطقة مناجم الرصاص في غالينا على نهر المسسي ، والتي حول قلعة دير بورن حيث تقوم الآن مدينة شيكاغو ، اما باقي المنطقة فكانت لا تزال احراشاً ومروجاً يعث فيها الهنود الحمر . وقد جاء الخطر من احد قواد الثورة السابقين اسمه « بلاك هوك » (اي الصقر الاسود) ، لم يرض بالارض التي خصته الحكومة بها غربي المسسي ، فعبى النهر على رأس ٥٠٠ مقاتل .. وقد جاؤوا في الظاهر لزراعة الذرة ، بيد ان كثرة خيلهم واسلحتهم جعلت فصيلاً من الجيش النظامي في قلعة آرمسترونغ يراقبهم بحذر . وانتشر الذعر في تلك الارحاء ، الى ان تبودلت بعض الطلقات النارية فتأججت نيران الحرب .

وعلى الفور دعا الحاكم جون رينولدز الى التطوع من بين رديف الولاية وكان هذا يضم جميع الذكور بين ١٨ و٤٥ عاماً ، باستثناء المستنكرين عن القتال لاعتبارات دينية ، وغير الصالحين له صحياً ، الذين كانوا يدفعون بدلاً عسكرياً قدره ٧٥ سنتاً في العام . وكان على المتطوعين ان يجهزوا انفسهم بالسلاح وان يختاروا ضباطهم . فلما جاء رسول الحاكم الى نيو سالم كان لنكولن على وشك ان يفقد وظيفته ، لان سيده اوفوت كان قد مل الخزن ، وآثر المضاربة في الحبوب ، التي اخذ يشحنها من تنسي بكميات كبيرة ، بما اوقعه في ازمه مالية وجعله يقفل الخزن . فتطوع لنكولن من فوره ، واستعار حصاناً وهرع الى الملتقى على بعد تسعة اميال من نيو سالم . وكان معظم فصيله من اصدقائه وجيرانه ، وفتيان العصابة اياها ، الذين اختاروه رئيساً للفصيل ، واختاروا جاك ارمسترونغ رقيباً اول . وقد ظل لنكولن حتى بعد توليه رئاسة الجمهورية ، يذكر هذا الاختيار ويعتبره أمتع شرف ناله في حياته .

واجتمعت فرقة المتطوعين في بيردزتاون . وشكل فصيل لنكولن

جزءاً من كتيبة الفرسان . وكان المتطوعون يفتنون النظام ، فلما اصدر
لنكولان اول امر اليهم ، كان رددهم « اذهب الى حيث ألفت . . . » ،
بيد انه عوض بذلك عن قلة خبرته في الشؤون العسكرية . كان يعود
فصيله ذات يوم ، وهم يسرون بعرض عشرين جندياً في الصف ، فلمح
بوابة كان لا بد من عبورها ، ونسي الامر اللازم اذ ذاك بالدورات
جانبياً ، فاسرع الى ان واجه الفصيل وصاح : « قف ! تفرق الصفوف
وتعود الى الانتظام بعد البوابة » . وهكذا انقذ موقفه بنجاح .

وسار المتطوعون الى مصب نهر روك ، حيث اقساموا اليمين وانضموا
الى سرية من الجيش النظامي ، بقيادة المقدم زكريا تايلور ، وركبت
السرية قوارب النهر ، بينما سار المتطوعون يتخبطون في الاوحال ،
ويغوصون في المستنقعات الى ركبتهم وهم يجرون ويرفعون عربات العفش
وقد كلواهم وخيلهم من الاعياء ، وكانت خيامهم الزرية تقطر ماء من
غزارة امطار الربيع ، حتى صار بعضهم يتحدث عن الفرار . ولجأ لنكولان
الى كل ما لديه من الدهاء وسعة الحيلة للمحافظة على النظام ، وسطا بعض
رجالها ذات يوم على مستودع الفرقة ، واقاموا مقصفاً صاخباً بما نهبوه من
طعام وشراب ، فحكهم على لنكولان ، بصفته الرئيس المسؤول ، بالسجن
وحمل سيف من الخشب مدة يومين ، وسجن مرة اخرى لانه اطلق عياراً
في المعسكر .

وسرح فصيله بعد شهر من التطوع ، فعاد بعضهم ، ولكن لنكولان
تطوع لمدة ٢٠ يوماً كنفير في كتيبة الفرسان بقيادة ايبا ايلز ، كانت
معظمها من الملازمين والرؤساء والعقدا في الوحدات المسرحية . وهرعت
الكتيبة لنجدة منطقة غالينا ذات المناجم ، عند ما هدد الهنود بعزلها ،
وتبين ان الخبر مبالغ فيه ، فلم تعثر على هندي واحد . فلما عاد لنكولان
من هذه الحملة ، تطوع للمرة الثالثة لمدة ٣٠ يوماً في فرقة للتجسس

والاستطلاع ، بقودها فسيب وطبيب من سبر نغفيلد اسمه يعقوب ايرلي ولم تحدث معركة ما ، غير انه ساعد في دفن خمسة من رجال الجنرال ستلمان ، قتلوا في احدي المناوشات . وظل ذلك المشهد ماثلا في مخيلته مدة طويلة ، فكتب عنه فيما بعد يقول : « كانت شمس الصباح ترسل اشعتها الحمراء على الجثث الملقاة على الارض ، ونحن وقوف من جهة رؤوسها ، وكان على كل رأس بقعة حمراء بحجم الدولار ، هي المكان الذي اقتطع الهنود الحجر منه قطعة من جلد الرأس . كان مشهداً سخيفاً غريباً على شدة فظاعته ! »

وقضي لنكولن ايام تطوعه الاخيرة في البحث عبثاً عن الصقر الاسود وجماعته ، ثم سرح في ١٠ تموز ، على مقربة من ملتقى النهر الابيض بنهر روك . وكان قد سرق حصانه وحصان احد رفاقه في الليلة السابقة ، فكانا يتناوبان الر كوب على خيل بقية المسرحين . ثم اشترى زورقا وصلوا به الى هافانا ، ومن هناك سارا على الاقدام الى نيوسالم . وجاء مأمور رواتب الجيش الى سبر نغفيلد بعد ستة شهور ، فنقد لنكولن حوالي ١٢٥ دولاراً مقابل تطوعه ثمانين يوماً .

اخذ لنكولن فيما بعد يسخر من اختباره العسكري هذا ، ففي خطبته التي القاها في الكونغرس متمكهاً على جهود الحزب الديمقراطي في تعظيم الخدمات العسكرية التي اداها مرشحه للرئاسة لويس كاس ، قال : هل بلغك يا حضرة الرئيس اني من ابطال الجندية ؟ نعم يا سيدي ، فلقند اشتركت في حرب الصقر الاسود ، وسال دمي ونجوت . والحديث عن سيرة الجنرال كاس يذكرني بسيرتي . لم اكن في صميم هزيمة الجنرال ستلمان ، ولكنني كنت قريباً منها قرب الجنرال كاس من استسلام « هل » ، ومثله زرت المكان بعد ذلك بقليل . ومن المؤكد اني لم اكسر سيفي ، اذ لم يكن لدي سيفاً كسره ، ولكنني احدثت اعوجاجاً

في بندقيتي ذات مرة . إن كان كاس قد حطم سيفه ، فلقد حطمه في حالة يأس ، أما اعوجاج بندقيتي فقد حدث عرضاً . ولئن كانت كاس قد سبقني في النقاط التوت البري ، فلقد بذذته في اقتحام البصل البري ! ولعله فاتني في رؤية احد الهنود المقاتلين الاحياء ، ولكنني اشتبكت في معارك دامية عديدة مع البعوض . ولو اني لم يغش علي بسبب النزف ، فاني كثيراً ما شعرت بالجوع . ايها الرئيس ، اني لو اعتزمت يوماً ان اخلع عني تلك الشارة السوداء التي وصفتي بها اصدقائي الديمقراطيون فصرت مرشحهم للرئاسة ، فاني واثق من انهم لن يسخروا مني بقدر ما سخروا من الجنرال كاس ، لو حاولوا ابرازي كبطل من ابطال الجندية» الا ان تطوع لنكولن اكدسبه خبرة قيمة في شتى النواحي ، فقد تعرف الى حياة الجندية ، وادرك قيمة النظام والروح المعنوية ، كما اثر على موزد جديد للقصص ، وتعلم اصول معالجة الرجال ، واكتسب صداقة بعض من خدموا معه ثم اصبحوا من زعماء ولاية الينوي فيما بعد . وعلى رغم تمكمه على خدمته العسكرية ، فان زميله في المهاماة وليم هيرندن اعتقد انه كان فخوراً بها حقاً .

• • • •

وصل لنكولن الى نيو سالم قبل اسبوعين من يوم الانتخابات ، وعلى الفور باشر حملته لدخول مجلس الولاية التشريعي ، فكان يجوب الارياف ، بجهد الفلاحين في حقوقهم ، ويمازح القاعدين في الدكاكين او يشاركهم في تمذية الخيل ، ولم يلق من الخطب الرسمية الا القليل . وقد وصف الذين رأوه في اثناء تلك الحملة ما كان عليه من طول القامة وسوء القيافة ، وهو في قميص من البغث ؛ وعلى رأسه قبعة من القش لا شريط لها ، وقد ارتفعت ساقا بنطلونه عن حدائه الغليظ مسافة ستة قراريط ، فبدت جواربه الرخيصة الزرقاء . ومع ذلك كان يتوك اثراً طيباً في كل من يقابله .

وفشل في الانتخاب ، اذ كان ترتيبه الثامن من حيث عدد الاصوات بين ١٣ مرشحاً ، وقال فيما بعد انها كانت الهزيمة الوحيدة التي مني بها في حياته في انتخاب شعبي مباشر . ولم تشبب الهزيمة عزيمته ، فكان قد نال ٢٧٧ صوتاً من ٣٠٠ في ناحية نيو سالم ، ولم يفشل في بقية النواحي الا لان اهلها لم يعرفوه . وقد زادت هذه الحملة من معارفه ، ومن ثقته بنفسه والتمرن على الخطابة ، وولدت فيه ذلك الولع بالسياسة الذي لم يفارقه طيلة حياته .

• • •

كان انكولن بدون عمل ، فجار في امره . ففكر في الحدادة ، فلم ير لها مستقبلاً ، وفكر في دراسة القانون ، فوجد من ضآلة تربيته ما يجعل ذلك مستحيلاً . ليس افضل من فتح متجر في مثل ذلك المجتمع الصغير ، فصاحبه يصبح معروفاً محترماً كمواطن مرموق ، ومتجره يصبح مركزاً اجتماعياً ومنتدى سياسياً ، يجتلف اليه العاطلون والمثلكثوث التزجية الوقت ، وملتقى للاصدقاء يثرثرون فيه ويتداولون الاخبار . وكانت في نيو سالم ثلاثة متاجر ، أنجحها متجر صموئيل هـل ، والثاني لروبين ردفورد ، والثالث يخص رومان هيرندن ووليم بري . ولاحق له الفرصة لان يصير تاجراً مستقلاً عند ما عرض عليه هيرندن شراء حصته في المتجر ، وتمت الصفقة بالسهولة المألوفة في تلك الايام ، اي بمجرد توقيعه على صك البيع واصبح شريك بري ، وما عتا ان اشترى ايضاً متجر ردفورد .

لم يجد لانكولن ما كان يؤمله من النجاح السريع ، في بيع الشمع ولحم الخنزير والاسلحة ، ومقايضة البغث والشيت والشاش بالبيض والعسل وشمع النحل ، وكان الى ذلك قليل الحيلة في شؤون التجارة والمساومة . ولاحظ تناقضا في برمبل الوسكي كلما جاء بملا منه لاحد المشتريين ، وتبين ان المجرم هو شريكه فقد كان مسكيرا مدمنا ، فما كان الا ان غرقت

شراكتها في الديون .

توفي شريكه وليم بري في ١٠ كانون الثاني من عام ١٨٣٥ ولم يخلف سوى نحو ٦١ دولاراً ، ذهب نصفها للأطباء الثلاثة الذين عالجوه في مرضه الأخير . ولم يستطع لتكولن استيفاء ما كان له من ديون على شريكه ، وأصبح مسؤولاً بمفرده عن جميع ديون المحل ، وقد بلغت نحو ١١٠٠ دولار ، وسماها « الدين الوطني » لعجز موارد الضئيلة عن تحملها . وقد اجمع مؤرخوه على أنه لم يستطع سداد ذلك الدين كله الا عام ١٨٤٧ عند ما دخل الكونغرس . ويشهد هذا بسمو اخلاقه ، فقد كان في وسعه ان يهجر البلدة دون دفع ديونه ويضع اللوم على البلدة بانها سبب فشله كما يفعل بعض الناس . اما هو ، فلم يفكر في التخلص من ديونه فحسب ، بل كان يعتقد انه لو أتيح له النجاح في اي مكان آخر ، فالأحرى به ان ينجح في نيو سالم حيث اكتسب عدداً من الاصدقاء . ولقد أكسبته استقامته في جميع معاملاته لقب ابراهيم الصديق .

.....

كانت امانته وقوته البدنية تكفلان له ايجاد عمل ، ومع ذلك ظل في ياس مشبط ، حائراً في كيفية سداد ديونه ، طامحاً الى بلوغ وضع افضل من وضع العامل العادي البسيط . وتحقق شيء من امنيته في ٧ ايار ١٨٣٣ عند ما عين مديراً للبريد في نيو سالم ، وظل كذلك حتى نقل مكتب البريد الى بطرسبرج في ٣٠ ايار ١٨٣٦ . كان البريد في العام الاول من خدمته يحمل الى البلدة بواسطة ساع خيال ، ثم صار يحمل في عربة بريد ، ولم تستعمل آنذاك طوابع ولا ظروف ، بل كانت الرسائل تطوى وتختم بالشمع . وكان متسلم الرسالة يدفع الرسم ، على قدر صفحاتها والمسافة التي قطعها ، فكان على لتكولن ان يقدر عدد الصفحات ويلاحظ ختم البلد الذي صدرت الرسالة عنه ، ويكتب رسم البريد على

الزاوية العليا ، فاذا اعترض احدكم على المبلغ ، كان عليه ان يفرض الرسالة امامه ليتحقق من عدد صفحاتها ، و كان راتبه يقدر حسب الايصالات الموجودة في المكتب ، و كان يبلغ نحو ٥٥ دولاراً في العام .
كان ملتزموا البريد في تلك الايام يقبضون اموالهم بواسطة سندات تفويض مسحوبة على مديري البريد ، ويقول هـ ر في روس ملتزم بريد الناحية ، ان بعض المدراء كان يتلكأ في الدفع ، اما انكوان فلم يكن يتأخر ، اذ كان يحفظ المبلغ على حدة في جوب قديم ازرق داخل صندوق خشبي .

ولم يستطع العيش على ذلك الدخل الضئيل ، ولم تحمل ككبرياؤه دون اغتنام اية فرصة تلوح لكسب بعض المال مهما كان نوع العمل ، فكان يشق قضبان الخشب ، ويشغل في الطاحون او في احدى المزارع ، ويعمل وكيلاً محلياً لصحيفة سنغامو التي كانت تصدر في سبرنغفيلد . و كثيراً ما عمل كاتباً في الانتخابات فيحمل قوائم النتائج الى سبرنغفيلد ، ليقبض مبلغ دولارين ونصف .

.....

اخذ توافد النازحين الى تلك الناحية يتطلب المزيد من مسح الاراضي لتحديد مواقع القرى والطرق وتعيين تخوم المزارع ، وتراكت الاشغال على جون كلهون مساح الناحية ، فعرض على انكولن ان يعمل كوكيل له في بعض الجهات . وقبل انكولن العرض ، بعد ان تثبت من انه لا ينطوي على ملابسات سياسية ، وحصل على بركار وسلسلة للقياس ، وقرأ كتاباً عن الموضوع ، وباشر العمل . ونال على اول مسح قام به زوجين من جلود الحيوان ، استعملتها زوجة صديقه جاك آر مسترنغ في ترفيع بنطلونه لحمايته من العليق والوسج . وكانت ديونه تهبط كاهله ، وتعيقه عن التقدم في عمله ، فقد اضطره عمله كمساح ان يشتري حصاناً مع كامل عدته بنحو

٥٨ دولاراً بالدين ، فلما استحق الدين وعجز عن ايفائه ، اقام الدائن الدعوى عليه والقي الحجز على مقتنياته . ودبت الحمية في بعض اصدقائه ، فهبوا لنجدته ، فظلوا يزايدون على مقتنياته في المزاد العلني حتى ظفروا بها وردوها اليه .

عول لنكولان على دخول معركة الانتخابات للمجلس التشريعي ثانية في ربيع ١٨٣٤ . ولم يصدر بياناً بسياسته ، ولعل ذلك بسبب انه كان مرشحاً من قبل الحزبين ، ولم يخاطب الا قليلاً في اثناء الحملة ، بل اكتفى بالدعاية المباشرة في مكتب البريد وفي تجواله لمسح الاراضي . قال صديقه هيرندن ان لنكولان زاره في ابان الحصاد ، وبعد ان تناول طعام الغداء ، خرج الى الحقل وضمن اصوات ثلاثين فلاحاً بتفوقه عليهم في غربة الحنطة . كان ستيوارت في اثناء تلك الحملة الانتخابية ، قد مال الى لنكولان ، فشجعه على دراسة القانون ، وكان ستيوارت هذا يتمتع بجميع الامتيازات التي حرم منها لنكولان . فقد ولد في ولاية كنتكي وتخرج في كلية سنتر ، وكان ابوه سياسياً في الكنيسة المشيخية وامتاد اللغات الكلاسيكية في كلية ترانسلفانيا . وقد قرأ كثيراً ودرس الحقوق في كنتكي ، وبدأ مزاوله المحاماة في سبرنغفيلد عام ١٨٢٨ . ومع انه كان يصغر لنكولان بعامين ، فانه فاز في انتخابات المجلس التشريعي عام ١٨٣٢ وبلغ درجة الزعامة لا في الشؤون السياسية في الولاية فحسب ، بل في تعاطي المحاماة ايضاً . وكان الى ذلك طويل القائمة بهي الطلعة دمث الاخلاق ، مخلصاً صريحاً في علاقاته مع الناس ، مع بعض التحفظ والغموض في ادارة الشؤون الحزبية .

شفق لنكولان بعلم الحقوق منذ سنوات ، فكان قد قرأ قوانين انديانا المعدلة ، لما كان يقيم في ناحية سبنسر ، حيث كان يتسكع حول دار

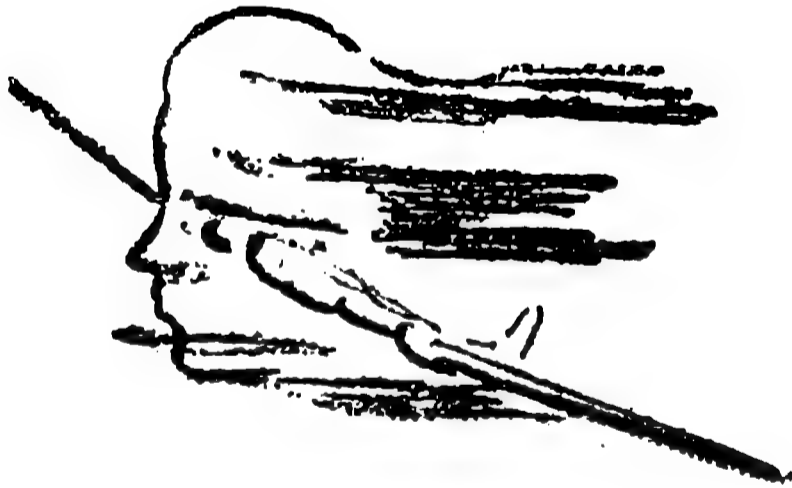
المحكمة يتسمع القضايا والمرافعات . وكانت فكرة المحاماة تراوده منذ عام ١٨٣٢ ، حين اشترى كتاباً في الحقوق ، كان يأخذ عنه اصول الصكوك والرهونات والعقود لمنفعة جيرانه . بل انه ترافع في بعض القضايا الصغرى امام حاكم الصلح بولنغ غرين ، واكن مجاناً ، لان في نقاضي الاجرة مخالفة للقانون .

وازداد ثقة بنفسه ، بفوزه في الانتخاب وبايمان ستيوارت بمقدرته ، فألى على نفسه ان يصبح محامياً ، فكان يستعير الكتب من ستيوارت ، ويعود بها الى نيو سالم ، فيغتم كل لحظة من فراغه من اعماله ، لينفرد في مكان منزول وينكب على الدرس ، وكثيراً ما كان يوى مستلقياً تحت شجرة وقد رفع ساقيه الطويلتين على جذعها . واشترى كتابين في مزاد علني في سبر نغفيلد واستوعبها ، واستغرب معارفه سلوكه هذا ، واتهموه بالكسل واطاعة الوقت سدى . وعثر به رسل غودبي ذات يوم وهو مكب على كتاب مفتوح امامه ، فسأله عما يقرأ ، فاجاب لنكولن : اني لا اقرأ بل ادرس الحقوق ، وصاح غودبي : الحقوق ؟ يا الله ! وسار وهو يكاد لا يصدق .

وقد وصف هنري دومر ، شريك ستيوارت في المحاماة ، كيف كان يأتي لنكولن الى المكتب لاستعارة الكتب . قال : كان يأتي م اشيا احياناً ، ورا كياً على الاغلب . كان في نظري أزرى واخشن شاب عرفته حياتي ولم يكن لديه ما يقوله ، وكان يبدو خجولاً جباناً ، وعلى محياه مسحة من الكآبة ، ولكنه اذا اخذ في الكلام ، تبدد كل ذلك ، وتبين لنا انه قوي ذكي . وكان كلما زارنا ، زادنا دهشة واعجاباً .

ولما قرب افتتاح الدورة التشريعية في الولاية ، اقترض لنكولن من صديقه كولمان سموت مئتي دولار ، انفق ستين منها في تفصيل بذلة لى احد الخياطين . وركب العربة في اواخر تشرين الثاني من نيو سالم الى

سبر نفيلد ، حيث انتقل الى عربة اخرى ، ركب معه فيها الاعضاء الثلاثة
الآخرون من ناحية سنغامون ، وهم ستيوارت ، ووايم كاربنتر ، وجون
دومن ، ووصلوا بعد سفر يومين الى فنداليا قصبه ولاية الينوي .
وهكذا دخل لنكولن مهتر كما جديداً ، قد يؤدي فيه الدهاء والكفاءة
والاستقامة الى التقدم والمضي بعيداً .



الفصل الثالث المشروع الرائد

على بعد نحو ميل من العاصمة ، اخذ سائق المركبة يحث الخيل بفرقة سوطه ليدخل البلدة بالاجتهاد المعتادة ، واخترق الشارع الرئيسي مسرعاً وهو يطلق صوتاً مدوياً من بوقه ، ثم جذب الاءنة فجأة امام دائرة البريد ، حيث ترجل النواب الاربعة ، وشقوا طريقهم بين الحشد الفضولي الى احد الفنادق ، وتطلع لنكوان ، فرأى ساحة عامة واسعة في وسط قرية نامية فيها نحو ٩٠٠ من السكان ، ذات شوارع عريضة على جوانبها بيوت وأكواخ خشبية ، ورأى داراً من الآجر ذات طابقين ، هي دار مجلس نواب الولاية ، والى جانبها دار تضم مختلف المكاتب لحكومة الولاية ، فلم تملأ هذه العاصمة عين لنكوان ، لا بحجمها ولا بظهرها ، فقد كانت سبرنغفيلد اكبر منها وافخم ، بيد انه أخذ بما شاهده فيها من حركة ونشاط بسبب انعقاد دورتي مجلس نواب الولاية ومحكمتها العليا آنذاك ، فاحتظت الفنادق بالوافدين اليها ، وامتلات أرصفة الشوارع بالمارة ، ودوت المطاعم والمشارب والحانات بانغط الحديث وقرع الكؤوس وتبادل التحيات والضحكات ، وكان الرجال يكفون عن العريضة والكلام المكشوف ، ويلزمون جانب الخفاقة والاحتشام كلما حلت بينهم بعض السيدات الرشيقات الانبيقات ، فقد اصطحب الكثيرون زوجاتهم او كريماتهم الى العاصمة لبشار كنهم في حفلات الموسم الاجتماعية

اصبحت الغرفة التي احتلها ستيوارت و لنيكولان من الفندق ، بمثابة مقر
للحزب الراديكالي ، اي حزب الاحرار الذي كان لستيوارت فيه مكانة
مرموقة ، فكان يقدم لنيكولان الى مختلف المحامين والنواب واصحاب
الالتباسات ، فيمد يده الضخمة الحشنة لمصافحتهم بجرارة ، وهو يبادلهم
النظرات ، يحاول كل استشفاف الآخر وسبر غوره ، وتعرف لنيكولان في
تلك الدورة بشاب من الحزب الديمقراطي يصغره بربع سنوات اسمه
اسطفان آرنولد دوغلاس ، كان ربيع القامة ، ممتليء الجسم عريض الصدر
والمنكبين ، بارز العنق ، مشدود الفكين ، يتدلى حاجباه الكثيفان فوق
عينيه الثاقبتين ، مما يوحي بمخلوق حاد شكس ، وكان ذا شعر اسود غزير ،
وصوت عميق رنان ، وحركة تنم على السرعة والانتباه ، وكان مثل لنيكولان
بارعاً في اكتساب الاصدقاء ، وكان قد ولد في فيرمونت ، لكنه انتقل
الى ناحية مورغان للتدريس ومزاولة المحاماة ، وقد أم العاصمة ليعمل على
تأييد ترشيحه لمنصب النائب العام في الولاية .

لم يكن قد مضى على انشاء دارالنواب الا عشر سنوات ، ومع ذلك
كانت في حالة سيئة ، وكثيراً ما سقط بعض ملاط السقف على النواب
اثناء الجلسات . كانت قاعة النواب تشغل معظم الطابق الاول ، وكانت
قاعة الشيوخ والمسكاتب في الطابق الثاني ، وكان النواب يجلسون على كراس
متحركة حول موائد مستطيلة يتسع كل منها لثلاثة ، وجلس رئيس المجلس
خلف طاولة فوق منصة ، وعلى كل طاولة محبرة ، ووزعت هنا وهناك
علب ملاهي بالرمل تستعمل كعباصق ، بالاضافة الى تجفيف الخبز ، وكان
في القاعة موقد ومدفأة ، وسطل من الماء ، علق فوقه ثلاثة كؤوس من
الصفيع (التنك) ، وكانت الشموع توقد في الجلسات الليلية .

تألفت الجمعية العمومية من ٥٥ نائبا و ٢٦ شيخاً ، وكان بين الاعضاء
سبعة غير لنيكولان ممن كانوا ضباطاً في حرب الصقر الاسود ، كما كان بعض

من خدموا كجنود ، وكان اكثر من نصف الاعضاء من الفلاحين ، ونحو
الرابع من المحامين ، والباقيون من التجار والاطباء وعمال الآلات وسواهم ،
وجميعهم تقريباً من الشبان ، وقليل منهم من كان من مواليد ولاية الينوي ،
وقد اثبت الكثيرون منهم كفاءة ومقدرة ممتازة . ولعل لنكولن أدهشه
ان يجد نفسه في متوسط مستواهم العام .

كانت ولاية الينوي قد دخلت في عداد الولايات المتحدة منذ ١٦ عاماً
ولكن تاريخها يعود الى قرن كامل ، وكانت مثل لنكولن كبيرة قوية
غير مهذبة وذات امكانيات للتقدم ، وفيها اكثر من ٢٠٠ ٠٠٠ من السكان
معظمهم في الجنوب ، وقد اخذوا يزحفون شمالاً ، وكانت الزراعة صناعتهم
الرئيسية ، ولكن على نظام اقتصادي غير مركز ، يقوم كل مجتمع بسد
حاجاته الخاصة .

كانت الولاية تفتقر الى تحسين وسائل النقل ، لبيع محاصيلها الزراعية
باسعار أعلى ، والى سن قوانين لفتح الطرق وبناء الجسور ، وانشاء المصارف
والشركات الصناعية ، وتأسيس المدارس وتنظيم شؤون الطلاب ، وغير
ذلك ، وكان كل نائب يشعر بمسؤولية اكبر تجاه ناخبيه منها تجاه عموم
الشعب في الولاية ، مما نزل بالتشريع الى أنفه الامور كدحرجة الاشجار
المقطوعة وملء براميل اللحم المقدد ، وجعل النجاسات حليف الحاذقين في
المساومة لا النابغين في السياسة .

وفي اليوم الخامس من تلك الدورة ، نهض لنكولن لاول مرة يخاطب
المجلس ، وأعلن عزمه على تقديم مشروع قانون يحدد من دائرة نفوذ حكام
الضلع . وفي سياق تلك الدورة ، قدم مشروع قانونين أقل اهمية ، الاول
بتحويل صديقه صموئيل موزيك بناء جسر للمكوس فوق نهر فرعي من
روافد نهر سنغامون ، شمال شرقي نيو سالم ، والثاني بتسمية ثلاثة من
اصدقائه الآخرين وهم روبين هاريسون وجون كلاري وتندي جيمس ،

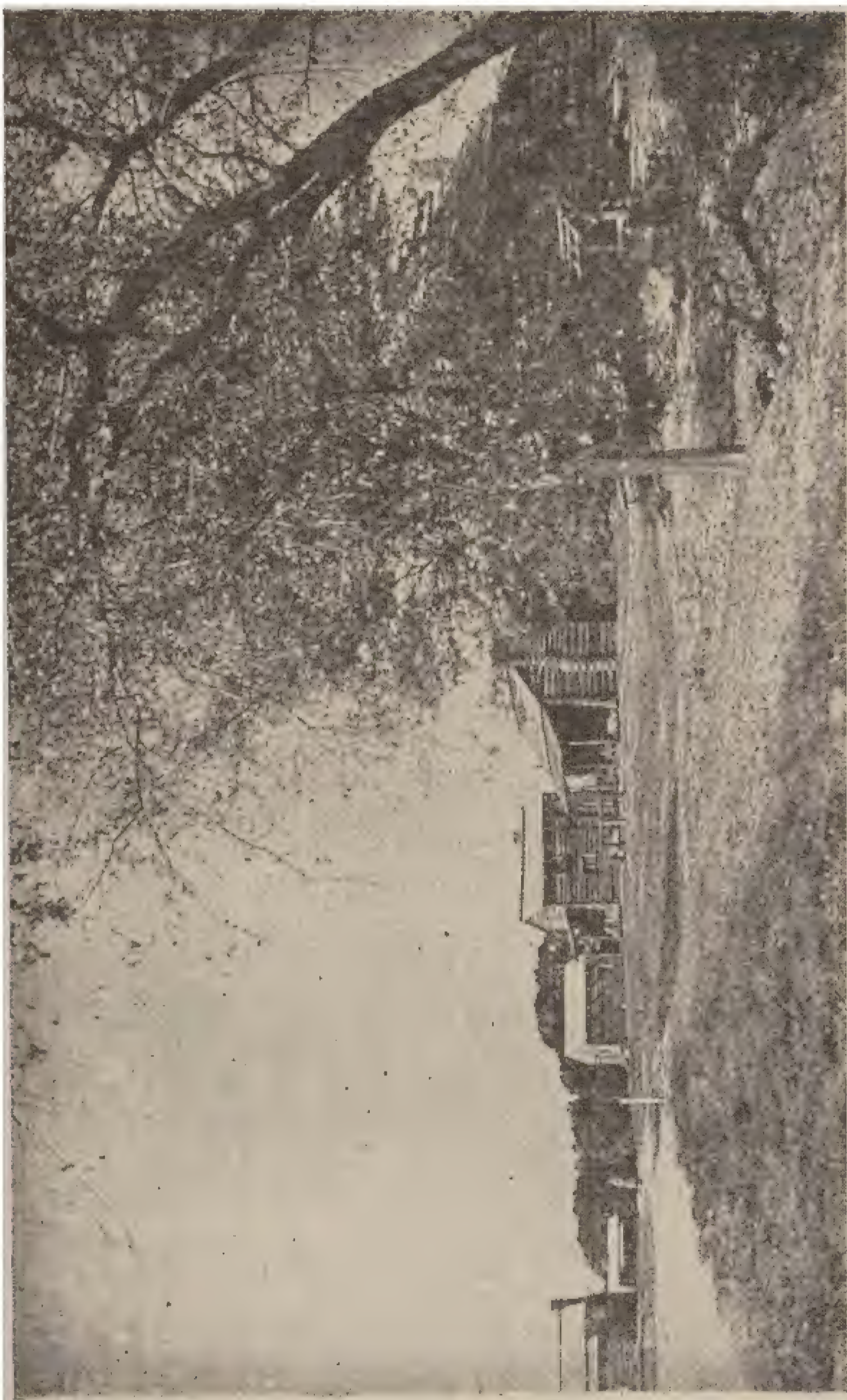
لتصميم وتحديد شق طريق جديدة من سبرنغفيلد الى عبارة ميلر على نهر سنغامون على بعد ١٢ ميلاً من نيو سالم ، وأوصى لنكولن الى مناقشة طويلاً حول مهاجمة رئيس الجمهورية جا كسون لمصرف الولايات المتحدة وكانت اول قضية وطنية تعرض على المجلس ، والى مناقشة اخرى حول اقتراح تأييد عمل الرئيس ، لم ينل من اصوات حزب الاحرار الا اقلية .
وكرس المجلس نصف وقته للنظر في قضيتين هامتين ، الاولى فتح قناة تصل نهر الينوي ببحيرة ميشيغان ، فتصبح الطريق المائية كاملة بين داخلية الولاية وساحل الاطلسي ، عبر البحيرات الكبرى وقناة إيري ، والثانية الترخيص بإنشاء مصرف مالي للولاية ، وكان ذلك ضرورياً في نظر حزب الاحرار ، لاسيما بعد مهاجمة الرئيس جا كسون لمصرف الولايات المتحدة ، وصوت لنكولن الى جانب المشروعين ، وأصبعا قانونين نافذين . كان ستيوارت يتغيب كثيراً عن الجلسات ، لانشغاله في اعمال اللجان ، فيقوم لنكولن مقامه . وكانا يعملان متضامنين ، ولعل ستيوارت كان يعتمد تدريب زميله لكي يحل محله في تزعم كتلة الاحرار ، لانه كان يطمع في دخول الكونغرس . وقد كتب لنكولن نصوص عدد من مشاريع القوانين قدمها الاعضاء الآخرون ، بما يدل على اعتمادهم على مقدرته الكتابية أو على ان نفوذه في المجلس كان اعظم مما يبدو في سجل وقائعه .
وعاد لنكولن الى بيته عند انتهاء الدورة وفي جيبه ٢٥٨ دولاراً ، مقابل أتعابه ونفقات سفره ، وكان هذا اكثر مما يكفي لسداد ما عليه من دين لكونمان سموت . وقد اكتسب خبرة قيمة في الاجراءات البرلمانية والمناورات السياسية ، فتعلم ان التشريع يتم بالاختزال والرد ، ولاحظ ان النفوذ الشخصي أفضل في تقرير مصير مشروع ما ، من مزايا المشروع نفسه . وبلغ استحقاقه ، فتمكن من توسيع أفقه ، وصقل معاملاته واتصالاته بالزعماء الآخرين .

عاد لنكولان الى نيو سالم ، على حصانه في طقس حرارته تحت الصفر ،
واخذ يطرف القرويين بقصصه عن الدورة التشريعية . واستأنف عمله في
مكتب البريد وفي مسح الاراضي ، وعكف على دراسة الحقوق ، واثقاً
من استطاعته ان يصير محامياً . ومن نصيحة ادلى بها الى طالب حقوق فيما
بعد ، نستطيع ان نتبين أسلوبه في الدراسة ، قال : اذا كنت قد عقدت
العزم على ان تصبح محامياً ، فأنتك انجزت اكثر من نصف المهمة ، ليس
من المهم ان تتلمذ او لا تتلمذ على شخص آخر ، فقد كنت انا اقرأ منفرداً .
خذ الكتب اللازمة واقراها وادرسها حتى تستوعب قواعدها الرئيسية ،
فذلك هو المهم ، وليس من الضروري ان تكون في اثناء ذلك مقياً في
مدينة كبرى ، فكنت انا أقرأ في قرية نيو سالم التي لم يكن فيها ٣٠٠
نفس من السكان ، ان الكتب وطاقتك على الفهم لا تختلف باختلاف
المكان .. اذكر دائماً ان تصميمك على النجاح أهم من اي اعتبار آخر .

.....

وفي كانون الاول من عام ١٨٣٥ عاد لنكولان الى فنداليا لحضور
دورة استثنائية للمجلس التشريعي ، دعا الى عقدها الحاكم يوسف دنكان
لتعجيل انشاء قناة الينوي ومنتشيفان ، ولاءعادة توزيع المقاعد النيابية
وفق احصاء النفوس الجديد في الولاية .

كان لنكولان يسعى الى اجازة مشروع صغير ، هو انشاء قناة بيردستون
وسنغامون التي ينتهي طرفها الشرقي عند بلدة هورون العتيقة قرب نيو سالم
فقد كان لعدد من اصدقائه مصالح مالية في تلك البلدة هورون ، كما كان
هو يملك بضع قطع من الاراضي ، اكنسبها كأجرة على اعماله في مسحها
واشترى قطعة ارض اخرى مساحتها ٤٧ فدانا بجوار البلدة التي وضع
تصميمها ، ودعا في خطاب القاه في بطرسبرج الى المساهمة في مشروع
القناة ، وقد اشترى هو بعض الاسهم ، وكانت هذه احدى المرات القليلة



جانِب من قرية نيو سالم • ويشاهد الخزن الذي امتلكه لنكولن بالاشتراك مع بيوري الى أقصى اليمين ،
والى جانبه دائرة البريد التي عمل فيها لنكولن .



فوق : مقر المجلس التشريعي لولاية المينوي بمدينة فنديالما .
تحت : دار الحكومة لولاية المينوي بمدينة سبرنغفيلد .



التي اقتحم فيها المضاربات المالية او العقارية ، وكانت دليلا على انه يسدد ديونه ، وبما يؤيد ذلك انه اشترى قطعتين اخريين في مدينة سبرنغفيلد .
وانتهت الدورة التشريعية ، فعاد الى نيو سالم ، وفي ٢٤ آذار ١٨٣٦ استوفى اول شرط من متطلبات القبول في سلك المحاماة إذ شهدت محكمة سنغامون بانه رجل رضى الاخلاق ، فاعلن على الاثر عزوه على ترشيح نفسه ثانية لعضوية المجلس التشريعي ، وثار الحزب الديموقراطي آنذاك على النظام التقليدي ، فاكتمسح حزب الاحرار المعركة الانتخابية وكان لنكولان في طليعة المرشحين الفائزين .

.

واستجمع لنكولان شجاعته ، فدخل امتحان المحاماة « فوجده أسهل مما كان يتوقع ، وسار على التقليد المألوف ، فأقام مأدبة عشاء للجنة الامتحان ونال اجازته في ٩ ايلول ١٨٣٦ . ولم يبق عليه من الاجراءات سوى تسجيل اسمه لدى كاتب المحكمة العليا ، ويلوح ان ذلك كان مجرد اجراء شكلي ، فما مضى يومان على تسلمه الاجازة ، حتى رافع في قضيته الاولى في سبرنغفيلد ، وكانت في الواقع تنطوي على ثلاث قضايا عرفت بقضية «هوتورن ضد ولدرج » اتهم فيها المدعى عليه بالامتناع عن تقديم فدان من الثيران الى المدعي لفلاحة المرج ، ورفضه السماح له بالمرور الى قطعة ارض كانت قد أذن له بزراعتها ، وطالب المدعي بمئة دولار كتعويض عن العطل والضرر ، وكان المحامي ستيوارت قد باشر في معالجة القضية ، فلما رفعت الى المحكمة تولى لنكولان المرافعة ، وكان القاضي اذ ذاك ستيفن لوغان الذي اصبح فيما بعد شريك لنكولان في المحاماة . وقد زار احد المحامين من الولايات الشرقية دار محكمة سنغامون في ذلك الوقت فكتب يقول : ما اعظم الفرق بين ما ألفناه في محاكم نيويورك من جلال القضاة واناقة المحامين

والحضور وبين ما شاهدناه هنا حتى يسكاد المرء لا يقوى على كبت الضحك .
كان القاضي على المنصة يجلس على كرسي مائل الى الورا بحيث ارتفعت
قدماه الى مستوى رأسه ، وفي فيه غليون من اكواز الذرة ، وكان
لباسه اقرب الى لباس حطاب . وكان حاجز من القضبان يفصل المنصة
عن القاعة التي لم يكن يشغل الموجودين فيها غير التدخين ومضغ التبغ وبصقه .
انعقدت الجمعية العمومية العاشرة لولاية البنوي في ٥ كانون الاول
١٨٣٦ ودامت دورتها ثلاثة شهور ، وكانت اطول الدورات حتى ذلك
الحين ، وابتدأ شهرها في تاريخ الولاية بسبب المعينة اعضائها . وكان
الديمقراطيون الاكثرية في المجلسين ، بيد ان سيطرتهم عليها كانت مزعومة
بسبب نعمة جماعة منهم عليهم ، تدعى جماعة « الحليب وعصير التفاح » .
واعيد انتخاب جيمس سمبل رئيساً لمجلس النواب ، بينما كان لنكولن
يعتبر رئيس حزب الاحرار المتكلم باسمه .

ولما كان السكان بوالون استيطان شمال ولاية البنوي ، رأى الكثيرون
نقل العاصمة الى الشمال . وكانت سبرنغفيلد تطمح الى ان تصبح العاصمة
منذ سنين ، فآن اوان العمل لتحقيق ذلك . واحس اهالي فنداليا بما
يبين لهم ، فهدموا مباني حكومة الولاية المتداعية وانشأوا داراً جديدة
على نفقتهم ، على ان يستردوا تكاليفها من المجلس التشريعي . فلما توافد
اعضاء الجمعية العمومية على البلدة ، اخذوا يتطلعون بدهشة الى الدار
الجديدة وما تراكم حولها من ادوات واخشاب وآجر ورمال ، وانعقدت
الجلسة في جو سابق برائحة الكس ومواد البناء .

ولعل لنكولن تأثر بذلك الجو غير الصحي ، فاصيب بعملة انتهت به الى
داء السوداء المعيني الذي ضايقه طيلة حياته ، فاخذت الكتابة تنتابه في
شبابه ، مما حير اصدقاءه ومؤرخيه ، وتفاقت مع تقدمه في السن ، وكانها
تفور من اعماق نفسه ، فتعثر به نوبات متقطعة من التوتر الذهني ، كان

ينجح احبانا في تبديدها بالانغماس في المجون والمفاكهة .
وكان قبيل تلك الدورة قد شغف بفتاة جذابة مثقفة من كنتكي تدعى
ماري اوينز ، كان قد التقى بها قبل ثلاث سنوات في نيو سالم عند ما
زارت شقيقتها زوجة بنيت آبل . فلما همت هذه السيدة بزيارة بيت اسرتها
قالت لآنكولن على سبيل المزاح انها ستعود بشقيقتها ماري اذا كان يرغب
في الاقتران بها ، فسايرها في مزاحها وابدى موافقته ضاحكاً . وما اشد
ما كانت دهشته عند ما عادت ماري فعلاً مع اختها ، وكانت ارقى منه
تربية وثقافة ، ومع ذلك فقد استحكمت العشرة بينهما ، وما عتا ان شرعا
في المغازلة .

.....

مع ان الدورة التشريعية الاخيرة منحت ١٧ رخصة لانشاء السكك
الحديدية ، فان احداً من تلك المشاريع لم يتجاوز مرحلة الحبر على الورق ،
وكان اصحابها يعولون على تدبير الاموال اللازمة من الولايات الشرقية ،
فاخفقوا ، فتوجهوا الى حكومة الولاية . فلما اجتمع مجلس الاصلاحات
الداخلية في فنداليا ، اوصى ببرنامج واسع للاصلاح على نفقة الولاية ،
وحمل دوغلاس هذه التواصي الى مجلس النواب ، فاقرت لجنة الاصلاحات
الداخلية مشروع قانون ضخم للمواصلات تشق بموجبه عدة طرق وسكك
حديدية وقنوات ، باموال حكومة الولاية ، في حين لن لآنكولن الذي
كان رئيس اللجنة المالية ، كان قد بين ان ايرادات الولاية بلغت ٥٧,٨٩١
دولار ، وان نفقاتها بلغت ٥٥,١٥١ دولار ، اي ان الوفر في الخريضة
كان ٢,٧٣٩ دولاراً فقط !

وكانت النواحي والاقضية تتنافس في الاستئثار باكبر نصيب من تلك
المشاريع ، واخذ النواب يبذلون اسخى الوعود لناخبهم لاكتساب
اصواتهم . وكانت الفرصة مؤاتية لنواب سنغامون ، فشرع لآنكولن

وزملاؤه يعدون بتأييد شق طريق هنا وانشاء قناة هناك ، مقابل تعهد
الناخبين بمنح اصواتهم لنقل العاصمة الى سبرنغفيلد ، وكان لسلوك لنكولان
ونكاته وحسن معاشرته اثر كبير في نجاح تلك الفكرة . وفي خلال تلك
المساومات ، عقد مجلسا النواب والشيوخ جلسة مشتركة لانتخاب عضو
لمجلس شيوخ حكومة الاتحاد ، فاعطي لنكولان صوته لمحام عصامي من
كنتسكي منشق عن الحزب الديمقراطي ، اسمه ارشيبالد وليمز ، الذي
اصبح فيما بعد صديقه الحميم . كان وليمز يشبه لنكولان في بنيته وسذاجته
وقيافته الزرية ، حتى ان كاتب الفندق دخل عليه ذات يوم وهو مستلق
على كرسي في الردهة ، فظنه من الافاقين المتسكعين ، فسأله : « عفواً
يا سيدي ، أنت من نزلاء هذا الفندق ؟ » فسمره وليمز بنظرة حادة
وزجر قائلاً : « كلا ! وانما انا احد ضحاياه ، فاني ادفع خمسة دولارات
يومياً » ، وكان وليمز الثالث من حيث عدد الاصوات ، فلم يفز بعضوية
مجلس الشيوخ .

ولما التأم المجلس النيابي بكامل هيئته لبحث مشروع قانون الاصلاح
الداخلي ، انتهات عليه العرائض من كل صوب تطلب انشاء الطرق والقنوات
وما الى ذلك . واحتدمت المساومات ، اذ كان كل نائب يحرص على مصلحة
ناحيته . وحاول اصحاب العقول الراجحة صد ذلك التيار الجارف منذرين
بخطر افلاس الولاية ، فردهم المتحمسون زاعمين ان المشاريع ستقوم
بنفقات ذاتها ، وان الأسر الغنية كاسرة وتشايلد ستتبارى في شراء الاسهم
والسندات ، بحيث ترتفع قيمتها الى حد تكفي معه فوائدها لسد النفقات .
واثيرت قضية اخرى في مجلس النواب ، وذلك عند ما لفت الحاكم
دنكان نظر الجمعية العمومية الى مذكرات بعض المجالس التشريعية في
ولايات الجنوب ، تحتج فيها على اثاره مسألة إلغاء الرقيق ، التي استفحل
امرها في ولايات الشمال ، وتطلب الكف عن ارسال المطبوعات حول

تلك النقطة الحساسة الى الجنوب . ونألفت لجنة مشتركة من المجلسين ، اوصت باتخاذ سلسلة من القرارات بادانة انصار الغاء الرقيق ، معلنة ان الدستور يقدر حق امتلاك العبيد ، وان الرق بجملة هو ضمن دائرة نفوذ الولايات وحدها ، وان حكومة الاتحاد لا حق لها في الغائه في مقاطعة كولمبيا ، واقترح لنكولن اضافة : « الا اذا طلب ذلك شعب تلك المقاطعة » ، ولكن هذا التعديل سقط . ولم تكن تلك القرارات متفقة مع رأي لنكولن في الرقيق . وكان بوده لو امكنه الاعراب عن رأيه بصراحة ، ولكنه خشي ان إقدامه على ذلك في ذلك الوقت قد يولد معارضة تعرقل خطته السياسية ، فآثر السكوت مؤقتا ، واجيزت القرارات بسبعة وسبعين صوتاً مقابل ستة اصوات كان من بينها اصوات لنكولن ودان ستون وماك كورمك من نواب سنغامون .

لما خرج مشروع قانون الاصلاح الداخلي من اللجنة ، كان يقضي بانفاق سبعة ملايين دولار على انشاء سكة حديدية من الشمال الى الجنوب مع خطين فرعيين من الشرق الى الغرب ، وانفاق مئة الف دولار على تحسين الطرق ، واربع مئة الف على جرف الانهار وتعميقها ، وازداد ضغط البعض بغية توسيع ذلك البرنامج ، وبعد نقاش طويل اعيد الى اللجنة . وعاد لنكولن وصحبه الى نشاطهم ، يسترضون الاقضية التي نالها بعض الاحباء ، ويجمعون الاصوات لنقل العاصمة الى سبرنغفيلد . واخيراً عاد مشروع القانون الى مجلس النواب ، وقد عدل بحيث بلغت تكاليفه عشرة ملايين دولار ، وقد ضوعفت الاراضي التي قرر امتلاكها لاجل انشاء الطرق والسكك الحديدية . وبذل المتحمسون جهودهم لاجازة المشروع ففاز بواحد وستين صوتاً مقابل خمسة وعشرين ، ولما اجازته مجلس الشيوخ اضيئت المشاعل في الشوارع ، وسارع المضاربون لشراء الاراضي وحقوق المرور اليها . وقد ورد في سجل ولاية بنوي آنداك قوله : « لاشك في

ان اجازة ذلك القانون قد رفعت اسعار الاراضي مئة في المئة ، وقيمة
تزداد يوماً فيوماً ، وانا وطيد الثقة بان كل فدان من ارض الولاية سيحتله
المهاجرون تباعاً ، بما يزيد في عدد السكان ويعزز ثروة الولاية و نفوذها
بين ولايات الاتحاد . لو لم يقم المجلس التشريعي الحالي بشيء سوى هذا
العمل ، لكفاه فخراً و لكان جديراً بشكر الشعب ،

.

لم يبق على المجلس بعد ذلك سوى اعادة تعيين عاصمة الولاية ، وكان
مجلس الشيوخ قد اجاز مشروع قانون يقضي بان يعين نهائياً موقع عاصمة
الولاية . وقد قرر انكولن عرضه اولاً في مجلس الشيوخ ، لعله ان
مجلس النواب سينظر بعطف اكثر الى قانون يجيزه مجلس الشيوخ . وهب
للدفاع عن العاصمة الحالية فنداليا ، جون ديمنت ، مستعيناً بكافة المناورات
البرلمانية . ولقي انكولن معارضة جبارة ، فكان يرد على كل مناورة او
محاولة بما اكتسبه في تلك البرهة الوجيزة من حياته البرلمانية من الحدق
القطنة والبراعة .

ولما احتدم النقاش ، اقترح اسكندر دنبار بايعاز من انكولن ، ان
تقدم البلدة المختارة كعاصمة لا اقل من ٥٠٠٠٠٠ دولار و فدانين من
الارض ، تحت طائلة نقض المشروع . واجيز الاقتراح بستة وخمسين
صوتاً مقابل خمسة وعشرين ، وقد ايده وفد سنغامون . وكانت حركة بارعة
لان واحدة من منافسات سبرنغفيلد لم تكن تقوى على ايفاء ذلك الشرط .
ولكن المعارضة قدمت اقتراحاً بتأجيل المناقشة الى ٤ تموز ، وهو تاريخ
لم يتوقع ان تمتد الدورة اليه . وفاز الاقتراح باكثرية صوت واحد ، و ابى
لنكولن ان يعترف بهزيمة ناجمة عن صوت واحد . فدعا زملاءه
الى منزله ووزع عليهم الاعمال والمهمات ، وطمأفوا بالاعضاء المتضيقين

واخذوا منهم تعهدات بحضور جلسة اليوم التالي ، واقنعوا خمسة بتغيير اقتراحهم ، مذكريهم بانهم مدينون لقضاء سنفاموت الذي ايد مندوبه الاصلاحات الداخلية التي خصصت لأقضيةهم ، وكانوا اذا فشلوا في الاقتناع يلجأون الى التهديد . وهكذا اعيد وضع المشروع على بساط البحث وتمت الموافقة عليه .

واجتمع المجلسان في جلسة مشتركة لاختيار العناصم الجديدة . وفي الاقتراع الاول نالت سبرنغفيلد ٣٥٥ صوتاً ، وفنداليا ١٦ ، والثور ١٥ ، وجاكسونفيل ١٤ . وفي الاقتراعين الثاني والثالث ، ارتفعت حصة سبرنغفيلد من الاصوات ، اذ انحاز الى لنكولن بعض الذين اقتنعوا مع المدن الاخرى فأرضوا ناخبهم في الاقتراع الاول . وفي الاقتراع الرابع نالت سبرنغفيلد ٧٣ صوتاً ، مقابل ٥٠ صوتاً موزعاً بين المدن الباقية . وقامت الافراح في سبرنغفيلد واشعلت نار كبرى في ساحتها العامة ، وتعهد وجهائها بتأمين الخمسين الف دولار ، واصبح لنكولن رجل الساعة في تلك البلدة التي اعترفت ان يجعلها مقراً له .

.

بعد ان اطمأن لنكولن الى ان مشاريعه اصبحت قوانين نافذة ، عاد قبيل اختتام الدورة الى القرارات التي كانت اتخذت بشأن الرقيق ، ليبيدي رأيه فيها ، فكتب احتجاجاً وقعته هو ودان ستون ، ونشره فوق دفتر يوميات المجلس ، وقد اعلنا فيه اعتقادهما بان الرقيق نظام قائم على الظلم وسوء السياسة ، وابديا اسفهما على ان نشر تعاليم الغاء الرقيق قد تزيد من مساوى الرقيق وشروبه بدلاً من تخفيفها . وقالوا ان الدستور لم يخول الكونغرس سلطة التدخل في شؤون الرق في الولايات ، ولكنه خوله حق الغاء الرقيق في مقاطعة كولومبيا ، مع انه يجب ان لا يفعل ذلك الا بطلب من اهالي المقاطعة . واختتم بالقول بانها انما قدما هذا الاحتجاج لتبيان

الفرق بين آرائها والآراء التي تضمنتها القرارات المتخذة .
وهكذا اعلن لنكولن وهو في الثامنة والعشرين مقته للرفيق من
الوجهة الادبية ، اذ وصفه بانه نظام قائم على الظلم ومشحون بالشرور ،
بينما سلم بقدمية حقوق الولايات الجنوبية . وقبيل اختتام الدورة ، قام
لنكولن بالشرط الاخير من شروط المحاماة ، فسجل اسمه لدى كاتب
المحكمة العليا ، وعاد الى بلده وهو راض عما حققه من اعمال ومشاريع
خلال الاشهر الثلاثة المنصرمة . كان قبل ثلاث سنوات سياسياً مبتدئاً
مجهول المستقبل ، فاذا به قد اصبحت محامياً مجازاً وقوة لا يستهان بها في
شؤون الولاية السياسية .

عاد الى نيو سالم ، لا يستفيد فيها ، فلم ير فيها مجالاً لمطامحه ، وقد
بدات البلدة فعلاً في الانحطاط والتقهقر . اما في السابق فقد كانت انصب
مكان لشباب مثله لم يتم عاماً كاملاً في الدراسة الرسمية ، فاستفاد من اختبار
الناس ومعاشرتهم وملاحظة تصرفاتهم . فقد أم نيو سالم رائداً حائراً ،
فوجد نفسه فيها وتعلم كيف يكسب قوته بدماعه بدلاً من يديه . ولعله
ما كان يستطيع ذلك في بيئة ارقى ، نظراً الى ضعة نسبه وقلة دراسته .
ولم يكن يفضل احد في نيو سالم ، وانعدمت فيها الطبقات الاجتماعية
والثروات الكبيرة ، فكانت الديمقراطية حقيقة واقعية كما كانت مثلاً أعلى .
ولم تعترض سبيله عقبات ، فسار قدماً ، وسرعان ما امتاز بتلك الشخصية
الفذة التي تكاملت فيه مع مر السنين . واثن غدا قائداً بين رفاقه ، فانه
لم يقطع صلته بهم ، فقد كان يتفوق عليهم دون ان يستعلي او يترفع عنهم .
ان المواطن في غربي اميركا واقعي في الدرجة الاولى ، ولكنه نظري
في نفس الوقت وقد عززت الحياة الريفية في لنكولن نزعتة الغريزية
الى التفكير الفلسفي . وقد وسع الريف الفسيح آفاق بصيرته . وقد
استوعب حيوية أمته لما عاينه من ازدياد سكان الينوي سبعة اضعاف

خلال الاعوام الثلاثين التي قضاها فيها . لقد تأثر بطبائع الطيور والدواجن
وبجلال الغابات والمروج والانهار ، وبما في الطبيعة من جمال وغموض
وثرورة ورهبة ، فابتعثت خياله وأرهقت مشاعره وزينت خطبه واحاديثه .
ولعل اهم من كل ذلك أنه رأى في كل ما حوله اصول الديمقراطية الحقة
تعمل عملها بنجاح . فقد شاهد الناس يجمعون على قدم المساواة والاحترام
المتبادل ، لا في المجلس التشريعي فقط ، بل ايضاً في بيوتهم الخاصة
ومجتمعاتهم المتواضعة ، للاعراب عن آرائهم بحرية . كما شاهد القاضي
والطبيب يشتغل كل في اسطبله . والقسيس يعمد الى المهرات يستعين به
على ما يقوم بأوده . والمهامي القدير لا يتورع عن الخدمة في صفوف
الرديف الاحتياطي .

كان لنكولان قد أشرب قوة حياة الرواد الريفية وروحها الخام ،
ولكنه تجنب هفواتها الفاضحة ، او تعلم التغلب عليها . كان اعتماده على
نفسه نقياً ، لا يشوبه الزهو ولا التبعج ، كما لم يشب وطنيته الصادقة اي احتقار
للشعوب والبلدان الاخرى . وقد ظلت روح الدعابة فيه جامعة ، بيد ان
زخم تفكيره كان لا بد ان يقضي به الى التحليل الهادي . الرزين . وقد
ادرك قيمة القانون والتقاليد فاحترمها ، حتى في بيئة كان الناس كثيراً ما
يأخذون القانون بين ايديهم ويهتمون بالحاضر والمستقبل اكثر مما يهتمون
بالماضي . قال احد الذين تعمقوا في دراسة حياته انه شعر منذ حداثة انه
انسان غريب الاطوار ، وانه لذلك يجب ان يتعلم كيف يكون مستقلاً
منعزلاً ، وان ذلك الانعزال سيجعله قوياً .

.

ودع لنكولان نيو سالم في ١٥ نيسان ١٨٣٧ وحمل امتعته وارتحل
الى سبرنغفيلد . ونزل في غرفة فوق مخزن يشوع سبيد ، الذي لم يتقاض
منه ايجاراً واصبح صديقه الحميم . وفي نفس اليوم نشرت صحيفة جورنال

خبراً مفاده ان المحاميين ستيوارت و لنيكولن سيعملان معاً لدى المحاكم .
كان من حسن حظه ان اشترك مع ستيوارت ، لان هذا وشريكه دومر
كانا قد نما في انشاء اكبر مكتب للمحاماة في المدينة ، فعمل لنيكولن
محل دومر الشريك السابق ولم يضطر الى الانتظار لكسب العملاء
والموكلين . وشعر بالانقباض في الاسبوع الاولي من اقامته في سبرنغفيلد
ولعل السبب هو انه كان يتوقع ترحيباً حماسياً من المدينة التي جاهد كثيراً
في جعلها عاصمة الولاية ، ام ان ذلك المحيط زاد من شعوره بفقره وضعته
فكتب الى ماري اوينز يقول : « ما أسأم الحياة في سبرنغفيلد ، انها تبدو
هكذا لي انا على الاقل . اني اشعر بنفس الوحشة التي لقيتها في اي مكان
آخر . ولم يحدثني من النساء منذ قدومي سوى امرأة واحدة . ولعلمنا
ما كانت لتكلمني لو امكنتها تجنب ذلك . ولم اذهب الى الكنيسة حتى اليوم
ولعلي لن اذهب اليها قريباً ، لاني اشعر بانني لن اعرف كيف يجب ان
اتصرف هناك » .

اخذ لنيكولن يحاول الخلاص من احابيل غرامه بماري اوينز ، فقد
ظلت العلة بينها قائمة حتى بعد انتقاله الى سبرنغفيلد ، ولكن بفتور من
الجانبيين . واخذ لنيكولن يواجه مشا كل أشد اتساعاً وخطورة ، فلما ان بوشرفي
برنامج الاصلاحات الداخلية ، حتى دب الذعر ، وتوقفت الاعمال وأغلقت
بيوت المال وتعذر الاقتراض وشاعت على كل لسان الشكوى من تأزم
الحالة وتوقف مصرف الولاية في سبرنغفيلد عن الدفع نقداً ، وهو اجراء
يلغي براءة تأسيسه آلياً لو دام ستين يوماً ، وقد حدا حدوه مصرف البينوي
الذي جددت براءته عام ١٨٣٥ ، فدعا الحاكم العام دنكان الى دورة استثنائية
للمجلس التشريعي ، وقد عزا سوء الحالة الى سياسة الرئيس جا كسون ،
ولم يجد بداً من اقرار شرعية توقف المصارف عن الدفع ، ونصح بمصرف
النظر عن تنفيذ مشاريع الاصلاح الداخلي لانها تستنفد موارد الولاية .

ولم يوافق اعضاء المجلس على نصحه ، بل اتهموه بالجنون والخور وأمرؤ بالمضي في اعمال المسح والانشاء .

كان من غرس لنكولن في هذه الشؤون وفي مزاوله المحاماة ان اتسع أفق عقله ومجال تفكيره . كانت حركة تحريم الرقيق لا تهدد الجنوب فحسب ، بل تثير امتعاضاً مرأ في الشمال ايضاً ، بحيث تؤدي احياناً الى عنف الدهماء والرعاع ، فتتجاوز اعمالهم العدائية دهاة التحريم الى غيرهم ، ففي سانت لويس ، طعن خلاسي معتق ضابطاً كان يريد القاء القبض عليه ، فأمسك به الاهالي وأحرقوه وأغضى القاضي المحلي عن فعلتهم ، وفي بلدة فكسبورغ قبض الجمهور على ثلاثة من المقامرين المحترفين البيض وشنقهم ، وفي بلدة آلتون قتل ايليا لوفجوي بينما كان يحاول الدفاع عن مطبعته التي كانت تخدم حركة التحرير . وبعد بضعة اسابيع وقف لنكولن في منتدى الشبان في سبرنغفيلد يحاضر في خطر الجماهير وشرها ، وقيمة القانون والنظام وضرورتها . ولم يشر في محاضراته الى مقتل لوفجوي الا تلميحاً ، مع ان الحادث كان أقرب الى موضوعه من الحوادث الاخرى التي ذكرها . انه كان دوماً حريصاً على عدم سبق الرأي العام ، فاتخذ اكتفاؤه بالتلميح كبادرة أولى من بوادر ذلك الحرص ، اذ ان سبرنغفيلد كانت ذات صلة بالجنوب وتكره الدعوة الى التحرير ومع ذلك فانه لم يتردد في التأثير على الرأي العام كلما رأى ذلك ممكناً ، فذكر فوضى اللانحرير قائلاً : «ليست ثمة مظلمة تستوجب المجازاة بالقانون العرفي الجماهيري ، ففي كل قضية كقضية نشر التحرير مثلاً وجهان احدهما صحيح حتماً ، فاما ان تكون القضية حقة في حد ذاتها فتستحق حماية القانون والمواطنين ، واما ان تكون خاطئة ، فتكون اهلاً للتحرير بواسطة القانون ، وفي كلتا الحالتين يعتبر تدخل شريعة الجماهير غير ضروري ولا مبرر له . »

انه لم يكن يخشى نقمة الرأي العام ، والمرجح انه لم يسهب في ذكر مقتل

لوفجوي لان المستمعين كانوا على اطلاع تام على الحادث .

.

دخل المعركة الانتخابية للمرة الثالثة عام ١٨٣٨ ، ولم يتم كثيراً بالدعاية لنفسه ، بل عمل جاهداً لنصرة ستيوارت ضد دوغلاس منافسه في الترشيح لعضوية الكونغرس . واشتد التنافس بين الاثنين ، حتى كاد يوغر صدرهما حقداً وضعيفاً . فاشتباكات يوم في عراك ميري في دكان هيرندون ، و كان دوغلاس يخطب في السوق العامة قبيل يوم الانتخاب ، فأثار حفيظة منافسه ستيوارت ، فأمسك هذا بتلابيبه وطفق يجرجره ، وفيما كان دوغلاس يحاول الإفلات عض ستيوارت في إبهامه عضه ظل أثرها باديأ طيلة حياته ، ولما مرض ستيوارت تولى لنكولن مقارعة خصمه حتى فاز ، ولكن بأكثرية ٣٦ صوتاً فقط ، من مجموع ٣٦٤٩٥ صوتاً . ولما التأم المجلس التشريعي في فندياليا لآخر مرة ، رشح لنكولن للرئاسة بصفته أبرز أعضاء حزب الأحرار ، بيد ان الحزب انشق على نفسه ففقد الاكثرية في المجلس ، ولم يفز لنكولن بالرئاسة . ونصح الحاكم دنكان قبل اعتزال منصبه بالتخلي عن مشاريع الإصلاح الداخلي ، فقد أنفق عليها مليوناً دولار دون ان يبرز شيء الى حين الوجود . وبينما كانت اكثرية الاعضاء العقلاء ترى عقم المضي في تلك المشاريع ، ابنى لنكولن وبعض الآخرين التخلي عنها بعد ان انفق عليها ما انفق . وشعر لنكولن فوق ذلك بانه مرتبط بتعهداته للاقضية التي ابدته في نقل العاصمة الى سبرنغفيلد ، وظلت السندات كاسدة بسبب سوء الحالة ، فتقدم لنكولن باقتراح من اللجنة المالية ، يطلب من حكومة الاتحاد ان تسمح للولاية بشراء ما لم يبيع من الاراضي العامة فيها ، بسعر ربع دولار للفدان ، وكانت تقدر بنحو عشرين مليون فدان ، على ان تصدر الولاية سندات اضافية بقيمة خمسة ملايين دولار لدفع ثمنها ، ومن ثم تبيعها بسعر دولار وربع للفدان ، وبذا

تحقق في برهة من الزمن ارباحاً تسدد بها الديون وفوائدها وتعمل على انجاز المشاريع . واجيز ذلك الاقتراح ، ولكن الكونغرس لم يفعل شيئاً بصدده .

• • • •

لما عاد لنكولن الى سبر نغفيلد بعد انتهاء الدورة التشريعية ، اجتذبه تيار السياسة ثانية . كانت انتخابات الرئاسة متجري عام ١٨٤٠ ، وقد وقع في نفسه اتحاد الحزب الديمقراطي الذي تم باتباعه نظام عقد المؤتمرات فدعا هو وغيره من زعماء الاحرار الى عقد اول مؤتمر للحزب في الولاية . وعلى قلة من حضره ، فقد ايد ترشيح وليم هنري هاريسون لرئاسة الجمهورية ووضع الخطط لضمان فوزه . وعين لنكولن في اللجنة المركزية الخامسة ، ورئيس الناخبين لحزب الاحرار ، وابتدأت الحملة في سبر نغفيلد بالتنام المحكمة الدورية . واحتدم النقاش ذات ليلة في مخزن سبير ، وهب دوغلاس يقول ان المكان لا يليق بمعالجة مثل تلك المواضيع ، وتحدى الاحرار للبروز في المناقشات العلنية العامة . وامتدت الاجتماعات العامة اسبوعاً كاملاً ، خطب فيها لنكولن مرتين ، وحمل في خطابه الثاني على دفاع دوغلاس عن خطة الرئيس فان بورين في انشاء خزينة قامت مقام مصرف الولايات المتحدة كمستودع لاموال الحكومة . ودافع دوغلاس عن الحكومة الديمقراطية الاخيرة التي اتهمها الاحرار بالتبذير ، بحجة اضطرارها الى نفقات استثنائية ، ولكن لنكولن افعمه وفضح اخطائه بايراد احصاءات لا يمكن دحضها اقتبسها من مستندات الحكومة . وكان اللجوء الى المستندات الرسمية بدعة جديدة اعجب بها لنكولن ، فاعتمدها في كل ما واجهه فيما بعد من المشاكل والقضايا المستعصية . وعمل لنكولن جاهداً في توجيه خطط الاحرار طيلة الحملة الانتخابية ، وفاز هاريسون بالرئاسة .

كان حاكم الولاية الجديد توماس كارلين قد اعلن سبرنغفيلد عاصمة
للولاية من تاريخ ٤ تموز ١٨٣٩، فاصبحت مركزاً لولاية سياسي والقضائي
والاجتماعي بدلاً من فنداليا . وكانت كسائر المدن الغربية في ذلك العهد،
تمتد الى الجهات الاربع حول ساحتها العامة ، حيث قامت دار الحكومة
الجديدة باعمدها غير قامة البناء . وكان فيها نحو ٢٥٠٠ من السكان، يقيمون
في منازل متفاوتة ، منها القصور الفخمة ومنها الاكواخ الحقيبة ، وقد
تخللتها الاشجار الباسقة الوارفة ، واخترقها جدول صغير على ضفتيه غيضة
جميلة . وكان اشبع ما فيها الوجود المتراكمة في الشتاء والخنازير التي كانت
تمرح في الاسواق والشوارع تنظفها من القمامة . وكان اجتياز الشوارع في
الشتاء خطيراً لا سيما على السيدات المرتديات ثياباً طويلة . وحدث ان
انكولان كان يرقب الشارع من شباكها ، عند ما مرت سيدة تلبس قبعة
زاهية ذات ريشات طويلة ، فزلت قدمها وسقطت في الوحل ، فلم يملك
ان يكبح نزعتة الى السخرية اللاذعة ، فقال لجار له : انها تذكرني بالبطة .
قال الجار : وكيف ذلك ؟ فاجاب : ريش على الرأس ، وزغب على القفا!
بيد ان البلدة لم تخل من نواح سارة . كان يقيم فيها ستة قسس مختلف
الطوائف ، وكان فيها معهد للتعليم العالي وعدة مدارس ، وجمعيات ادبية
وثقافية ، كمنتدى الشبان وجمعية الامتناع عن المسكر . وكانت تزورها
الفرق التمثيلية المتنقلة ، والشخصيات البارزة ، امثال العقيد ليمانوسكي
(الذي كان ضابطاً تحت امره نابليون) ودانيال وبستر ، والرئيس السابق
فان بورين . وتوفرت فيها اسباب التسلية واللهو من نزاهات خلوية وحفلات
راقصة ، اخذت ترحب باشتراك لانكولان فيها . ولعل اوقع صفاتها في
نفس زائريها كان كرم ضيافتها . كان من له اقارب فيها يعد نفسه سعيداً
لا سيما اذا كانت له بنات في سن الزواج ، فيحتال على ان يدعى في موسم
الحفلات الاجتماعية ، فيحظى بمرامه بسهولة . وكان الاهالي يحتفون بمن

يقد عليهم من المحامين والقضاة واعضاء المجلس التشريعي بشتى ضروب
الحفاوة ، حتى صارت بلدتهم مضرب المثل في كرم الضيافة .
في ٢٤ حزيران ١٨٣٩ انتخب لنكولن اميناً للعاصمة ، وظل في ذلك
المنصب حتى نيسان ١٨٤٠ حين استحصل لها على براءة جديدة من المجلس
التشريعي . وفي ذلك العام اعيد انتخابه للجمعية العمومية للمرة الرابعة ،
فعاود سعيه لدعم مصرف الولاية . وهزم ثانية عند ترشيحه لرئاسة مجلس
النواب ، فضل الزعيم المتكلم باسم كتلة الاحرار . وتأزمت الحالة مرة
اخرى مما أعجز المصرف عن اقتداء سندات نقدآ . وصدر قانون بمنحه
مهلة موقته ، على ان لا يتجاوز التوقف عن الدفع تاريخ انتهاء الدورة
التشريعية . فتجايل الاحرار على مد أجل تلك الدورة الاستثنائية حتى
بدء الدورة القانونية ، بحيث لا يتم ارفضاض الدورة بصورة رسمية ،
وذلك بتغيب عدد من الاحرار عن الجلسات يومياً ، بحيث لا تستطيع
الاجثرية الديمقراطية من استكمال النصاب القانوني للاقتراع على فض
الدورة . وقبل موعد الدورة القانونية بيومين ، حضر الجلسه لنكولن
واثنان من اصدقائه ليستمتعا بخذلان اخصامهم الديمقراطيين ، وفاتهم
احصاء عدد الحضور ، فصوتوا ضد اقتراح تأجيل الجلسة . وتولاهم الذعر
اذ تبينوا ان اصواتهم شكلت نصاباً قانونياً ، اجل الرئيس الجلسة بموجبه ،
وفي محاولة فاشلة لتجنب قيد اصواتهم في السجل ، فر الثلاثة قافزين من
النافذة ، بما جعل لنكولن يستهدف لتندر الديمقراطيين وتمككهم
مدة طويلة .

الى هنا تنتهي خدمات لنكولن كمشرع في الولاية . ولكن ماذا حل
بمشروع الاصلاح الداخلي ، وما تراكم بسببه من ديون على الولاية بلغت
١٧ مليوناً من الدولارات ، كان للنكولن يد فيها ؟ وظلت الولاية
تدفع الفوائد عن ديونها حتى تموز ١٨٤١ ثم قصرت ، فتوقفت اعمال

التحسين واخذ الفلاحون يزرعون طرقات السكك الحديدية المهجورة .
واخيراً اقنع الحاكم توماس فورد في عام ١٨٤٥ المستثمرين الانكليز
الذين كانوا يحملون معظم سندات قناة البنوي ميشيفان بأن يسلفوا
اموالاً اضافية لانجاز القناة . وتمكن المصرف اخيراً من تسديد ديونه ، بما
جمع من مكوس القناة وضرائب الاملاك وبيع كافة اراضي مشاريع
الاصلاح الداخلي . وحل الحاكم فورد مصرف الولاية ومصرف البنوي ،
فأنهى بذلك تاريخ ذينك المصرفين المضطرب .

لئن كانت خدمة لنكولن اربع سنوات في المجلس التشريعي لم تسعد
الولاية كثيراً ، فقد أكسبته خبرة لا تقدر بثمن . انه تفرس في اصول
السياسة وفنونها من مرافعة وإقناع واسترضاء ومداورة ، وتعلم كيف
يحسن استعمال مواهبه الخاصة . واكتشف انه يجب احبائاً ان يفضي ولو
موقتاً عن الاعتبار الادبية في سبيل النجاح السياسي .

قد يتساءل المرء لماذا أقدم لنكولن ، رغم ضعة منشأه وعطفه على العامة
من الناس ، على الانضمام الى حزب الاحرار الذي كان يعتبر حزب
الاغنياء والمحظوظين ، بدلا من الانتماء الى الديمقراطيين من انصار
جاكسون . والحقيقة ان التشيع السياسي في تلك الناحية من البلاد لم
يكن يجري وفق الخطوط الطبقية ، فكان جاكسون نفسه يتحلى بكثير
من صفات الارستقراطيين . اذف الى ذلك انه تأثر باصدقائه الاولين مثل
ستيوارت وسواه الذين كانوا من الاحرار . كان لنكولن بمحترم التقاليد ،
ويؤمن بالتعاليم الاقتصادية التي وضعها الآباء المؤسسون . وسار على رأي
اسكندر هاملتون في استغلال المصارف كوكالات مالية للحكومة . ولما
كان قد نشأ نشأة عصامية ، فانه لم ير بأساً في النظام الاقتصادي الراهن .
كانت حركة جاكسون في الحقيقة تهدف الى إقصاء الحكومة عن الاعمال
التجارية بالغاء الاحتكار والامتيازات الخاصة الناشئة عن اعمال الحكومة

لتزاد امكانيات صغار التجار وكاسبي الرواتب والاجور . اما رأي
لنكون في العلاقة بين الحكومة ومصحة الشعب الاقتصادية ، فقد كانت
تومي الى ابعده من ذلك . كان يرى ان على الحكومة ان تنفق على مشاريع
التحسين العامة ، وان تقدم الاعانات المالية للولاية ، وان تساعد الجهود
الفردية . وقد قال فيما بعد : ان الهدف الشرعي للحكومة هو ان تعمل
لمجتمع من الناس كل ما هم بحاجة اليه ، بما لا يستطيعونه وحدهم .



الفصل الرابع صبايته وزواجه

ظلت ولاية الينوي في حالة غير مستقرة عدة سنوات ، بعد هزة الفرع التي انتابتها عام ١٨٣٧ . فقد ناءت تحت وطأة تعهدات لا قبل لمواردها بها ، فهبطت الاسعار وتأخرت جباية الضرائب . وهبطت قيمة اوراق المصرف المتداولة الى ٤٤ سنتاً للدولار .

كان لنكولن في تلك الاثناء غارقاً في واقعة غرامية مضطربة مع فتاة تدعى ماري تود ، هي ابنة روبرت واليزا باركر تود من بلدة اكسنتون بولاية كنتيكي ، وقد جاءت الى سبرنغفيلد عام ١٨٣٧ في زيارة لشقيقتها السيدة ننتان ادوردز . وكان عمرها ٢١ عاماً عندما قدمت للمرة الثانية بعد عامين للاقامة الدائمة مع شقيقتها . ولعلها لم تستطع العيش مع زوجة ابيها . كانت قد ربيت في بيثة اكسنتون الراقية . وتمهذبت في احد المعاهد العالية الخاصة . وتعلمت في مدرسة مدام مانتيل اللغة الفرنسية والموسيقى والرقص والتمثيل ، وسائر الفنون الاجتماعية الارستقراطية . كان جد ابيها من قواد الثورة . وعمه ضابطاً تحت امرة جورج كلارك عند فتح ولاية الينوي . وكان جدها قائداً في الرديف ، وقد ساهم في انتزاع ولاية كنتيكي من الهنود الحمر . وكان ابوها من ارباب التجارة والسياسة المرموقين . ولم يدر بجد احد اذ ذلك ، ان اربعة من ابناء روبرت واليزاتود

السة الذي بلغوا سن الرشد ، سيكونون ذوي « شخصيات شاذة »
كانت ماري فتاة قصيرة القامة ، ذات عيّن زرقاوين تظلمها اهداب
طويلة ، وبشرة وردية اللون وشعر اشقر نحاسي . وكانت تميل الى السمنة ،
لها محيا مكثم مستدير ، وذراعان بضتان وعنق جميل ، ممتلئة حيوية ونشاطاً
مرهفة الحس سريعة الاندفاع متوقدة الذكاء ، طيبة القلب ، في وسعها
ان تكون فتاة متى شاءت . ولكنها كانت غنيدة صلبة الرأي شديدة
المراس ، تنفجر حدة طبعها في ثورة جامحة ونهم لا ذع . وما ان استقر
بها المقام في بيت شقيقتها ، حتى اندفعت مع تيار حياة اللهو والمرح في
سبر تفيلد . ومن الغريب ان اجتذبت لنكولن من دون سائر الشبان
الذين اشتهروا بالوسامة والاناقة . فقد وصفه احد معارفه آنذاك قائلاً :
انه مغرق في الطول ، بشع الحرة ساذج سيء القيافة . . . وكان على
رغم طموحه لا يهتم بتحسين عاداته ومسلكه ومظهره وحديثه . كان
يعتمر بقبعة رثة صدئة ، ويرتدي بنطلونا غاية في القصر وسترة فضفاضة .
وكانت ملامحه جافة متجهمة ، وشعره خشناً اشعث ، ترين على محيا الكآبة .
وعلى رغم هذه المتناقضات ، تمت الخطوبة بينهما في احد ايام عام ١٨٤٠
ولم يتضح جلياً ماذا جرى بعد ذلك . فمن قصته مع ماري اوينز ،
نلاحظ انه كان يتهب من معاشره النساء . كان عقده يمت الافكار
المفككة ولا يستسبع تنسيق مشاعر العشق والهموى . فكان يتردد في
الزواج الى ان يتأكد من انه مفرم حقيقة . وقد حاول ولیم هيرندين
اماطة اللثام عما تم بينهما ، فتوصل الى انها اعتزما الزواج في اول كانون
الثاني من عام ١٨٤١ ، وان لنكولن لم يحضر في الموعد المضروب بسبب
تردده اليائس . بيد ان تعليل هيرندين لا يستقيم مع واقع الامر . والارجح
انها فسخت الخطوبة .

كان لنكولن ذا مزاج سوداوي كئيب ، يشتد احبانا الى درجة المرض

العقلي المعروف بالوسواس او الهيبونخندريا . وقد وصفه طب تلك الايام بحالة من الغم والاكتئاب وانحطاط المعنويات ، تتسلسل تدريجيا بسبب الاجهاد العقلي او الاضطراب النفساني او الفشل . وتتوافق هذه الاعراض ومسبباتها مع وضعية لنكولن ، فقد اجهد نفسه طويلاً في العمل ، وكانت افكاره قلقة من جهة شعوره الحقيقي نحو الآنسة تود . فذهب اليها ، وكشف لها عن حقيقة حالته النفسية ، فادركت انه لا حيلة له في مايشكو منه ، وحلته من قيود الخطوبة ، على امل ان يعود اليها عند ما يبيل من دانه .

ذلك هو التعليل الوحيد الذي يتلاءم مع البيانات المدونة ومع شخصية ماري . ولو انه تهرب من حفلة الاكاييل ، لما غفرت له ذلك . وخيل الى اصدقائه ان الحبيبة صدته وأعرضت عنه ، فبرح به الوجد . وقد وصفته الرسائل المعاصرة بالعاشق المرذول . فها رسالة بعث بها جيمس كورنكلنغ الى احدي صديقات ماري قال فيها : « يا لنكولن المسكين ! وبالهول المقتدرين اذا سقطوا ! لقد احتجب اسبوعاً كاملاً ، ومع انه عاد الى الظهور ، فانه يبدو هزيبلاً لا يكاد يقوى على الهمس . »

خشي لنكولن ان يكون قد هدم سعادة ماري ، فاشتد اضطرابه وسقمه ، وتغيب عن المجلس التشريعي اكثر من اسبوع ، فاقتده اصحابه . وكتب في ٢٠ كانون الثاني ١٨٤١ الى جوث ستيوارت في واشنطن يحثه على استحصل منصب مدير بريد سبرنغفيلد للدكتور انسون هنري ، وقال : لقد ظهرت بمظهر مشين في الآونة الاخيرة ، لما بدا على من اعراض السوداء والوسواس ، وصار يخيل الي ان الدكتور هنري من ضروريات كيباني . وهو لن يبقى في سبرنغفيلد ما لم ينل تلك الوظيفة . ومن هنا ترى شدة اهتمامي بالمسألة . وكتب اليه ثانية بعد ثلاثة ايام يقول : اني انعس مخلوق على هذه البسيطة ، ولو وزع ما بي على جميع البشر ، لما عثرت بينهم على ذي وجه بشوش . فهل يزول ما بي ام لا ، است ادري ، بل يخامرني

الشك في زواله . ومن المستحيل ان ابقى على ما انا عليه ، فاما الموت
واما التحسن .

وأبل من علمته شيئاً فشيئاً ، ولكنه تجنب لقاء ماري . وكانت هي
كثيراً ما ترى في صحبة رجل ارمل متوسط العمر اسمه ادوين وب ،
حتى بات الناس يلغظون ويتهامسون . فكتبت ماري الى ميرسي لفرنغ
تقول ان ذلك القيل والقال انما هو نتيجة « اوهام شخص يتصور تعلق
احدنا بالآخر . وانها متأسفة لاهتمام وب بها ، وتحاول صرفه عن ذلك ،
ثم تسر لئلا فائلة : ان لنكولن يجديني غير جديرة باهتمامه ، فلم التق به في
حفلات المجتمع منذ اشهر . يخيل الي وانا اعزي نفسي البائسة ، ان احداً
لم يكن يبتهج بحضوره كما كنت ابتهج انا . ومع ذلك فبودي لو كان
الامر على عكس ذلك ، ولو انه يعود الى منزلته في المجتمع . فان ذلك
لما يسعدني كثيراً .

كان يشوع سييد اعز اصدقاء لنكولن في سبرنغفيلد . وباع هذا متجرة
في مطلع عام ١٨٤١ ونزح الى كنتيكي . فلما كان شهر آب ، زاره
لنكولن في بيته الانيق قرب لويزفيل ، حيث تعرف بخطيبته فاني هينغ
وكان سييد من الهواجس والشكوك ؛ ما كان يعانبه لنكولن . فلما عاد
هذا الى سبرنغفيلد اخذ يكتب الى سييد . محاولاً تبديد هواجسه ومؤكداً
ان الحب الصحيح وحده هو مجلبة ذلك الشقاء . « فما هذا التشاؤم الذي
يستحوذ علينا سوى هذر وهراء . » وفيما كان يؤاسي صديقه ، اخذ يجمل
هواجسه الخاصة . واقتنع سييد بحجج لنكولن فتزوج ، وكتب اليه
يشكره ويخبره بانه سعيد بزواجه . فرد عليه يقول : ان البرهة الوجيزة
التي استغرقت قراءة رسالتك الاخيرة ، قد اورثتني من الغبطة ما يفوق
بمجموع ما شعرت به منها منذ تاريخ ١ كانون الثاني ١٨٤١ المشؤوم . وكان
يجدر بي ان اظل مغتبطاً ناعم البال ، لولا هذا الحاطر الذي لا يفارقني .

الا وهو وجود شخص نعى كنت انا السبب في تعاسته . ذلك هو ما يحز في نفسي .
ولا يسعني الا ان الوم نفسي على رغبتى في ان أسعد بينها لا تزال تشقى .
وأخذ سبيد يلعب دور المرشد الناصح ، فاما ان يعقد على العزم على
الزواج من ماري ، وإما ان يعمو صورتها من ذهنه . واجاب لنكولن
بانه واثق من صحة ذلك ، ولكنه قبل ان يعقد العزم على هذا او ذلك ،
يود ان يسترد ثقته بمقدرته على المحافظة على قراره وتنفيذه . وتم لقاء غير
منتظر بين لنكولن وماري في منزل السيد سميون فرنسيس زوجة محرر
صحيفة « جورنال » . وكان لقاء مفاجئاً ساراً . وتلاقيا بعد ذلك مراراً
في نفس المنزل ، ولم يعلم احد بذلك التلاقي سوى جوليا جان صديقة ماري .
وتجدد الحب بينهما . و اراد لنكولن ان يستوثق من سعادة سبيد بزواجه
فكتب اليه طالباً سرعة الرد . وجاء الرد مطمئناً ، وفي الرابع من تشرين
الثاني عام ١٨٤٢ وقف لنكولن وماري جنباً الى جنب في ردهة بيت
ادوردز ، ونطقا بالعهود الزوجية امام حشد قليل من الاصدقاء . و كتب
بعد خمسة ايام الى احد الزملاء واختم رسالته بقوله : « لا جديد في بلدنا
سوى اني تزوجت وهو بالنسبة الي امر جد عجيب ! »

امتازت السنوات التالية من زواجهما بمفارقات مبنية تعدل ما كان بين
شخصيهما من تناقض واختلاف . كانت هي قصيرة تميل الى السمنة ، بينما
كان هو مديد القامة هزيلها . كان بطيء الحركة هادئ الطبع ، وكانت
متسرعة متهوره فوارة . ذو وضع النسب ، وهي ارستقراطية ، هو
بسيط الذوق ، وهي مشغوفة بالحلي والثياب الفاخرة . كانت عقليته تنمو
باطراد ، بينما ظلت عقليتها جامدة كأنما سبكت في قالب . وكانت لكليهما
مطامح ، الا ان عزيمتها كانت امضى من عزيمته ، وكانت بمثابة مهراز
يستعنه الى الامام كلما مال الى التلكؤ او التأخر .

عاشا في بيت متواضع عيشة بسيطة . وولد بكرهما روبرت في ١ آب

١٨٤٣ ، وبعد خمسة اشهر من ذلك ، دفعا ١٥٠٠ دولار ثمنا لمنزل مؤلف من طابق ونصف ، بقيا فيه الى ان انتقلا الى وشنطون . كان لنكولن يعني بحصانه بنفسه ، ويحلب بقرته ويحتطب . وانجبا ثلاثة اطفال اخرى هم ادورد بيكر ، ووليم ولاس ، وتوماس . وتوفي ادورد في الرابعة ، وكان توماس مشقوق سقف الفم الثلج . ولم يكن من السهل العيش مع لنكولن ، فكانت زوجته تتضايق من عدم مبالاته وسوء نظامه وهندامه وما يعتريه من نوبات الوجوم والكتابة . فراضت نفسها على الاغضاء عن هفواته . وكانت الرسائل المتبادلة بينها في فترات الافتراق تم على حب خالص . وكانا يذهبان معاً الى الحفلات ويقيانهما في منزلها . ويتعاونان في تحمل الهزائم والاستمتاع بالانتصارات .

كان لنكولن اباً حليماً رحيماً ، عهد الى زوجته بتربية الاطفال ، فكانت معاملتها لهم تتراوح بين الابن واعنف الشدة . واخذ عدم الاستقرار في طبيعتها يزداد مع الايام . كانت تتفانى في خدمة زوجها والعمل على سعادته . ولكن اموراً قافية كانت تهيجها وتثير سورة غضبها ، تتخاصم دوماً مع الخدم والباعة والجيران . وكانت تشكو صداً اليماً (يقال اليوم انه كان بادرة مرض عقلي) يخرجها عن طورها . وكان لنكولن يتجمل بالصبر فيتجاوز عن قوارص كلامها ، ويلبي رغباتها كلما امكن ، ويعتذر للجيران عن هفواتها ، مقدراً طيبة قلبها كزوجة وام . وكان ، اذا تجاوز تقربها حد الاحتمال ، يمسك عن الرد وينسل بهدوء الى مكتبه . وقد بالغت التقولات في وصف ما كان ينشب بينها من خلاف وخصام . والحقيقة انها عاشا معظم الوقت في وئام وسلام . ومع ذلك ، لا ينكر ان تلك الحالة كانت عاملاً في تكييف اخلاق لنكولن . فان جذوة شقائه التي تعلم كتبها وابقاها مدفونة تحت الرماد ، قد هذبت نفسه وكررت مزاياها الغريزية من صبر واحتمال وتسامح وغفران .

الفصل الخامس المحامي - السياسي

عندما تزوج لنكولن ، كان دخله السنوي يتراوح بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ دولار ، و كان دخلاً حسناً اذا قيس براتب الحاكم البالغ ١٢٠٠ دولار او براتب القاضي المتجول البالغ ٧٥٠ دولاراً . ولكنه كان يتطلب عملاً مرهقاً ، بسبب ضآلة بدل الاتعاب التي كانت تتراوح بين ٢٥ و ٥٠ دولاراً وكثيراً ما تدفع عيناً في شكل مأكولات او محاصيل او دواجن او ثياب . بيد ان القضايا كانت بسيطة لا تحتاج الى كثير من الدرس والاعداد ، من مثل اطلاق المزروعات بسبب رعي الماشية فيها ، والديون الصغيرة والطمع والقتل والتحقير ، والغزو والاعتداء بالقوة ، وما اشبه ، وفي النادر قضية طلاق او جريمة قتل . و كان يبت فيها على ضوء نواميس الصواب والخطأ الاساسية . ولما كان المحامون يترافعون امام هيئة المحلفين ، فان اقطع سلاح في ايديهم كان اتصافهم بالشخصية الجذابة وسرعة الخاطر ، و صفاء الذهن و ايجاز القول والاشتهار بالأمانة والصدق . كانت دورة المحاكم في سبرنغفيلد لا تستغرق الا اسابيع معدودة كل عام ، فيضطر المحامون الى التجول معها في سبيل كسب الرزق . فلما انتقل سنيوارت الى واشنطن عام ١٨٣٩ ، تولى لنكولن اعماله الشركة فاخذ يتجول مع المحاكم في الربيع والخريف من كل عام . و كان قضاء

سنغامون يدخل في المنطقة القضائية الثانية ، وكانت مساحتها تبلغ نحو ١٢٠٠٠ ميل مربع ، بطول ١٢٠ ميلاً وعرض ١٦٠ ميلاً في أقصى طرفها . وكانت دساكرها متباعدة قليلة ، بحيث يقطع الخيال عدة ساعات او يوماً كاملاً دون ان يصادف مسكناً آدمياً . وكانت سرعة التنقل تتوقف على حالة الطرق ، فيقطع الحصان ستة او سبعة اميال في الساعة اذا كانت الطرق جافة ، ولا يتجاوز ثلاثة او اربعة اذا كانت موحلة . وكان القضاة والمحامون يزورون الاقضية في جولات دورية . وتستغرق الدورة بين ثلاثة ايام واسبوع . فاذا وصل المحامي الى بلدة ما أهرع اليه المتقاضون ، او الوكلاء المحليون الراغبون في الاستعانة بسوالم . وكانت الدورة موسمياً يحتفل به اهالي البلدة والفلأحون الناؤون . فيتوافدون على البلدة لشراء حاجاتهم ولقاء معارفهم . وشهود جلسات المحكمة . وكانت فرصة يكتسب فيها القاضي والمحامون شهرة واسعة . وقد استغلها لنكولان وهو يسمى الى تحقيق مطامحه السياسية . وكانت هذه الرحلات ، على رغم مشاق السفر وسوء اماكن الإقامة . بلسماً لنفس لنكولان المتذبذبة بين حب الاجتماع وحب العزلة . وكان هو وزملائه يسرون بها . لما تنطوي عليه من هرج ومرج . وتلق القرويين السذج . واكتساب المعارف والاصدقاء . ومسامرات المساء العابقة بالمرح والعبث والمجون .

كان لنكولان يعتبر المحاماة مهنة يفتخر منها الى مراقبي السياسة ، فلم يكن هو ولا شريكه مفرماً بالدرس والمطالعة . كان ستيوارت يقضي معظم وقته إما في واشنطن . واما متجولاً في حملات الدعاية لنفسه . ولم يكن يكثر للنكولان وهو في مكتبه . وكانا في قاعة المحكمة يعتمدان على المقدرة العفوية اكثر مما يعتمدان على الاعداد الدراسي الدقيق . ولم يكن هذا ليؤثر كثيراً في مرافعاتها امام المحاكم الدورية . ولكنها

وجد العمل او فر ربحاً امام محكمة الولاية العليا . و امام المحاكم الاقليمية التابعة لحكومة الاتحاد . والتي كانت تنعقد في سبرنغفيلد . و كان لا بد من البراعة الحقوقية في معالجة القضايا المعروضة على تلك المحاكم . لاسباب بعد ان تقدمت الولاية وتعدت دعاوي المتقاضين فيها . و اعل لنكولن اخذ يدرك انه لم يعد يستفيد من شريكه ستيفارت . او اعل كلا منهما رأى ان المضي في السياسة يتطلب مشاركة شخص اكثر توفراً على مزاولة المحاماة . ففي ربيع ١٨٤١ اتفقا على فسخ الشركة . و الف لنكولن شركة جديدة مع اسطفان لوغان .

•••••

كان اشتراكه مع لوغان من اهم المؤثرات الانشائية في حياته ، لان هذا كان مجتهداً مدققاً صبوراً يجب النظام ، و قد تمرس في اصول الاساليب والسابقات ، و كان الى ذلك متضلعا في فلسفة القانون . كان يكبر لنكولن بعشر سنوات ، قصير القامة نحيلها ، ذا شعر احمر كثيف اجعد ، سى الهندام مهمل القيافة . قدم سبرنغفيلد عام ١٨٣٣ ، تسبقه شهرة واسعة ترتكز على مزاولته المحاماة عشر سنوات في ولايته ، وعلى خدمة عامين كقاض في المنطقة القضائية الاولى . فصار زعيم محامي سنغامون بلا منازع . و اصبحت شركتهما في طليعة مكاتب المحاماة في الولاية ، و دأب لنكولن تحت رعايته على الجد والاجتهاد . لم يكن لنكولن في طبيعته طالباً مجداً ، فلما بين له لوغان قيمة التدقيق والاعداد المتقن وفضلها على مجرد طلاقة اللسان و فصاحة البيان ، صار لنكولن يعرف بالحصم القوي الواسع الحيلة في اية قضية تولاها . و توفر على تعزيز ملكاته الفرزية بالاستعداد لمواجهة اية حجة قد يثيرها الحصم ، و إتقان الخطابة و الكتابة بوضوح و ايجاز ، فاطرد تقدمه في تلك المهنة .

و عمل لوغان في مجلس الولاية التشريعي من عام ١٨٤٢ الى عام ١٨٤٨ ،

وأشيع آنذاك ان مطامعه السياسية قد تصادمت مع مطامع شريكه .
ثم ان لنكولن لم يكن راضياً عن تحديد حصته من دخل الشركة بالثلث ،
(بعد ان كانت حصته النصف في شركته مع سنيوارت) لما في ذلك من
معنى التبعية . وكان لوغان الى ذلك كثير المطالب سريع التبرج ، فلما
اعرب عن رغبته في اتخاذ ابنه شريكاً له وافق لنكولن طوعاً على فسخ
الشركة ، وافتتح عام ١٨٤٤ مكتباً خاصاً به ، واتخذ شريكاً له شاباً
أجيز حديثاً اسمه وليم هيرندن . ولم تنته هذه الشركة الا بوفاة لنكولن .
كان هيرندن بصغره بتسع سنوات ، وهو ابن آرثر هيرندن الذي
زامل لنكولن في المجلس التشريعي . وقد تزوج وليم عام ١٨٤٠ ثم شرع
يدرس الحقوق في اوقات فراغه ، وبناء على اقتراح لنكولن ، اشتغل
كمتبرن في مكتب لوغان لنكولن . فلما اختاره شريكاً له استغرب
الاهالي ، اذ لم يكن يتعذر عليه ان يجد بين ذوي الاختبار من يرحب
بالاشتراك معه . وظل المكتب مدة يحتفظ بدفتر للحسابات . واذا بشريكه
ليس اقل منه فوضى وعدم انتظام ، فاكتفيا باقتسام الاعتاب مناصفة فور
قبضها . كانت الفوضى تشيع في ارجاء المكتب - النوافذ قدرة لم تغسل
مرة واحدة ، والاوراق مكدسة فوق الطاولة ومتناثرة من رفوف
الخزانة المكتظة . وكثيراً ما اخذ هيرندن بعضها الى بيته ففسها هناك .
وكانا على طرفي نقيض في بعض النواحي الاخرى . فبينما كان لنكولن
حازماً حذراً متحفظاً بصيراً بالعواقب ، كان هيرندن عصبي المزاج حاد
الطبع متهوراً . ومع ان لنكولن كانت تنقصه الاناقة والرشاقة والمطامع
الاجتماعية ، فقد كان يدور في فلك ارقى الاوساط المحترمة في سبرنغفيلد
بينما ظل هيرندن خارجها . ولكنها مع ذلك ظلا يعملان في تعاون وثيق
فاذا غاب لنكولن مع جولة الدورة القضائية ، ظل هيرندن يدير شؤون
المكتب . وكانا مختلفان في اجراءات المرافعة . كان هيرندن شديد التوتر ،

صلبا عديم الدعابة ، ينشبت بأتفه النقاط ، يندفع الى التهريج التبشيلي
واللاعب على الاوتار الحساسة في المحلفين ، ولا يتورع عن اللجوء الى اي
اسلوب او فن في سبيل الفوز ، قال مرة : « اذا نجحت في استنزاف دموع
المحلفين ، فقد رجحت القضية »

وكان لنكولن يستطيع مثله التلاعب بالمشاعر والعواطف ، ولكنه
كان يفضل الرجوع الى العقل والمنطق . كان تصرفه يبدو عرضيا عديم
الاكتراث وهو يسأل الشهود بلهجة ودية ، فيطلق ملحة بارعة ، هنا وهناك
ويتنازل عن نقطة تلو اخرى حتى لكأنه يتراجع عن دعواه . فاذا انتهى
الى النقطة الحاسمة ، كان صلبا لا يلين ، يبدي فيها ويعيد ، حتى يتفهمها
ابسط المحلفين واغفاهم . ولم يكن له مثل في جلاء بيانه وايضاحه بالتشبيه
وضرب الامثال البسيطة ، ولا يقوى احد على مقارنته في تأييد الحق
والعدل . وكان هيرندن يضيق ذرعا بقصص لنكولن التي سمعها مرارا
وتكرارا . ولشد ما كان يزعجه اطفال لنكولن ، الذين كان يجيء الوالد
بهم الى المكتب كل أحد ، ثم ينسأهم وهو منصرف الى عمله ، فيعششون في
المكتب عبثا وتخريبا ، يفتحون الصناديق والادراج ، ويمزقون الاوراق
ويبعثونها ، ويتلفون الاقلام ويدلقون المهاجر . وعلى رغم كل ذلك ،
كان الشريكان على وفاق تام . ونحوت الصلة بينهما على مر الايام الى صلة
الوالد بولده . فكان لنكولن يدعوه « بيلي » ، اما هو فظل يدعوه
« المستر لنكولن » . ولو ان لنكولن تطور عقليا حتى تجاوز مدارك
شريكه ، فانه لم يقلل من ثقته وحبه واخلاصه له .

.

كان لنكولن قبل اشتراكه مع هيرندن بعام ، قد عانى بعض الخذلان
فبعد ان خدم اربع سنوات في المجلس التشريعي ، وكان فيه زعيم كتلة
الاحرار الذي رشح مرتين لرئاسة المجلس ، شعر بانه جدير بالتقدم وصار

يطمع الى عضوية الكونغرس ، لا سيما بعد ان اعلن ستيوارت عن عدم رغبته في اعادة ترشيح نفسه . فطفق يرسل اصدقاءه من الاحرار في هذا الصدد . فكتب الى رتشارد توماس يقول : اذا اتفق ان سمعت احداً يقول ان لنكون لا يطمح في عضوية الكونغرس ، فارجوك كصديق ان تقول له ان لديك من الاسباب ما يجعلك تعتقد انه مخطىء . فالحقيقة اني شديد الرغبة في ذلك ، ومع ذلك فقد تطراً ظروف تحول دون ترشيحي . .

كان نفوذ الاحرار في ولاية الينوي مركزاً في منطقة لنكون التشرية السابعة التي شملت احد عشر قضاء ، بحيث كان مرشح الاحرار يكاد يتأكد من فوزه في الانتخاب . وكان هذا سبباً في ايجاد منافسين اقوياء لنكون من نفس حزبه ، وقد نافسه فعلاً اثنان ، هما جون هاردين وادورد بيكر . وكان ثلاثهم شباناً في بداية العقد الرابع من العمر ، ومحامين قديرين خدموا جميعاً في مجلس الولاية التشريعي . وكان بيكر آنذاك عضواً في مجلس شيوخ الولاية . وكانوا كذلك من الخطباء المفوهين البارعين في الحملات الانتخابية . لا سيما بيكر الذي كان من الخطباء الشعبيين الذين يلجأون الى اصطناع الحركات والتلويح بالاعلام وما اشبه . وقد وقف هذا بخطب مرة في قاعة محتشدة ، وكان قد جاء بنسر ربطه بسلسلة فوق المنصة . فطفق النسر يرسف كالاسير المقيد ، بينما اخذ بيكر يشبه به الجمهورية الاميركية تحت سوء حكم الديمقراطيين . وقال في الختام ان فوز الاحرار سيحرر الجمهورية من اغلالها ، فتحلق في اعالي الجو . ويقال ان النسر المكتئب رفع رأسه عند ذلك ، ووسع حدقتيه واطلق صرخة مدوية ! وسارت الحملة الانتخابية لعضوية الكونغرس في آذار ١٨٤٣ . وعلى اثر اجتماع سري عقده الاحرار في سبرنغفيلد نشر لنكون خطاباً الى الشعب في الينوي ، شرح فيه مبادئ الاحرار ،

محاولة التغلب على اثنتين من سيدات الحزب ، اولاهما تقصيره في تسمية مرشحيه من جميع انحاء الولاية مهما كان مبلغ أملهم من النجاح ، وثانيهما إعراض الحزب عن عقد المؤتمرات . وقال في صدد ذلك ، ان اتحاد الحزب لازم لانتصاره ، وان البيت المنقسم على نفسه لا تقوم له قائمة . فلما بدأ الاحرار ينتخبون وفدم الى مؤتمر اقليمي ، كان هم لنكولن ان يعزز ترشيحه بضم ان اصوات وفد سنغامون . ولكن بيكر هو الذي استأثر بها . وبما زاد في غم لنكولن ، انه اختبر عضواً في الوفد رغم محاولته الاعتذار ، فكان لا بد من تأييد منافسة بيكر ، وكتب الى سيد يقول في ذلك . سيكون موقفى كموقف رجل أجبر على ان يكون إسبينا (أي شاهدا) للعريس الذي انتزع منه خطيبته المحبوبة ليتزوجها هو . ولم يسع لنكولن الا ان يقترح لمصلحة بيكر في ذلك المؤتمر الاقليمي ، وفقاً لما صرح به عن ضرورة تضامن الحزب ، ومع ذلك ظل يراوده امل اخير ، في ان يقدم اسمه احد الاقضية الاخرى . واغتبط عند ما كتب ليه مارتين موريس من قضاء مينارد يقول ان ذلك القضاء يفضله على غيره . الا ان هاردين اكتسب الاصوات اللازمة في المؤتمر الاقليمي الذي عقد في قضاء تيزول . فاقترح لنكولن الاجماع على تسمية هاردين ، حرصاً على وحدة الحزب . فلما أقر اقتراحه ، اقترح ثانية ان يسمى بيكر مختار الحزب في الترشيح التالي بعد عامين على ان يوافق المؤتمر التالي على ذلك ، وافر هذا الاقتراح ايضاً باغلبية ١٨ صوتاً مقابل ١٤ . ولو ان لنكولن ضحى مؤقتاً بطامحه الشخصية في سبيل وحدة الحزب ، فانه لم يكن يرضى بالبقاء في المؤخرة طويلاً . وانما كان قصده انشاء مبدأ الدورية ، فيخلف بيكر هاردين في الدورة القادمة ، ويخلف هو بيكر في دورة عام ١٨٤٦ . وخرج الوفود من المؤتمر واثقين من حصول التراضي بين الثلاثة .

في خريف ١٨٤٣ ذكر اسم لنكولن كمرشح الاحرار لمنصب الحاكم ،

فلم يشجع هذه الحركة . وفي صيف ١٨٤٤ قامت حملة انتخاب الرئاسة ، فاندفع في تأييد هنري كلاي ، وسافر الى ولاية انديانا ليخطب ويوزع مرابيع صباه ويجده صلاته بمعارفه . ولكنه خذل مرة اخرى ، فبينما ايد قضاء سنغامون وبعد افضية الينوي الوسطى ترشيح هنري كلاي ، اكتسح جينس بولك الولاية ، والامة ايضاً .

.

كان وصول لنكولن الى الكونغرس يسير حسب الخطة الموضوعه فانتخب بيكر بالاجماع خلفاً له - اردن . وعندها باشر لنكولن بالسعي لنفسه ، يكاتب اعضاء الحزب المتنفذين ومحوري صحفه . ولما عاد بيكر الى بلدته في عطلة صيف ١٨٤٥ ، سأل لنكولن عما اذا كان سيبر بوعده فيفسح له المجال . ولم يكن بيكر راغباً في التخلي عن منصبه بعد ان ذاق حلاوته ، وقال ان بوده ان يتخلى لولا انه يخشى عودة هاردين الى الميدان ، فيتغلب على لنكولن وينتزع اللقمة منها جميعاً . فمضى لنكولن لمقابلة هاردين ، وما اشد ما كان امتعاضه عندما ادرك ان هذا لا يميل الى الوقوف جانباً . فضاغف من جهوده في سبيل ترشيح نفسه ، وطلق يتجول ويكتب قائلاً ان من الظلم المفضوح حرمانه من دوره بعد ان آثر هاردين وبيكر على نفسه بمحض اختياره وقبل ان يعود بيكر الى الكونغرس بعد انتهاء العطلة ، اكد للنكولن انه لن يرشح نفسه ثانية ، ووعد باعلان ذلك متى شاء لنكولن . وبقي عليه تنحية هاردين . وقام احد صحفيي الاحرار من اصدقاء لنكولن بترشيح هاردين للمنصب الحاكم ، ووافق غيره من الصحفيين على تلك الفكرة . ولم يكن للنكولن سابق علم بتلك الحركة ، ومع ذلك اتهم هاردين بانه موحياً ، واعتذر عن قبول المنصب ، وقال انه يفضل عضوية الكونغرس وان على الاحرار ان يفضوا المشكلة بطريقة مقبولة . وكانت نائرة هاردين تشور كلها واجه ما يعرف قل خططه ويفسد عليه مناوراته

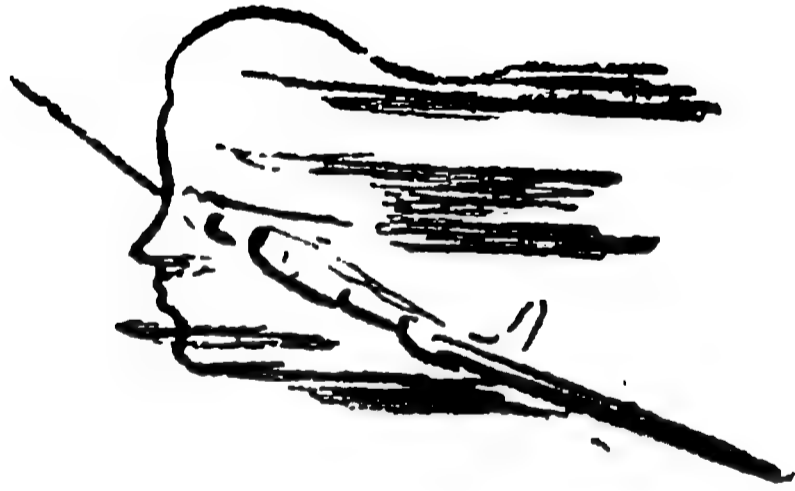
فاخذ يكبل التهم لمنافسه جزافا ويقول له انه رزيء في من كان يتوهم انهم
اصدقاء له . وعيل صبر لنكولان فكتب يرد عليه قائلا : ان كان ثمة سبب
للشعور بالرزة ، فانما هو كبلك لهذه التهم لصديق تقول انك عملت معه
طويلا ، والذي لم يبدر منه الى الآن مثل هذه الاساءة . واني اعتقد انك
لا تقصد ان تكون غير عادل وغير كريم . ولذلك تراني متوردا في
الاعتقاد بانك لن تعيد التفكير في المسألة وتغير رأيك فيها . وفي ١٦
شباط ١٨٤٦ انسحب هاردين من المعركة بما استطاع من لباقة وكرامة .
وفي اول ايار تمت تسمية لنكولان باجماع الاصوات .

وما مضى اسبوعان ، حتى نشبت الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك
وهرع المتطوعون للاتحاق بالجيش من جميع انحاء الينوي . وكانت
المدافع تزجر على الحدود ، عندما فاز لنكولان على القس بطرس كارتر ايت
مرشح الديمقراطيين لعضوية الكونغرس . وكان يخالج لنكولان بعض
الشك في ضرورة تلك الحرب وتبريرها ، ولكنه لم يعرب عن معارضته لها .
وهاجت صحيفة سنغامو الرئيس بولك ، متهمه اياه بالجبن في وجه المكسيك ،
وطالبت بالمحافظة على حقوق البلاد . كما خطب لنكولان والحاكم فوررد
وغيرهما في حفل حاشد في سبرنغفيلد ، مطالبين باتخاذ اجراء موحد سريع
ضد العدو . فتطوع على اثر ذلك سبعون آخرون وامتد الحماس الحربي
الى القرى والدساكر والمزارع النائبة ، وطفى قرع الطبول على المعركة
الانتخابية بين لنكولان وكارتر ايت الذي لم يكن يتقن حملات الدعاية ،
ففاز لنكولان باغلبية ٦٣٤٠ صوتا ، مقابل ٤٨٢٩ لها كارتر ايت .

.....

في هذه المرحلة من التأهب للوثوب الى المسرح الوطني في وشنطن ،
كان لنكولان غير ذلك الشاب الحام الذي حط في سبرنغفيلد قبل عشرة
اعوام . فلقد وطد مركزه كحام ناجح ، وروضه الزواج واعباء الاسرة ،

ومعاشرة لوغان اربع سنوات ، واستعاد رشده وتوازنه بعد مغامراته
الغرامية الفاشلة . وتعلم الصبر وضبط النفس ، من حياته البيتية وخذلانه
السياسي ، وبرز في مضمار السياسة على اقوى الاخصام والمنافسين ، الذين
عاملهم بشرف واستقامة ، فمنعهم الفرص والامكانيات ، ولم يطلب
لنفسه سوى ما كان له حق فيه . ولم يقنع بما قد تتطلبه السياسة . والحقوق
من قوة عارضة وحسن إلقاء ، فكان ينشد ويتوخى الجمال في اختيار الالفاظ



الفصل السادس

الرجل القادم من الينوي

حدد شهر كانون الاول ١٨٤٧ موعداً لانعقاد الدورة الاولى للكنغرس الثلاثين ، اي بعد نحو ١٧ شهراً من انتخاب لنكولن ، ففضى هذه الفترة في مزاولة مهنته كالمعتاد . وفي تموز ١٨٤٧ قام باول زيارة الى شيكاغو ، المدينة السريعة النمو التي بلغ سكانها ١٦٠.٠٠٠ ، لحضور مؤتمر كبير عقد للاحتجاج على نقض الرئيس بولك للاعتاد الذي ارصد لتحسين المواثيق والانهار ، ولتأييد الاصلاحات الداخلية . فلما وصلها بعد سفر اربعة ايام ، وجد فيها اناساً من جميع جهات الولايات المتحدة . ولم يساهم لنكولن في الحركات الاصلاحية والاجتماعية التي اجتاحت البلاد آنذاك ، اللهم باستثناء ثلاث خطب في الامتناع عن المسكر . فما كان ايشوفاه حزب الحرية ، ولا الظواهر السياسية لحركة تحريم الرقيق ، ولا مذهب ولیم غاريسون المتطرف ضد اقتناء العبيد . كان انصار التحريم في نظره يضرون اكثر مما ينفعون . الم يكن انصار التحريم من حزب الاحرار في نيويورك السبب في هزيمة هنري كلاي المرشح لرئاسة الجمهورية ، وفي انضمام ولاية تكساس الى انصار الاسترقاق ، وذلك باقتراعهم الى جانب جيمس بيوني مرشح حزب الحرية ؟ كان عليهم ان يعضوا النظر عن اقتناء كلاي لبعض العبيد ، فيكسبون مقابل ذلك إمكان الحيلولة دون انتشار الرقيق .

وبينما كان لنكولن لا يزال متوفراً على أعماله في مكتبه ، كانت اميركا قد سجلت انتصارات مجيدة في حربها مع المكسيك . كان الكثيرون في بداية الحرب يشكون في عدالتها وضرورتها أمسكوا عن الاعتراض علناً لئلا يتهموا بعدم الولاء . اما في الكونغرس ، فان اثنين فقط في مجلس الشيوخ ، واربعة عشر في مجلس النواب ، صوتوا ضد مشروع القانون الذي ينحول الرئيس دعوة المتطوعين ، واعتماد عشرة ملايين دولار المضي في الحرب ، والذي جاء في مقدمته ان الحرب القائمة هي من عمل جمهورية المكسيك . فلما خمدت فورة الحماس الاولى ، انطلقت الالسنة باستنكار الحرب . وكانت انتخابات الرئاسة لعام ١٨٤٨ وشيكة ، فلم يسع زعماء الاحرار الا استغلال الموقف الراهن الذي يسهل لهم إلقاء تبعه الحرب على عاتق الرئيس ، وتخطيط الطريقة التي سيرت بها الحكومة الديمقراطية الحرب ، والاعراب في نفس الوقت عن وطنيتهم باقتراح زيادة الذخائر والمعدات لانهاؤها نهاية حاسمة .

وقام أنصار الغاء الرقيق واعضاء حزب الحرية يؤيدون انتقادات حزب الاحرار ، لانهم رأوا في الحرب مؤامرة لنشر الرقيق . ووجد الرئيس بولك معارضة حتى بين صفوف الديمقراطيين ، فقد كان غير محبوب . وعملت المنافسات الشخصية والعداوات التحزبية على تقسيم الحزب الى شيع . وجاء أشد تأييد للحكومة القائمة من ديمقراطيي غرب البلاد ، حيث كانت الروح القومية اشد تأججاً ، وحيث أدى تنازل اميركا لبريطانيا عن بعض الاراضي والتخوم في ولاية اوريفون ، الى شحنة شهوة التوسع في بقعة اخرى . فلما رفضت المكسيك عروض الصالح ، ارتفعت الاصوات من كل مكان ، تطالب بالمزيد من اراضيها كتعويض عن تكاليف إطالة الحرب ، حتى ولو شمل ذلك المكسيك باكملها .

كان داود ويلموث الديمقراطي قد اقترح في الكونغرس السابق ، اضافة

شرط الى مشروع قانون اعتمادات الحرب ، يحرم الرق في جميع الاراضي التي تكتسب من المكسيك . واجيز ذلك الشرط في مجلس النواب ، الا ان الدورة انتهت قبل ان يبت مجلس الشيوخ فيه . واستفحل الجدل بين الشمال والجنوب ، فاتسع الحرق بين اوساط الديمقراطيين ، وهدد بانقسام حزب الاحرار ايضاً . وعندما اخذ لنكولن يستعد للذهاب الى واشنطن ، كان القتال قد توقف ، وأصبحت مسائل الساعة هي عدالة القضية الاميركية من حيث الحرب ، التي ما زال الاحرار ينكرونها ، ومبلغ الغنائم التي يجب فرضها على المكسيك ، وقضية الرق في الاراضي المكتسبة . وعصف التشيع والخلاف بالاحزاب . ففي الجنوب قرر الاحرار والديمقراطيون على السواء ان يقاوموا مبدئياً شرط ويلموث او اي اجراء آخر ينكر على الجنوب حقوقاً متساوية في الاراضي الجديدة ، اما في الشمال ، فبينما كان اكثر الديمقراطيين يفضل إقصاء مسألة الرقيق عن السياسة ، ظل الاقناع بمقاومة انتشار الرقيق يعترض خطط الاحزاب وسياساتها .

.....

في ٢٣ تشرين الاول ١٨٤٧ اجر لنكولن بيته لعام واحد بتسعين دولاراً ، وارتحل بعد يومين مع زوجته وولديه روبرت وادورد ، معرجاً على لكسنتون في ولاية كنتكي لزيارة اقارب زوجته ، في طريقه الى العاصمة . فلما وصلها ونزل في فندق براون ، تطلع فرأى مدينة منبسطة ممتدة على رقعة واسعة ، فيها نحو ٤٠٠٠٠٠ من السكان بينهم ٨٠٠٠ من العبيد المعتقين و ٢٠٠٠ من العبيد الأرقاء . كانت المدينة مجموعة من الضواحي ، تفصل بينها مناطق مهجورة يملكها اناس يتربعون ارتفاع اسعار الاراضي . كانت خليطاً من الرفاه والبؤس ، من القصور والاكواخ ، في باحات بيوتها الخلفية حظائر البقر والخنازير والدواجن ، تمرح وتسرح في شوارعها لتلتقط ما اكتظت به من قمامة . وكانت

المياه تختزن في الآبار . والاقوات ترددها من ولايتي ماريلند وفرجينافي عربات نقل يسوقها عبيد في ثياب رثة . وكان شتاؤها شديد البرد والرطوبة وصيفها رطباً خانقاً يكثر فيه البعوض ، فيهجرها الموسرون وموظفو الحكومة حالما تبدأ اشهر القيظ .

تطلع عضو الكونغرس القادم من الينوي الى البيت الابيض القائم وسط اراضيه الشاشعة ، وقد امتد خلفه مستنقع كبير حتى نهر بوتوماك ، وعلى مسافة منه قامت دار البرلمان بقبتها الخشبية . ولم يكن قد تم من مبنى الخريزة سوى واجهته الامامية ، وكانت وزارات الخارجية والحربية والبحرية ما تزال في دور ذات طابقين مبنية من لآجر . ورأي لنكولن قرب دار البرلمان ما سماه باسطبلات العبيد ، حيث كانوا يحشدون زرافات كالحيل الى ان ينقلوا الى اسواق الجنوب ، كان الشماليون يعتبرون ذلك المكان عنوان الخزي والعار ، ولكن وشنظون كانت مركزاً لتجارة الرقيق الداخية ، وقد فشلت جميع المحاولات لالغاء ذلك .

وانتقل لنكولن بعد ايام من الفندق الى نزل (اي بانسيون) السيدة سبريغ ، المطان على حديقة دار النواب بماشيا المفروشة بالحصى وفسقيات البديعة . وقد سبق ان نزل في نزل السيدة سبريغ عدد من الاحرار من انصار الغاء الرقيق ، حتى صار يعرف باسم « دار الغاء الرقيق » . ولما كان اكثر الاعضاء الوافدين ينزلون في الفنادق والنزل ، فلم يكونوا يصطحبون نساءهم . فاحست زوجة لنكولن بالوحشة ، لاسيما انها لم تكن تحسن معايشرة من تعرفت بهن من النساء ، فكانت تقبع في غرفتها إلا في اوقات الطعام ، وارتحلت مع ولديها بعد ثلاثة اشهر الى لكسبتون .

• • • •

امتاز الكونغرس الثلاثون بالفتنة والمقدرة . واتخذ لنكولن له فيه مقعداً

متواضعاً في وسط الصف الخلفي الى جانب الاحرار . لقد اكد
لنكولن بجد على اعمال المجلس واللجنتين اللتين انتخب لهما - لجنة دوائر
ومواصلات البريد ، ولجنة مصروفات وزارة الحربية . ومع ان احداً
من الاعضاء الجدد لم يبذره في نشاطه ، فان زملائه لم يروا فيه اكثر من
رجل غر متوسط المواهب قادم من الغرب .

• • •

كان اهم ما يشغل الاحزاب خلال دورة الكونغرس الاولى ، انتخابات
الرئاسة لعام ١٨٤٨ . فما ان اشتهر الجنرال تايلور بانتصاراته الحربية ،
حتى رشحه الاحرار للرئاسة . وكانت امكانياته في كسب الاصوات
عظيمة ، على رغم انه لم يسبق له ان رشح من قبل ، وانه رجل متحيز لا
رجل مفكر ، يقتني العبيد ، ويدعو الى انتزاع اراضي المكسيك ، ويدين
بالروح العسكرية التي يمجتها الاحرار . كان لنكولن ، على شدة رغبته في
انتخاب هنري كلاي ، يعلم ان حظه من الفوز قليل . فأخذ يراقب اتجاه
التيارات السياسية ، لا سيما في الينوي ، وبذل جهده في العمل على تأييد
تايلور ، لا لانه يفضل على كلاي ، وانما لاعتقاده بافضليته على بولك
او كاس او بكنان ، الذين لا بد ان يفوز احد منهم فيما لو اخفق تايلور .
وذهب لنكولن في حزيران الى فيلادلفيا ، لحضور مؤتمر الاحرار
الوطني ، حيث جرت تسمية تايلور بفضل وفود الينوي . وقد انقسمت
اصوات الولاية في الاقتراعات الثلاثة الاولى ، بحيث نال تايلور ، اصوات
ونال كلاي ٣ ونال الجنرال سكوت صوتاً واحداً . اما في الاقتراع
الرابع والاخير فقد انحازت اصوات وفود الينوي كلها الى جانب تايلور .
وتابع لنكولن جهوده في تأييد تايلور . فلما رأى التيار يتجه اليه ،
كتب الى هنرندن مغتبطاً يقول : قال الكثيرون سابقاً انهم لن يهتموا
ترشيح تايلور ، وها هم اليوم يتهافتون عليه . وسنفوز على ما اعتقد ،

بذصر كاسح مبین . یوہ کد البعض هنا ان جميع الولايات في جانب تايلور ما عدا الينوي ، افلا يمكن عمل شيء فيها ؟ ، وكان لنكولن قلقاً من حيث اتجاه ولايته . لم يكن هو مرشحاً للانتخاب ثانية للكنفرس ، فقد اختار الاحرار لوغان خلفاً له ، بموجب الحطة الدورية . ولكنه كان شديد الاهتمام بنتائج معركة الرئاسة ، لما لها من مساس بمطامحه السياسية . فضعف من جهوده واغرق الناخبين المترددین بسيل من منشورات الاحرار . وحرص هيرندن المتشائم على تجنب الشبان وحشدهم وتوزيع المهام عليهم كل حسب اقتداره . بيد ان النتائج خيبت الآمال . ففي انتخابات الكنفرس انهزم لوغان امام توماس هاريس مرشح الديمقراطيين عن بتسبورغ . ولقد ادرك لنكولن خطورة الموقف ، ولكنه حاول المستحيل لتحقيق فوز تايلور . فالقى في المجلس بتاريخ ٢٧ تموز خطاباً تمك فيه على جهود الديمقراطيين لظهور مرشحهم للرئاسة لويس كاس بظهور بطل الحرب ، وذلك بالمقابلة بين أمجاد كاس الحربية وبين اختباراته هو في حرب الصقر الاسود . وشبه الذين حاولوا ربط كاس الى المركبة الحربية بجماعة من الاولاد الاشقياء يربطون كلباً الى كيس من الفول . كما شبه كاس في خنوعه لسلطة العبيد ، بالثور البليد الذي يحاول تجنب منخس الفلاح . فقد كان يميل في الاول الى تأييد شرط ويلموث ، فلما انذره صوت سيدهن بالارتداد ، تسلل خانعاً الى اسطبله .

وعاد لنكولن الى واشنطن في كانون الاول ، لحضور دورة الكنفرس الثانية ، حيث استأنف نشاطه المتواضع .

.....

عم الاضطراب في الاشهر الاخيرة من حكم الرئيس بولك . فما ان ابتدأت دورة الكنفرس الثانية حتى اثيرت مشكاة الرقيق . وتفاقت الخلافات الحزبية على اثر صدور رسالة الرئيس السنوية ، وقد اوصى فيها

بانشاء الحكومات الاقليمية في نيومكسيكو وكاليفورينا . وانهاالت على الكونغرس مقررات المجالس التشريعية في الولايات ، يؤيد فيها الشماليون شرط ويلموث ، ويحتج فيها الجنوبيون على استثناء الرقيق من المناطق الجديدة ، ويهددون بجل الاتحاد اذا لم تحترم حقوق الجنوب . كان لتلك المشكلة نواح متعددة ، فقد كانت كاليفورينا بحاجة ماسة الى حكومة اقليمية كولاية ، بسبب ارتهاادها للتنقيب عن الذهب . وكان الجنوبيون يعارضون في قبولها في الاتحاد ليقيم انها ستكون ولاية حرة تحرم الرقيق . وكان ثمة خلاف حول الترخم الفاصل بين نيومكسيكو وتكساس ولما كان الشماليون يأملون ان تصبح نيومكسيكو ولاية حرة ايضا ، فقد رغبوا في توسيع حدودها شرقاً ، بينما تحيز الجنوبيون لولاية تكساس . وهاجم الشماليون تجارة الرقيق في مقاطعة كولمبيا ، بينما طالب الجنوبيون بتشديد القانون الخاص بالعبيد الهاربين .

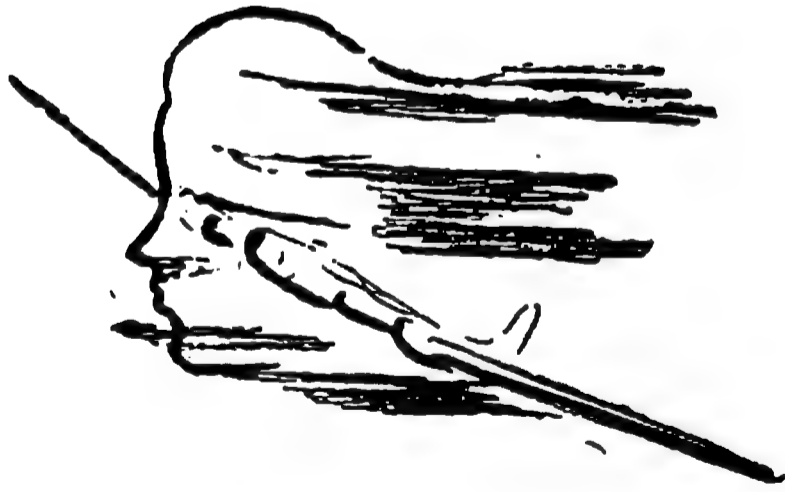
كان لنكون لا يرى جدوى في اثاره الضجة حول الرقيق الى هذا الحد ، فلم يشترك في المناقشات الصاخبة التي دارت في المجلس . ولكنه كان دائماً يقترح في جانب التشريع الرامي الى انشاء حكومات حرة في كاليفورينا ونيومكسيكو . وقال فيما بعد انه صوت الى جانب شرط ويلموث اكثر من اربعين مرة ولما قام يشوع غيدنز يشدد النكير على الرق وشروره واقترح الغاءه في مقاطعة كولمبيا ، اعلن لنكون انه سيتقدم بمشروع قانون من عنده في سبيل نفس الغاية ، ينص على تحرير الاطفال الذين يولدون من امهات رقيقات بعد الاول من كانون الثاني عام ١٨٥٠ ، وعلى تحرير العبيد الآخرين باختيارهم ودفوع التعويض لأسيادهم بشرط ان يرضى اهالي كولمبيا بذلك . ولكنه لما ايقن عدم اجازة اقتراحه هذا ، لم يقدمه كمشروع قانون . وأيد مشروع قانون آخر يقضي بتحريم الرق في كولمبيا ، ولكنه فشل كالمعتاد .

وخشي اهل الجنوب على نظامهم الذي اعتادوه في الحياة ، فاجتمع المتطرفون منهم بقيادة جون كلهون لتأليف حزب جنوبي جديد يقاوم ما يسموه بالعدوان الشمالي . واصدروا بياناً حذروا فيه الجنوب مما يهدده من جراء الغاء الرق . وهو ما يتعارض مع فلسفتهم الجديدة من ان الرق هو الخير كل الخير ، وانه بركة على السيد والعبد على السواء لانه يتيح للرجل الابيض فرصة تنمية ملكاته السامية ، ويخرج الرجل الاسود من البربرية الوحشية . وهو النظام الوحيد الذي يمكن الجنسيتين من العيش معاً في سلام ومصالحة الطرفين ، وقد اكسب الجنوب حضارة ارقى . فكيف يجرؤ اولئك المتعصبون على تحريم الرق ، وبأي حق ؟ فما العبيد سوى متاع يقتنى كما تقتنى الانعام والمواشي . ولاحق للكنغرس في التشريع بشأنهم ، بل عليه ان يضمن حق السيد في اقتناء العبيد اينما كان من انحاء البلاد . فاذا لم يرعو الشمال عن غيبه ، واذا لم يحافظ على حقوق الجنوب في الاراضي المنضمة اليه ، فلا يسعه سوى الانفصال عن الاتحاد .

ذلك كان صوت الجنوب ، يعبر عن فلسفة تذهب جذورها الى اعماق من مجرد الاصرار على ابقاء الرقيق ، فلسفة يغذيها شعور مرهف بالزهو والكبرياء ، وبالخوف من اثاره مشكلة مستعصية اذا تحرر العبيد ، وبالعزم الوطيد على الاحتفاظ بالجنوب كموطن للبيض ، وعلى نظام الحياة فيه .

وقبل اختتام دورة الكونغرس تضامنت الكتلة المضادة للرقيق في تأييد ما يسمى بتعديل ووكر ، الذي كان سيد الدستور ، بما فيه من اعتراف بالرقيق ، ليشمل جميع الممتلكات الجديدة ، وتضامن الاحرار الشماليون وبعض الديمقراطيين لتحدي التعديل . وانفضت الدورة في جو من التهديدات والمهاترات ، دارت فيه معركة قصيرة . ولم يبت في واحدة من تلك المسائل . وكان لنكونن يراقب شدة ذلك الصراع الاقليمي ، فادرك ما ينطوي عليه من شؤم وشر .

وانتهت دورة الكونغرس ، فتردد لنكولن في العودة الى الحياة الهادئة في سبرنغفيلد . وكان يأمل ان يشترك مع بيكر في تولى شؤون حكومة الاتحاد في الينوي ، مادام حزبه يوشك ان يتقلد زمام الحكم . فكتب الى وليم مرديث وزير المالية ، في ٩ اذار ١٨٤٩ ، طالباً ان يستشار هو وبيكر في جميع التعيينات التي تتعلق بالولاية ، لان الاحرار فيها يعتبرانها مسؤولين عن ذلك . ويستدل من ختام رسالته على مبلغ ما كان يتمتع به من نفوذ ، اذ جاء فيها : اننا لا نعرفك شخصياً ، وقد فشلت جميع محاولتنا لمقابلتك حتى الآن . « وظل لنكولن في وشنطن حوالي ثلاثة اسابيع بعد تنصيب الرئيس تايلور ، فلما عاد الى سبرنغفيلد كان فاقراً الهمة مثبط العزم . لقد ظل يقترح ويقدم التواصي بشأن التعيينات لمناصب الحكومة الاتحادية ، ولكنه اخذ يتبين اطراد تناقص نفوذه ، ففترت حماسته السياسية . فلما انعقدت المحكمة الدورية في سنغامون في صيف ١٨٤٩ ، لم يجد بدا من العودة الى مزاولة المحاماة



الفصل السابع

اصداء النزاع القومي

بينما اخذ الباحثون عن الذهب يتسابقون الى مروج كاليفورينا ، والقطر ذات العربات المغطاة تزحف فوق القمم المكسوة بالثلوج وعبر الصحاري القاحلة متجهة غرباً ، كان لذكوان يجوب طرقات المنطقة القضائية الثامنة ، لاسترداد اصدقائه وموكبيه الذين افلتوا منه مدة غيابه . ولما حاولت حكومة واشنطن ترضيته بعرضها عليه حاكمة مقاطعة اوريفون ، رفض ذلك باباء . ولم يفت في عضده انه قد يفقد مستقبله السياسي . بل توفر على تثقيف نفسه والتبعر في المحاماة ، حتى باتت تلك الفترة التي اعتزل فيها السياسة بين ١٨٤٩ و ١٨٥٤ من انصب سني حياته ، في النحو العقلي والخلقي . لم يبد عليه اي تغير في الظاهر ، فظل يتجول بين مواطنيه ، وهو يعتبر بقبعته الطويلة البالية المألوفة ، ويلبس سترة مذنبة نائمة عند المرفقين ، وبنطلونا قصير الساقين ، وينتعل حذاءً أغبر غير ممسوح . كان يزهر بقامته المديدة البالغة ست اقدام واربع بوصات ، فلا يفتأ يقيسها بالوقوف ظهراً اظهر مع غيره من طوال القامة . وكان نحيلاً قليل اللحم شديد العصب بارز العظام ، ضيق الصدر منحني الظهر قليلاً . وكان وزنه نحو ٨١,٢٥ كيلو ، وكان اسمر البشرة متغضضا ، اشعث الشعر وخطه الشيب قليلاً ، فاذا سارت تدلت يدا الضخمتان من اسفل ذراعين طويلتين . وكان

ذو رأس ، مستطيل ، وجهه عالية ضيقة ، ووجنتين بارزتي العظام ، وعينين
رماديتين غائرتين في محجريهما تحت حاجبين ناتئين ، وذقن حادة ، واذنين
كبيرتين . وكانت شفته السفلى ثخينة نافرة ، وعلى خده الايمن شامة .

• • • • •

وظل يراقب عن بعد كل ما يجري في وشنطون . وشعر بشيء من
الطمأنينة عندما قام هنري كلاي المسن عام ١٨٥٠ باقتراح بعض الاجراءات
لحسم النزاع القومي ، وقد استعان بوستر ودوغلاس على اجازتها من قبل
الكنغرس ، رغم مقاومة متطري في الاحرار في الشمال ، ودعاة الانفصال
في الجنوب . ودخلت كاليفورينا الاتحاد كولاية حرة لارق فيها ، ونظمت
مقاطعتا نيو مكسيكو ويوتا . دون ما ذكر للرقيق ، الذي ترك تقرير
مصيره في يد الاهالي عند ما تصبحان ولايتين . وسوي الخلاف حول
نجوم تكساس ونيو مكسيكو برفع عشرة ملايين دولار لتكساس ،
والغيت تجارة الرقيق في مقاطعة كولمبيا . وفي سبيل تهدئة الخواطر في
الجنوب ، حولت محاكم حكومة الاتحاد صلاحية النظر في قضايا العبيد
الهاربين ، بحيث يتعذر على قوانين الحرية الشخصية التي تسنها ولايات
الشمال ، ان تعيق القبض على الهاربين واستردادهم .

ورضي الجنوب إجمالاً بهذا الحل الوسط ، فانفض الناس من حول
المتطرفين الذين كانوا يدعون الى الانفصال . ورضي به الشمال ايضاً ،
ما عدا انصار الغاء الرق . وبدا كأن خطر انقسام الامة قد زال ، إلا
فما يتعلق بقانون للعبيد الهاربين . كان المنتظر ان يثور انصار تحريم الرق
على اي قانون يقضي برد العبد الفار الى العبودية ، غير ان احكام ذلك
التشريع كانت بغيضة حتى للمعتادين . فهي لم تسبح بمحاكمة العبد المرذود
امام هيئة محلفين ، ولا بأن يدافع عن نفسه . بل كان على مالك العبد او
وكيله ان يقسم امام حاكم اتحادي على انه يملك ذلك العبد . وكان أجر

الحاكم خمسة دولارات اذا حكم لصالح العبد ، وعشرة دولارات اذا حكم لصالح السيد ، بحجة ان قرار تسليم العبد كان يتطلب عملاً كتابياً اكثر . اما انصار التحريم فاعتبروا زيادة الاجر بمثابة رشوة . وقالوا ان القانون يحرض الناس على اقتناص الهاربين ، اذ يفرض الغرامة والسجن على كل من يساعد عبداً هارباً او يرفض ان يعين الشرطة على القبض عليه . اذف الى ذلك ان القانون كان ذا مفعول رجعي ، يطبق على كل من هرب قبل اجازته ولو بعدة سنوات .

وعلى رغم هذه المساوىء واعتراض المتطرفين من الجانبين ، فقد رضى معظم الناس بهذا الحل الوسط كحاسم لكافة الخلافات حول الرقيق . واطمان لنكولن ، كسائر المعتدلين الى زوال اسباب التوتر الذي كان يندر بانقسام الامة ونشوب هرب اهلية . ولما توفي هنري كلاي عام ١٨٥٢ ، ابنه لنكولن ، وقال ان واضع ذلك الحل الوسط كان ذا انسانية واعتدال ، وانه على رغم افتنائه لبعض العبيد كان يكره الرق قلباً وقالباً ، ولكنه لم ير من الحكمة استئصاله دفعة واحدة لما قد يجره ذلك من الشر المستطير ، حتى على قضية الحرية الانسانية نفسها . وهاجم انصار التحريم الذين لا يتورعون ، في سبيل عدم تحميل الرق بوهة وجيزة ، عن تشتيت شمل الاتحاد وتمزيق دستوره المقدس ارباباً ، وحتى احراق آخر نسخة من التوراة . كما حمل على متطرفي الجنوب الذين اعمتهم عبادة وثن الرقيق عما جاء في وثيقة اعلان الاستقلال من ان جميع الناس يخلقون متساويين .

.

كانت الاحوال هادئة في اواخر عام ١٨٥٣ ، والناس قانعين بالحل الوسط الذي نفذ عام ١٨٥٠ ، ولكن الجو كان مكهرباً ، تلمع في افقه البعيد بين حين وآخر ومضة تنذر بهبوب العاصفة السكائمة . وقد تواترت

الشائعات المثيرة . هذا خبر عن تراجع مجلس كاليفورنيا التشريعي ثلاث مرات ، فيما يتعلق بطرد العبيد الذين جلبوا الى الولاية قبل إقرار دستورها . وهذه جريدة مغمورة تنشر خبراً عن عبد ، ادعى انه نال حرية على اساس ان سيده نقله الى ولاية الينوي ثم الى ولاية وسكونس ، والرق في كليهما محرم ، ولكن محكمة ميسوري العليا اعادته الى الرق بدعوى انه عاد بمحض ارادته الى ولاية تدين بالرق . وهنا اناس يعرفون تنفيذ قانون استرداد الهاربين ، لانهم لا يهتمون ان يشهدوا زنجياً مسكيناً مذعوراً يساق قهراً الى حياة الرق . وهناك شائعات عن مؤامرات يديرها العبيد للاستيلاء على جزيرة كوبا الاسبانية ، الخ

كان لنكولان بطالع مثل هذه الاخبار في الصحف ، وهو يوجس خيفة من مغبتها . كان شيطان الشقاق نائماً ، ولكن سباته كان خفيفاً متقطعاً . وتضاربت افكار الناس الى حد لم يستطيعوا عنده كبت الخلاف حول الرق ، الذي لم يعد مشكلة اجتماعية او دستورية او اقتصادية تمكن تسويتها بالاحذ والرد والحل الوسط ، بل اصبح مسأله ادبية اخلاقية ، يدعي فيها كل من الطرفين ان العدل والحق في جانبه . وبدأت مثار الاضطراب يكمن في بعض الشبان الطموحين في مجلس الشيوخ . من اولئك الشباب الوسيم سلمون تشايس المتعصب لتحريم الرق ، الذي كان يخفي طموحه وراء مظهر من الترفع والعزلة . كان يتظاهر بالورع والزهد والرزانه ، حتى ان نوم كوروين تومس فيه النجاح البعيد ، فهو الذي قال : اذا كنت تروم النجاح في الحياة ، فكن رزينا وقوراً كالجمار ، فان اعظم تماثيل الارض واضرحتها انما بنيت فوق رفات الحمير الرزينة الوقورة . « كان تشايس يعتقد بان هناك ناموساً طبيعياً اسمى واجل من اي دستور او قانون بشري ، هو الناموس القائل بان على كل انسان ان يفعل بالآخرين ما يريد ان يفعلوه هم به .

ومن اولئك الشبان ايضاً ، وليم سيوارد النائب عن نيويورك . كان شاباً هزيباً اقنى الانف ؛ شاذ الطباع ، ذكي الفؤاد متوقد الذهن . وكان مثل تشايش يدين بناموس سماوي فوق الدستور يجب ان يطبعه البشر . ومنهم ايضاً الشاب الرصين الاثني تشاراس سمنر من ولاية مساتشوزتس . كان طفيلياً في اذواقه وميوله العقلية ، بارداً مترفعاً في تصرفاته ، متحذلقاً في خطبه يحشوها بالاقتباسات الكلاسيكية . وكان مفرط الثقة في استقامته ، حتى انه لما اقسام بين عضوية الكونغرس ، كان يضرر تحفظاً عقلياً ، من ان قانون العبيد الفارين غير دستوري ، وانه لا ينوي تأييده . وكذلك كان هناك اسطفان دوغلاس الذي ما فتى يتقدم بفرط عزيمة لا تلين ، بينما كان لنكولن قد سبقه في مضمار السياسة ثم ارتد خائباً على عقبه . انتخب دوغلاس ثانياً لمجلس الشيوخ ، واصبح عضواً بارزاً فيه ورئيساً للجنة الممتلكات ، التي تشرف على مصير المناطق غير المستثمرة من البلاد . وكان على رغم ضالة جسمه وتجهم سمته ، قد اصبح رجلاً مرموقاً ، بفضل جرأته المنهورة ، وغموضه المربك ، ونشاطه في السياسة وحياة المجتمع . كان انتهازياً واسع الهيلة اكثر مما كان رجل تصميم وتفكير وبعد نظر . وكان وطنياً مخلصاً وقومياً متعصباً ، شديد الرغبة في التوسع وتنمية المقاطعات الغربية ، واكتسب بشاشته ودماثته كثيراً من الاتباع المخلصين من شبان حزبه . وكان متضلعا من العلوم الحكومية والسياسية ، مستهيناً بالمعارضة ، قوي الحجج اذا كان الحق في جانبه ، وموارباً اذا دهاء اذا كان يدافع عن قضية خاسرة . ومع انه كان اقدر اولئك المتحمسين في مجلس الشيوخ ، فانه هو الذي ايقظ الفتنة ، عند ما اقترح الغاء البند المتعلق بتحديد الرق الوارد في اتفاق الحل الوسط . عند ذلك تجمعت شحنات الجو المكهرب وتصادمت كمرعد قاصف مزجر . لما تسربت اخبار هذه المناوشات المشؤومة في الكونغرس الى ولاية

الينوبي ، لاحظ رفاق لنكولن انه يزداد انطواء على نفسه . كان يجيبي الليالي واجما مشرد اللب ، فاذا افاقوا صباحا وجدوه فاقد الوعي في شبه غيبوبة ساهمة . لقد حيره جمود عاطفة دوغلاس وعدم مبالاته بمبدأ التحرير الذي يعتنقه اهل الشمال لا شك في انه كان يعلم انه سيثير العاصفة ، ومع ذلك لم يبال . فهل كان يظن ان متطرفي الاحرار فقط سيعارضونه؟ ام أن العاصفة لا تلبث ان تهدأ ؟ ام انه يستهين بالمعارضة ؟ الارجح ان دوغلاس لم يكن عنده وازع ادبي يبغضه بالرق ، فلم يدرك غور مقت الشمال له . كانت نظرتة اليه نظرة مادية ، خلت من الشعور الانساني نحو الزنوج . كان يقول : اذا كان مناخ منطقة ما وتربتها ونتاجها مما يجعل من مصلحة السكان اقتناء العبيد ، فانهم يسنون تشريعا للرق ويشجعونه . اما اذا كان المناخ والتربة والانتاج مما لا يوحى باستدرار الربح عن طريق الرقيق ، فانهم يجرمون . هذا كل ما في الامر ، وهو مسألة مادية حسابية . وكثيراً ما صرح بانه لا يهمه اكان التصويت مع الرق ام كان عليه . فالقرار الاخير يجب ان يكون من حق البيض في المناطق ذات العلاقة . فما شأن اهالي الشمال باوضاع الزنوج في المناطق البعيدة عنهم كنيومكسيكو ويوتا وسواهما ؟ ولم ير بأسا في تمزيق اتفاق الحل الوسط . ولماذا يحترمه اهل الشمال كوثيقة مقدسة ، بينما هو يقدم اليهم مبدأ عدل واسمى - الا وهو مبدأ السيادة الشعبية ؟ ان مبدأه هذا لا يوسع رقعة الرق ، وجميع العوامل للطبيعية والاقتصادية تؤكد ، على زعمه ، ان الرق لن يمتد الى شبر آخر من اراضي الوطن . ومن اقوال دوغلاس ايضا ، ان الشعب نفسه قد نقض اتفاق ميسوروي (اي اتفاق الحل الوسط) . والحق الذي خوله اهالي نيومكسيكو ويوتا في حرية الخيار بين قبول الرقيق او رفضه ، يجب ان يكون مبدأ يطبق تطبيقا عاما . اما لنكولن فكان يرى ان هذا الزعم لا ينطبق على الواقع .

فالشاليون لما وافقوا على اتفاق ميسوري ، ظنوا ان السيادة الشعبية الواردة فيه تطبق تطبيقاً خاصاً ، كما يطبق اتفاق ميسوري نفسه على منطقة خاصة معينة . وفيما كان لنكوان مجال تفكير دوغلاس ، لاحظ ان مبدأ السيادة الشعبية ينطوي على غموض اساسي ، ففي اي وقت يصبح لاهالي منطقة ما ان يقرروا اصطناع الرق او رفضه ؟ إذا بلغوا الفاً ام عشرة آلاف ام ثلاثين الفاً ، ام متى اصبحت منطقتهم ولاية ؟ وهل يسع الامة باسرها ان تظل بمعزل عن ذلك القرار ؟ ولم يستطع دوغلاس نفسه تحديد الوقت الذي يحق للشعب فيه اتخاذ مثل ذلك القرار . وقد دل التاريخ على انه اذا تمكن الرق في بقعة ما ، فمن العسير جداً استئصاله منها .

.

ما ان تقدم دوغلاس بمشروع قانونه في مجلس الشيوخ ، حتى ثارت حربان ضروسان ، احدهما في الكونغرس والاخرى في طول البلاد وعرضها . وفي النداء الذي وجهه الديمقراطيون المستقلون في الكونغرس الى شعب الولايات المتحدة ، حمل تشايس على مشروع قانون كنساس - نبراسكا ونعته بالاختلاف الفاضح لعهد مقدس ، وبالخيانة الاجرامية للحقوق الثمينة ، وبالمؤامرة الفظيعة لسد ابواب منطقة خالية واسعة في وجه المهاجرين من العالم القديم والعمال الاحرار من الولايات الاخرى ، ولتحويلها الى صقع بلقع من الاستبداد ، يعمره اسبياد وعبيد . واتهم دوغلاس بمالأة الجنوب في سبيل تحقيق مطمعه في كرسي الرئاسة .

غمس صحافيوا الشمال اقلامهم في أحماض ، وخطوا اسطراً من نار . وقام رجال الدين فيه بمجدون الحرية ، ويدعون الى الاتحاد باسم الله العلي . وحمل على دوغلاس الاميركيون الالمان والمتحدرون من اصول اخرى ، متهمين اياه « بأفرقة » موطنهم العتيذ (اي جعله افريقيا) . وحتى التجار ورجال الاعمال الذين ترتبط مصالحهم بالجنوب ، عقدوا اجتماعات عبروا

فيها من سخطهم وانحوا باللائحة على دوغلاس لتعريضه الازدهار القومي للخطر ، بنبش نزاع اقليمي كان قد دفنه اتفاق الحل الوسط عام ١٨٥٠ ودامت الحال على ذلك المنوال اربعة شهور .

لما كان مبدأ السيادة الشعبية الجديد يتفق مع مصالح أنصار الرق ، فقد انضوى الجنوب مبدئياً تحت لواء دوغلاس . بيد ان ولايات الجنوب لم تر في الاقتراح شيئاً مجدياً عملياً ، فلم تتحمس له . اما دوغلاس فكان عنوان العناد وحب الخصام ، فقاد المعركة الى النهاية . وما كان ليتراجع ، حتى ولو اقتنع بان تهوره قد دفع به الى ابعد مما كان يريد . فاستجمع كل ما كان لديه من مداورات وخطابة لاذعة وقذف وطعن ، للتعبيل في اجازة مشروع قانونه ، قبل ان يلين بعض الديمقراطيين بضربات مطارق الشمال . ودام النقاش الحامي ستة اسابيع ، وانتهت بجلسة استمرت ١٧ ساعة استأثر دوغلاس بمعظم الكلام فيها ، وانتهت باجازة المشروع في مجلس الشيوخ في فجر ٤ اذار . ولكنه كان يحتاج الى احد عشر اسبوعاً آخر ليمر في مجلس النواب .

وسمع لنكولن باجازة المشروع ، وهو في احد المحاكم ، فثارت ثأثرته وسنجهه بعد ثلاثة شهور قد عاد الى معترك السياسة ، ولكن كرجل آخر غير ذاك الطموح الذي تحطمت امانيه عام ١٨٤٩ . لقد انتعش طموحه ثانية ، ولكنه اتخذ شكل الاخلاص لهدف معين . فاذا تكلم ، فبنوع جديد من الجد والوضوح والسلطان . كان منذ حدائته حاذقاً صافي التفكير امام الجماهير ، فاصبح منذ الآن مناقشاً محلاً سياسياً لا يشق له غبار . إن وقع ذلك التهدي الادبي قد طهر لنكولن من ضيق التحزب وتحرير الغاية ، واخذ يوسع آفاقه المحدودة ويستغل سجاياه الحميدة ومواهبه العبقرية ، ليجعل منه سياسياً دبلوماسياً عالمياً .

الفصل الثامن

لنكون نعود إلى معترك السياسة

كان من نتيجة اجازة مشروع قانون نبراسكا ، ان اخذت وشائج الاحزاب الواهية تنقطع . فانسحب آلاف الديمقراطيين الشماليين من حزبهم . واختل انتظام حزب الاحرار بسبب انقسامه الاقليمي ، ولكنه ظل محتفظاً بشيء من المكانة في الشمال . وكان من الطبيعي تضامن انصار تحريم الرق . ففي ٢٨ شباط ١٨٥٤ اجتمع عدد من الاحرار والديمقراطيين والتحريريين في بلدة ريبون في وسكونسن ، وقرروا تأليف حزب جديد يقاوم الاسترقاق فيما اذا اصبح مشروع نبراسكا قانوناً نافذاً . وفي ٩ ايار اجتمع عدد من اعضاء الكونغرس من انصار التحريم ، في فندق في واشنطن واقروا نفس الخطة . وفي ٦ تموز عقد اجتماع شعبي مختلط في بلدة جاكسون في ميشيقان ، واتخذوا اسم الحزب الجمهوري ، تقليداً للحزب الديمقراطي الجمهوري الذي انشأه الرئيس الاسبغ توماس جفرسون . وعقدت مئات من الاجتماعات المماثلة في الشمال . كانت الحركة تلقائية اختيارية ، وبما يؤيد ذلك ان سبع ولايات ادعت فيما بعد نشوء الحزب الجمهوري فيها .

وكان اندماج الاحزاب في الحزب الجمهوري سريعاً هنا ، بطبيعتها هناك . ففي البينوي بدأ الاندماج في آذار ، وأقر الاسم الجمهوري في آب . ولكن

الاحرار والديمقراطيين ظلوا بمعزل عنه . وقد امسك لنكولن وقدماء
الاحرار عن الاندماج ، بدافع الولاء المتأصل للحزب ، وعدم التفريط
بما حازه من مكانة واحترام خلال جهاده ، وعدم الرغبة في الاندماج في
زمرة متطر في انصار التحرير فأثروا الاحتفاظ بمنظمتهم الاصلية وتعزيرها .
ونشأ عن تلك الفوضى حزب آخر سمي بحزب اللاأدرين ، ترعرع في
التعصب والتحيز .

تفاقت الهجرة الى اميركا بسبب الثورات في اوربا والمجاعة في ايرلندا،
وقد افاد بعضهم البلاد بنشاطه وطموحه وثقافته ، بينما كان غيرهم جهلة
مزعجين . وكان معظم الارلنديين والالمان من الكاثوليك . وكانوا
يقيمون في المدن الكبرى بمعزل عن الوطنيين الذين اخذوا ينظرون اليهم
نظرة نفور وعداء . ونشأت جمعيات سرية لا اجنبية ولا كاثوليكية ،
لمقاومة ما تخيله الاعضاء من تهديد للجمهورية ومبدأ حرية الدين . وتكافت
هذه الوحدات الشتية لتؤلف « الحزب الاميركي » الذي عرف باسم
« اللاأدرين » ، لان اعضاءه كانوا يتظاهرون بالجهل التام كما سئلوا عن
منظمتهم . وانتظم في ذلك الحزب بعض الاحرار المحافظين من الشمال
والجنوب ، مدفوعين بدافع القومية والاخلاص للاتحاد الاميركي ، ولكن
معظم الاعضاء كان من الرعاع الجهلة المتعصبين . كانت مبادئ الحزب
شريرة ، ينفثها الاعضاء في مظاهرات استفزازية ، مما اثار اضطرابات
دائمة في عدد من المدن . ومع ذلك ، اكتسح اللاأدريون ، في انتخابات
١٨٤٥ ولاية نيوانغلند ، وكادوا يكتسحون ولاية نيويورك ، وفازوا
بعدد من المناصب البلدية ، وبمجموعات كبيرة من الاصوات في معظم
الدوائر الانتخابية .

• • • •

لما عاد لنكولن الى معترك السياسة عام ١٨٥٤ ، لم يكن يطمع في شيء



النائب ابراهام لنكولن وهي اقدم صورة له التقطت حوالي ١٨٥٠



ستيفن، دوغلاس ايام المجادلات الكبرى

لنفسه ، بل حصر همه في تأمين اعادة انتخاب رتشارد بايتس للكنغرس ، بسبب شدة معارضته لمشروع قانون نبراسكا . فاخذ في الدعاية له ، واتفق مع اسطفان لوغان على ترشيح نفسها لمجلس الولاية التشريعي ، وذلك لتعبئة قوى حزب الاحرار . كان لنكولن ، منذ ان عرض مشروع نبراسكا على مجلس الشيوخ ، قد درس مناقشات الكونغرس وعدة كتب في مكتبة الولاية ، ودون من المذكرات ماقد ينفعه في المستقبل . فلما كان يجوب المنطقة في حملة الدعاية لبايتس ، تبدت مقدرته في اجتذاب المستمعين اليه ، وانهاالت عليه الدعوات للخطابة من خارج المنطقة .

وعاد دوغلاس الي الينوى عند انتهاء دورة الكونغرس ، ليدافع عن نفسه ، ويبعث النشاط في من تخلف من اتباعه . وكان الناس يلاقونه على طول الطريق بهتافات الاستنكار والعداء . وتطلع من القطار وهو يجتاز احدى المدن فرأى صورته تلتهمها النيران . وكان الامتعاض عاماً ، حتى خشي اصدقائه على حياته . واكنه كان جريئاً لا يهاب . فلما نزل في بيته في شيكاغو ، عول على ملاقاته خصومه وجها لوجه ، واعلن انه سيخطب في القاعة الكبرى في قلب المدينة مساء اول ايلول . وانتشرت في المدينة شائعات تنذر بوقوع العنف والاعتداء . فقد كان دوغلاس في خطاب القاه في فيلادلفيا ، قد ندد باللاأدرين ونعتم بالعنصر الحيث الهدام ، واكد ان الديمقراطيين الصالحين سيصدون في وجه القوي المتحالفة من الاحرار وانصار التحرير والقوميين المتزمتين والمتدينين المتعصبين وسواهم . فكبت اللاأدريون غيظهم في انتظار الساعة المؤاتية . فلما قامت الاستعدادات للاجتماع في شيكاغو ، وهدد انصار دوغلاس بان الارلنديين هناك سيضطشون بكل من تحدته نفسه بالتحرش بالخطيب ، قيل ان اللاأدرين تسلحوا بالمدى والبنادق . وتجمهر معارضو مشروع نبراسكا كذلك ، وثار تآثرتهم

بسبب ما قبل من ان دوغلاس يعتزم اخذ موافقة الجموع المحتشدة على مبادئته ثم يدعي انها تعبر عن رأي المدينة كلها .

وحضر الى المكان ٨٠٠٠ شخص ، فاضطروا الى عقد الاجتماع خارج القاعة . واحتشد مئات اخرى على السطوح والشرفات والنوافذ . وكان الجو حاراً . فلما وقف للخطابة استقبل بسكوت ينذر بالشؤم . وما ان تكلم ، حتى قاطعة الصفير والتنحنج ونداءات الاستنكار من كل صوب . فاستشاط غضباً ، ودفع اوراقه جانبا واخذ في المهاترة . ولما حاول استئناف الخطابة ، اغرق الجمهور صوته بالقهقهة والسخرية ، فلم يسعه الا ان يمز عليهم قبضته وينزل عن المنصة حائقاً .

ولكنه لم ييأس . كانت المقاومة تثير فيه كوامن روح القتال . فاخذ يجوب الولاية ، وفي اثره الخطباء المعارضون . فلما وصل الى بلدة بلومنتون للخطابة ، كان لنكولان مستعداً الرد عليه ، واقترح احد اصدقائه على دوغلاس اجراء محاوره خطابية بين الاثنين ، فرفض قائلاً ان الاجتماع خصص له وحده وان الناس جاءوا ليستمعوا اليه . فاصفى اليه لنكولان بعد الظهر ، وتكلم في المساء .

افتتحت سوق الولاية في سبرنغفيلد يوم ٣ تشرين الاول . وسبق ذلك لعدة اسابيع ، الاعلان عن اعتزام دوغلاس الخطابة ، فأعد ٥٠٠٠ مقعد في حديقة شمال المدينة . وهطل المطر في الموعد المضروب ، فاضطروا الى الاجتماع في قاعة مجلس النواب . والقى دوغلاس نفس الخطب الذي اعتاد القاؤه في كل مكان ، والذي نجح في استرداد الكثيرين ممن فقدوا ثقتهم فيه . بدأ بتطور المناطق الغربية وما نجم عنه من مشاكل قومية واتى على تاريخ اتفاق ميسوري ، وادعى ان الاحرار الشماليين وانصار التحرير عرفلوا جهوده في تطبيق ذلك الاتفاق على الغرب . ثم جاء الحل الوسط عام ١٩٥٠ الذي زعم انه يحل مبدأ السيادة الشعبية محل خط جغرافي

يفصل بين مناطق الرقيق ومناطق تحريره . وقال انه طبق هذا المبدأ الجديد بحسن نية علي منطقة كنساس نبراسكا ، فاتهم بانه يرمي الى نشر الرق ، مع ان التربة والمناخ يثبتان ان الرق لن يتوسع هناك . وانتهى بالتعريض باللاادريين .

كان لنكولن في اثناء ذلك يقطع الدهليز ذهاباً واياباً وهو متوتر الاعصاب . فلما انتهى الخطاب وخرج الناس ، وقف علي السلم يعلن انه سيرد عليه في اليوم التالي . واكتظت القاعة ثانية ، علي رغم الحر الخانق ، واعتلى لنكولن المنصة في قميصه المرفوعة الذراعين ، ودون سترة ولاياقة وجلس دوغلاس في الصف الاول ، فقد دعاه لنكولن الى الحضور والرد عليه اذ شاء . وكان لنكولن قد اعد خطابه كتابة . وليكنه لم ينشر بكامله الا بعد ان تلاه ثانية في بلدة بيوريا ، فصار يعرف بخطاب بيوريا . وتلثم في البداية وكان صوته حاد النغمة . فما ان انطلق في الكلام حتى انتفى تعلثمه وتركزت نبراته ، واندفع في حماسة حتى تصبب وجهه عرقاً . وكانت القاعة تدوي بالتصفيق والاستحسان بين آن وآخر . بدأ يبين كيف أن مؤسسي الجمهورية وضعوا سياسة تؤدي في النهاية الى محو الرق ، فحرموها ضمن نطاق رقعة الوطن الاصلية ، وامنوا انقطاع موارد الرق ، بوضع احكام تستهدف الغاء تجارته . فلما اكتسب الوطن ارضاً جديدة ، عقدت سلسلة من الاتفاقات بالبراضي ، للاحتفاظ بالحريية في اوسع مساحة ممكنة . ووصف مشروع كنساس نبراسكا بانه مخالفة مفضوحة لاحد تلك الاتفاقات المقدسة ، وشر جسيم - شر في تأثيره المباشر بادخال الرق الى كنساس ونبراسكا ، وشر في مبدئه العتيد ، بالسماح بانتشاره في جميع اقطار العالم التي يميل فيها الناس الي اصطناعه . واردف يقول : لا يسعني الا ان امقت هذه اللامبالاة المزعومة بأمر الرقيق ، وأعدتها غيرة حقيقة مستورة علي نشره . أمقتها بسبب الظلم الفاضح الذي

ينطوي عليه الاسترقاق . أمقتها لانها تسلب جمهوريتنا تأثيرها العادل في العالم ، وتمكن اعداء الحرية من تعبيرنا بالمراثين ، وتجعل انصار الحرية يرتابون في اخلاصنا لها ، لاسيا وانها تدفع بالصالحين منا الى حرب مكشوفة مع المبادئ الاساسية للحرية المدنية ، بانتقاد وثيقة اعلان الاستقلال ، والاعتقاد بان ليس ثمة مبدأ قويم للعمل سوى المصلحة الشخصية .

وظل يضرب على هذا الوتر الادبي حتى نهاية خطابه . ولم يبد اي تحيز ضد اهل الجنوب . وقال اننا لو كنا محلهم لما فعلنا غير ما فعلوا . ولا تقع عليهم تبعة وجود الرق ، مثلهم في ذلك مثل اهل الشمال . واعترف غير حاسد لهم بحقهم الدستوري في اقتناء العبيد ، وبمنحهم اي تشريع يضمن استرداد الهاربين ، بشرط ان لا يكون من الشدة بحيث يكون اقرب الى جر الحر الى العبودية ، من قانون العقوبات العادي الى شق رجل بريء . لقد اراد ان يميز بوضوح بين موقفه من انتشار الرقيق ، وموقفه من الرقيق الراهن حيث يوجد . فلو كان يملك جميع سلطات الدنيا ، لما درى كيف يعالج الرق كنظام قائم . كان اول ما يتبادر الى ذهنه ، تحرير العبيد وارسالهم الى ليبيريا ، حيث انشأت جمعية الاستعمار الاميركية جمهورية زنجية . وسلم بان ذلك هو حل بعيد المدى ، وان تحقيقه حالياً مستحيل . واذاف يقول : اعتقد على كل حال ، اني لن اقتني عبدا . بيد ان هذه المسألة غير جلية تماماً ، بحيث أحكم فيها على الآخرين ويلوح لي انه لا بد من اصطناع خطة للتحرير التدريجي ، فاذا ما تملكنا اخواننا الجنوبيون في ذلك ، فلن ادينهم عليه .

ثم تناول حجج دوغلاس في تبرير الغاء اتفاق ميسوري ، فعندها . قال ان حجته الرئسية القائلة بان حق الحكم الذاتي المقدس يخول اهالي منطقة ما تقرير مصير الرق بانفسهم ، تتجاهل بان من حق الامة باسرها ان تتأكد من حسن استعمال تلك المنطقة . فالشمال يريد ان يجعل من المناطق

الجديدة موطناً للشعب الابيض الحر ، ولن يكون ذلك لو دخلها الرق .
ولما كان خمسة عبيد يساويون ثلاثة من البيض في حساب انتخابات الرئاسة
والتمثيل في الكونغرس ، فان توسيع شقة الرق سيؤدي الى تضخيم عدم
المساواة الجائر هذا ، بالنسبة الى الولايات الحرة . وقال : ان مبدأ الحكم
الذاتي مبدأ عدل وحق دائماً ، ولكنه لا ينطبق على تلك المسألة . بل
لعله يجب ان اقول ان تطبيقه العادل عليها يتوقف على ما اذا كان الزنجي
انساناً ام لا . فاذا لم يكن انساناً ، فلماذا يحق للآخر الذي يعتبر انساناً
ان يتصرف به كما يشاء في سبيل الحكم الذاتي ؟ اما اذا كان الزنجي انساناً ،
افليس بما يقوض اركان الحكم الذاتي ان نحرمه من حكم ذاته ؟ ان الحكم
الذاتي هو ان يحكم الرجل الابيض نفسه . اما اذا حكم نفسه وانساناً آخر ،
فهذا اكثر من الحكم الذاتي ، انه الاستبداد . واذا كان الزنجي انساناً ،
فان ديني يعلمني ان جميع الناس خلقوا متساويين ، وان لا حق لاحد
منهم في ان يستعبد الآخر ،

مافتي " لنكولن بيبث ويدقق ويحلل ، حتى استقر في نفسه ان الكفاح
في سبيل الحرية الانسانية انما هو ناحية واحدة من الصراع العالمي الدائم
بين الخير والشر . فقال ان الاستعباد من طبيعة الانسان الانانية ، وان
مقاومته كامنة في حبه للعدل . وان تلك المبادئ على طرفي نقيض ، فاذا
التقت وتصادمت ، فلا مفر من الآلام والتشنجات والصدمات . ومهما
حاول الانسان من اجراءات ونقض اتفاقات ومعاهدات ، وحتى التاريخ
القديم ، فلن يستطيع نقض الطبيعة البشرية . وسيظل قلبه ينبض بان
توسيع رفعة الرقيق شر ، وسيظل لسانه ينطق بما ينبض به قلبه . وكان
المسلك الشريف في رأيه ، هو العودة الى الايمان القديم بالمساواة بين البشر ،
كما جاء في وثيقة اعلان الاستقلال ، واعادة اتفاق ميسوري ، فيعود بذلك
الى الامة ايمانها وثقتها وشعورها بالاخاء . وفي سبيل ذلك يجب التعاون

بين الاحرار وانصار التحرير ومن اليهم . واهاب باعضاء حزبه قائلاً : ناصروا من ينصر الحق . . . اعضدوه ما دام محقاً ، واخذلوه اذا ما حاد . تضامنوا مع انصار التحرير لاسترداد اتفاق ميسوري ، واخذلوهم اذا حاولوا نقض قانون العبيد الهاربين ، فانكم بهذا تنصرون اعداء الانفصال في الجنوب وفي كلا الحالين تقفون في وسط السفينة وتضبطون توازنها . وفي كلا الحالين تكونون وطنيين ولاشيء اقل من ذلك . فاذا لم تثبتوا في موقفكم هذا ، بسبب فئة او اخرى ، فما اتمم بالاحرار ، ولا بالرجال ، ولا بالامير كين . . .

. . . .

اشتهر لنكولن بخطابه اللذين القاهما في بيوريا وسبرنغفيلد ، ولكن دوغلاس اعتبرهما من توافه الخطب المألوفة في قضية خامرة ، وفي انتخابات تشرين الاول ، خسر الديمقراطيون ٣١ مقعداً من مقاعد الكونغرس المخصصة لولايات بنسلفانيا واوهايو وانديانا ، واكتسح اللاأدريون ولاية نيوانغلند . وفي ولاية الينوي فاز الديمقراطيون باربعة من مقاعد الكونغرس التسعة . وتألف المجلس التشريعي الجديد فيها من ١١ ديمقراطياً و ٥٩ من معارضي مشروع نبراسكا من مختلف الاحزاب . وكان باستطاعة هؤلاء لو اتحدوا ان يفوزوا بمرشحهم لمجلس الشيوخ . وكان لنكولن ولوغان من اعضاء مجلس الولاية .

والقى لنكولن خطباً اخري في الينوي وخطب مرة في شيكاغو . فاحتل مكانة بارزة بفضل قوة عارضته وتزاهته واعتداله . وصار ينظر اليه كمرشح جدير باحتلال مكان شيلدز في مجلس الشيوخ . وما كان هو ليرفض مثل هذا المنصب ، كتب هيرندن فيما بعد يقول : « لقد اخطأ من كان يظن ان لنكولن كان يجلس ساكناً في انتظار ان يدعوه الناس . فان من ديدنه الحساب والتصميم مسبقاً . كان طموحه آلة لا تعرف الهدوء ،

ومن مميزاتة النشاط والترقب والسر . لقد نام في الفترة الواقعة بين الانتخابات العامة واجتماع مجلس الولاية ، ولكن مثل نابليون باحدى عينيه مفتوحة .

حاول دوغلاس والديمقراطيون في الينوي محاولتهم الاخيرة ، مع انهم كانوا اقلية في مجلس الولاية . كانوا يعلمون ان لا امل في انتخاب شيلدز ثانية لمجلس الشيوخ الاتحادي ، فاتخذوه مطية لمرشحهم الحقيقي الحاكم يوثيل ماتيسون ، وهو رجل ثري كثير الاتباع ، ظل على الحيداد في مشروع كنساس نبراسكا . وكان لنكولن بطل الاحرار بلا منازع ، وقد استقال من مجلس الولاية ، ايهق له ترشيح نفسه لمجلس الشيوخ . واذا به يصطدم بمنافس قوي في شخص المحامي لايمان ترامبول ، الذي شغل سابقا منصب وزير خارجية الولاية ومنصب قاضي محكمتها العليا ، وكان قد تزوج جوليا جان صديقة زوجة لنكولن . وفي الساعة الثالثة من ٨ شباط ١٨٥٥ عقد مجلسا الولاية ، الشيوخ والنواب جلسة مشتركة . واكتظت القاعة بالحضور ، وجلست السيدة لنكولن بالقرب من السيدة ماتيسون وبناتها . وجرى الاقتراع الاول ، فزال لنكولن ٤٤ صوتا ، وشيلدز ٤١ ، وترامبول ٥ ، وجرت خمسة اقتراعات اخرى دون اي تبدل يذكر . وفي الاقتراع السابع كشف الديمقراطيون عن لعبتهم ، اذ انتقلت اصوات شيلدز الى ماتيسون . وفي الاقتراع التالي هبطت اصوات لنكولن الى ١٥ ، وارتفعت اصوات ترامبول الى ٣٥ ، وزال ماتيسون ٤٧ ، وهي اقل من المطلوب باربعة اصوات ، وادرك لنكولن فشله وان ماتيسون يفوز في الاقتراع التالي ، فاوز الى من بقي من مؤيديه بان يقترعوا في جانب ترامبول ، ففاز بالااصوات الكافية لانتخابه وهكذا اخفق لنكولن ثانية ، بعد ان كان الى النجاح قاب قوسين او ادنى

•••••

عاد لنكولن الى مزاوله المهامة خمس سنوات اخرى ، ولكنه وجد ان عليه ان يكيف نفسه وفق تطورات الزمن والحياة . فقد ازدهر الغرب بما ادخل فيه من التطور الصناعي والزراعي وفي اسباب المواصلات والنقل ، فربطت خطوط البرق ساحل المحيط الهادي بمدن سبورنغفيلد وشيكاغو وسانت لويس ، وانشئت صناعات وتجارات جديدة ، واخذت البواخر الفخمة تمخر الانهار والبحيرات ، وتأثر القانون بتقدم العلم والاختراع كما تأثرت اساليب الحياة ، فاصبح اكثر تعقيداً ، يتطلب المزيد من مهارة المحامين ، ويدر عليهم ارباحا اكبر .

وامتدت شهرة لنكولن ، واتسع نطاق اعماله في مختلف المحاكم وفي مدينة شيكاغو ، فازدادت مرافعاته امام محكمة الولاية العليا . ومهما اتخذنا من مقياس له - سواء أعدد قضاياه واهميتها ، ام النسبة بين ما ربح وما خسر منها ، ام تقدير زملائه المحامين والقضاة الذين ظهر امامهم ، نجد انه كان في طبيعة المحامين المبرزين في ولاية امنازت بعدد وافر من ذوي المواهب القانونية والقضائية



الفصل التاسع غرة قسبية

لما عاد لنكولن الى مزاولة المحاماة بعد هزيمته عام ١٨٥٥ ، لم يقلب للسياسة ظهر المجن كما فعل قبلا ، فقد اصبح اهتمامه بها مرهفأ ، ومع ذلك لم يحرك ساكناً ، وحزبه يمضي بدهداً . حتى لقد كتب آنذاك الى افجوي يقول انه يخشى ان يأتي شيئاً لئلا يقع في خطأ .

قبل ان استعمرت مقاطعة كنساس ، كانت قد تألفت في ولاية ماتشوزتس منظمة باسم جمعية مساعدة المهاجرين ، لها غرضان ، استيطان كنساس من قبل اناس يعارضون الرق ، واستدراج الربح . وتألفت جمعيات اخرى بماثلة في الشمال . وشاعت الاخبار تبالغ في عظم هذه الحركة ، فلما بلغت ولاية ميسوري قام انصار الرق بتشكيل جمعيات مضادة . وكان الكثيرون من اهل تلك الولاية قد تسربوا الى كنساس عبر الحدود لادعاء ملكية بعض الاراضي فيها . وما ان وصل بعض النازحين من الشمال الى كنساس ، حتى نشطت في ميسوري جمعيات سرية ، من مثل جمعية المحفل الازرق ، والزمرة الاشتراكية ، وأبناء الجنوب النخ .

كان انصار الرق من النازحين الى كنساس يزيدون على انصار الحرية في بادىء الامر . ومع ذلك لم يطمئن اهل ميسوري ، فلما كان سيجري انتخاب موفد عن المقاطعة الجديدة الى الكونغرس ، اجتاز الحدود مئات

مهم ليرجعوا كفة مرشح انصار الرق . وتزايد مع الزمن نزوح الشماليين اليها ، غير عابئين بالتهديد والتخويف . وكان الحافز لمعظمهم امتلاك الارض ، دون ان ينافسهم عليها الزوج ، أأرقاء كانوا ام معتقين . لو كان استيطان كنساس قد جرى بسلام ، لكانت على الأرجح انضمت الى الاتحاد كولاية حرة ذات نزعة جنوبية معتدلة . وفي آذار ١٩٥٥ بلغ عدد سكان كنساس ٨٥٠٠ نسمة ، لم يكن بينهم من العبيد سوى ٢٤٢ ، وعين الحاكم اندراوس ريدر موعداً لانتخاب مجلس تشريعي لها . فرحف اهل ميسوري ثانية عليها ، ولكن هذه المرة بنشكيلات عسكرية مزودة بالمدافع والبنادق والاعلام ومؤونة غنية بالمشروبات . وبلغ مجموع اصوات الاقتراع ٦٣١٠ ، تبين لدى التحقيق ان ٤٩٠٨ منها كانت مزورة . وبعد شي من التعديل والحذف وافق الحاكم على صحة الانتخابات ، واعترفت الادارة بقانونية المجلس التشريعي . بيد ان أخصام الرقيق لم يزعموا ، فتحدوا ذلك المجلس الزائف ونظموا انفسهم في تشكيلات عسكرية . فلما اختار المجلس بلدة ليكمتون عاصمة للمنطقة ، وتبنى القانون المدني وقانون الجزاء النافذين في ميسوري ، ووضع أحكاماً تتهم بالحياة كل من انكر حق اقتناء العبيد ونحكم بالموت على من يساعد عبداً على الفرار ، انشأ الاحرار حكومة اخرى خاصة بهم . واصبحت الحالة تنذر بحرب اهلية لا ينقصها الا عود ثقب لتندلع . وكان لنكولان يوقب بفزع تطور الحالة في كنساس ، وكتب الى جورج روبرتسون استاذ الحقوق في جامعة ترانسلفانيا في كنتيكي يقول : هل نستطيع كأمة ان نظل على هذا الى الابد - نصفها مع الرقيق ونصفها مع التحرير ؟ انها مشكلة لا قبل لي بها . . . ألا فليشرف الله برحمته على حلها .

وكتب الى سييد يقول : لا ادري موقفي من الاحزاب . اعتقد اني من الاحرار ، ويقول غيري ان لا وجود للاحرار وانى من انصار العاء

الرفيق . اتي الآن إنما اقـاوم امتداد الرفيق . واست من اللأدرين بالتأ كيد ، بل كيف يمكن لانسان يمقت اضطهاد الزوج ، ان يجبذ انحطاط طبقات من البيض . اني اري اننا نمضي سريعاً الى الانحطاط . لقد بدانا كأمة باعلان ان الناس يخلقون متساويين ، فاذا بنا نقرأه هكذا: جميع الناس يخلقون متساويين ، ماعدا الزوج . واذا ما سيطر اللأدريون ، فستقرأه هكذا : جميع الناس يخلقون متساويين ، ماعدا الزوج والاجانب والكاثوليك . فاذا ما وقع هذا ، فسأفضل الرحيل الى بلد لا يدعى حب الحرية زوراً وبهتاناً ، الى روسيا مثلاً ، حيث يتجرع المرء الاستبداد صرفاً غير مزوج بشوائب الرياء الخسيس . »

. . . .

ما ان حل عام ١٨٥٦ ، وهو عام انتخابات الرئاسة ، حتى كان لنكولان قد تهباً لترجمة افكاره الى اعمال . ففي ٢٢ شباط بينما اجتمع زعماء الحزب الجمهوري في بتسبورغ لترتيب عقد اول مؤتمر عام للحزب ، سافر لنكولان بالقطار الى بلدة ديكاتور حيث كانت جماعة من الصحافيين المناوئين لمشروع نبراسكا ، تحاول تنظيم الولاية استعداداً للانتخابات المقبلة . وكان بينهم عدد من الصحافيين الجمهوريين . وكان يقصد الى التعاون معهم في سبيل توحيد العناصر المناوئة لمشروع نبراسكا في ولاية الينوي . وكان لا بد من اصطناع الاعتدال في ذلك . فعذف الاقوال النابية المتطرفة . من النداء الذي اصدروه ودعوا فيه الى مؤتمر للولاية ضد مشروع نبراسكا يعقد في بلدة بلومنتون في ٢٩ ايار . وبينما الاستعدادات قائمة لعقد المؤتمر ، طلعت البرقيات والصحف على الناس بانباء اعتداءات جديدة في كنساس . لقد اقتحم بعض الرعاع بلدة لورنس التي جعلها انصار التحرير عاصمة للولاية ، واحرقوا فندقها الذي كانت بناؤه اشبه بالحصن منه بالفندق ، وخربوا مطابع جريدتها ، ونهبوا منازل اهلها .

وانعقد المؤتمر في قاعة ماجور قرب ساحة المحكمة ، وكان البرنامج متفقاً مع آراء لنكولان ، الذي كان له تأثير في اختيار ولیم بیدسل الجمهوري المناوئ لمشروع نبراسكا ، كمرشح لمنصب الحاكم ، وفي اختيار بقية المرشحين . وبدأت الخطب ودعي لنكولان الى الكلام . وكان ادرى بمقتضيات الساعة ، وهي دمج الاحزاب المتناوثة في حزب قوي موحد . فكان يغلي كالنار في داخله ، رغم مظهره الهادئ . وجمد الجمهور وكان على رؤوسهم الطير ، حتى ذهل المخبرون عن الكتابة ، ففاتهم الكثير من مقاطع خطابه الرائع . فلما انتهى ارتج المكان بالتصفيق والتهتاف . وهكذا انبعث الحزب الجمهوري من جديد في الينوي ، مع ان لنكولان وغيره من الوفود ظلوا يستنكفون من استعمال ذلك الاسم ، ولعل ذلك بسبب منشأه المتطرف .

.

ما مضى على مؤتمر بلومنتون خمسة ايام ، حتى عقد الديمقراطيون اول مؤتمر لهم في الغرب ، في مدينة سمناتي ، واعلنوا ان قانون كنساس نبراسكا يتضمن الحل المعقول الوحيد لقضية الرقيق ، وان ذلك هو مبدأ الحزب الرسمي . ورشحوا لرئاسة الجمهورية جيمس بكنان من بنسلفانيا ، الذي كان وزيراً مفوضاً في انكاترا خلال الخلاف الذي كان ثاراً بين مختلف الاحزاب .

واجتمع الجمهوريون ثانية في فيلادلفيا في ١٧ حزيران ، وبينهم نفس العناصر التي كانت في مؤتمر بلومنتون . الا ان المتطرفين امثال غيدنز ولفجوي ، كانوا اشد تأثيراً في هذا الاجتماع ، فأقر المؤتمر انهم الديمقراطيين بما حدث في كنساس من غش وارهاب ، ووصم الرقيق باثر من آثار البربرية ، ووجوب الحيلولة دون انتشاره . واختاروا جـون فريمونت من كاليفورنيا على رأس قائمة مرشحيهم . مع ان لنكولان وغيره

من وفود الينوي كانوا يريدون رجلا من المحافظين يجتذب قدماء اعضاء حزب الاحرار ، وفضلوا القاضي جون ما كاين عضو محكمة الاتحاد العليا . وعند الاقتراع على نائب الرئيس ، رشح وفد الينوي لنكولن ، فحصل على ١١٠ اصوات في الاقتراع الاول . ولكنه لم يكن قد نال من ذبوع الصيت ما يكفي لتأييده ، فانحازت الاصوات في الاقتراح الثاني الى جانب وايم دايتون من نيوجرسي . وانشق اللاداريون على انفسهم ، اذ انفصلت جماعة من الشماليين المناوئين لمشروع نبراسكا وانحازت الى جانب فريمونت ورشح الاعضاء الباقون الرئيس السابق ميلارد فيلمور ، واندر اوس دونلسون . وبدأ اللاداريون يضمحلون كحزب .

.

على رغم لنكولن كان يفضل ترشيح القاضي ما كاين ، فقد اندفع قلباً وقالباً في كاييد فريموت والدعوة له . فطاف انحاء الولاية مدة ثلاثة اشهر ،لقى خلالها اكثر من خمسين خطبة . وكانت الحملة الانتخابية حامية الوطيس كثرت فيها الاجتماعات والمواكب والاستعراضات والالاعاب النارية . ولكن كان يسري في النفوس تيار خفي من الجمد والشعور بان نتائج المعركة ستكون خطيرة للامة باسرها . ومما زاد الغليان ، ما توارد من من كنساس من شائعات مفضعة . فانه على رغم ما وقع فيها من محرمات الى ذلك الحين ، لم تزهق ارواح كثيرة . اما الآن فقد اخذ شبح القتل والاغتيال يسترق الخطى محاذراً . ولم يكن ظهوره نتيجة الخلاف حول الرقيق فقط ، بل للاضطراب العادي ايضا والطمع في امتلاك الاراضي . كان موقف الفتنة رجلا يدعى جون براون من متهموسي الغاء الرقيق ، مشكوكا في سلامة عقله . وفي احدى المناوشات قتل هو وابناؤه خمسة رجال غير مسلحين . وقام انصار الرقيق باخذ النار . فاجتاح كنساس دور من الارهاب ، احترقت فيه المزروعات ، ونهبت المواشي ، وكمن

الرجال يتصيد بعضهم بعضاً في حرب عصابات . وأجج صحافيوا الاحزاب أوار تلك القلاقل ، نبعثوا براسلهم الذين اخذوا يهولون ويبالغون في اخبارهم ، بينما دبج المحررون افتتاحيات نارية ، مما جعل الحرب الكلامية افطع بكثير من حرب العصابات الفعلية .

واستغل السيو سيون المهيجون ذلك الموقف . ولكن لنكولن لم يسف مثلهم ، وكان كل همه ان يستميل انصار المرشح فيهور الى جانب فريمونت باقناعهم بان الاول فاشل لا محالة . ولم تكن مهمته سهلة . فقد ندد الديموقراطيون بالجمهوريين ووصفوهم بالحزب الاقليمي الضالع مع للشمال وهدد غلاة الجنوب بالانسحاب من الاتحاد اذا فاز فريمونت . وكان هؤلاء لا يعبرون عن رأي اغلبية الجنوبيين ، التي ظلت موالية للاتحاد . ولكن لما صرخ جيمس ماسون قائلاً ان جواب الجنوبيين على انتخاب فريمونت يجب ان يكون الانفصال الفوري التام الابدى ، ولما اقترح هنري وايز حاكم فرجينيا دعوة حكام ولايات الجنوب الى مؤتمر فوق العادة ، بدأ محبو السلام يوجسون خيفة من شر العواقب . وطفق لنكولن يدفع التهم عن الحزب ، ويهدى الخواطر قائلاً في احدى خطبه : اننا لا نريد حل الاتحاد . فاذا حاولتم ذلك ، فلن ندعم تفعلونه ولن تستطيعونه مادام السيف والمال ، الجيش والبحرية والخزينة في ايدينا وتحت امرتنا . وما هذا الحديث عن الانفصال الا هراء وسخف . »

وفي مذكرة كتبها لنكولن وكان يستعين بها في خطبه ، اشار الى الحل الحاسم بين الحرب والسلم ، مع انه لم يكن يتوقع بعد ، نشوب مسلحة . قال فيها لو سلمنا جدلاً بان الرقيق هو موضوع الخلاف بين الشمال والجنوب فكيف السبيل الى حسمه ؟ لا سبيل الا اذعان احد الطرفين . فايها يدعن ؟ ليس لهذا سوى جواب واحد - الطرف الذي اخطأ ادبياً ، فلا يجوز ان يدعن الصواب للخطأ . » ولم يكن لومه للجنوب اشد من لومه للشمال . فالرقيق كان

في نظره شراً قومياً ، والاعتراف القومي باللائم يفتح الباب لحل طويل المدى يرضى به الشمال والجنوب . وما لم يتم الاعتراف هذا ، فلا مفر من توقع الحرب

♦ ♦ ♦

تبين في اواخر الصيف ان بكنان سيكتسح الجنوب ، وان فريمونت سيفوز في نيو إنغلند ونيويورك . وظلت ولايات بنسلفانيا وانديانا والينوي تتارجح بين بين . فهرع دوغلاس لكسب الينوي الى جانب الديمقراطيين . وكتب بعد جهاد اسابيع ، يقول لبكنان ان جهوده كلت بالنجاح . وأكدت النتائج تكهنه هذا ، فربح بكنان ولاية الينوي وكذلك بنسلفانيا وانديانا ونيوجرسي . وربح فريمونت بقية الولايات الشمالية . وكانت النتيجة النهائية ١٧٤ صوتا لبكنان ، و ١١٤ لفريموث و ٨ لفيلمور . وفاز الجمهوريون ماغلب مناصب الولاية في الينوي ، ولكن الديمقراطيين استردوا سيطرتهم على المجلس التشريعي فيها . وقد ابدى الجمهوريون نفوذاً كبيراً في الشمال ، بماحدا بلنكولن الى ان يشير في احدي خطبه في شيكاغو الى ان الاصوات الشعبية التي ربحها بكنان كانت ٤٠٠٠٠٠ وهي اقل من مجموع ماربجه فيلمور وفريمونت معاً ، ويطلب توحيد الجهود عام ١٨٦٠ ، لاسيما وأن اللادريين لم يعد لهم كيان كحزب وقد وصفهم احد الناس بقوله : لقد نبتوا من التربة المظلمة ، وتسلقوا كالجراد جذوع الاشجار ، فالتهموا خضرتها في حلك الليل ، ودمدموا وصلصلوا ، ثم تفرقوا وقضوا .

اما لنكولن فقد سار قدماً بخطى واسعة خلال العامين ، حتى اصبح الجمهوري الاول في الينوي ، وذاع اسمه في الولاية المجاورة ، فدعي للخطابة في اثناء الحملة في وسكونس وايوا وانديانا وعرفه آلاف الناس لاسيما بعد ان رشح لنيابة الرئاسة في اجتماع فيلادلفيا . ولكنه خارج الينوي ظل مجرد اسم فقط لا اكثر ولا اقل .

الفصل العاشر

هزميته في انتخابات مجلس الشيوخ

عندما اقترب موعد تنصيب الرئيس بكنان في ٤ آذار ١٨٥٧ ، كان حاكم بنسلفانيا القوي جون جيرى ، بمساعدة جيش الاتحاد ، قد قمع الاضطرابات في كنساس . ونعمت البلاد ببعض الهدوء . ورأى الرئيس الجديد ان مهمته هي توحيد وتنشيط الحزب الديمقراطي ، لمقابلة تحديات الحزب الجمهوري الفتى . الا ان السيادة الشعبية التي كانت مبدأ حزبه ، كانت في ذاتها مثار الشقاق فكان الديمقراطيون الشماليون يعتقدون مبدأ دوغلاس ، بان من حق المهاجرين الاولين في اية منطقة ، بواسطة مجلسهم التشريعي ، ان يصطنعوا الرقيق او يحرموه كما يشاؤون . بينما اصر الجنوبيون على ان لا الكونغرس ولا اي مجلس تشريعي يحق له تحريم الرقيق في منطقة ما . فذلك من حق شعب الولاية ، بعد ان يكونوا قد نضجوا ووضعوا دستور ولايتهم . وطلب الفريقان من الرئيس ان يدلي ببيان في ذلك الصدد في خطاب تنصيبه . وود هو لو أمكنه تجنب ذلك ، حرصاً على وحدة الحزب ، مع انه كان يميل الى رأي الجنوب .

واتفق ان هذا الموضوع كان تحت البحث من قبل محكمة الاتحاد العليا ، اذ كانت تنظر في قضية رفعها اليها العبد ديد سكوت ، مطالباً بحريته بناء على انه نقل الى منطقة كان الرق محرماً فيها بموجب اتفاق ميسوري .

وعلم الرئيس بان المحكمة توشك ان تصدر حكمها بشأن سلطة الكونغرس ومجالس الولايات التشريعية على الرقيق ، فاكتفى بان قال في خطاب تنصيبه ان المسألة اصبحت لحسن الحظ غير ذات اهمية فعلية ، لان المحكمة ستبت فيها قريباً . وانه كمواطن صالح سيدعن لقرارها .

وقف قاضي القضاة روجو ثاني في اليوم الثالث بعد تنصيب الرئيس ، ليتلو الحكم في القاعة الغاصة بالحضور ، وكان قد اتخذ باغلبية خمسة اعضاء مقابل اربعة . فبدأ بمقدمة تاريخية بين فيها انه بينما اصاب الزوج قسطاً وافراً من تحسن اوضاعهم مؤخراً ، فانه كان ينظر اليهم عند وضع الدستور وقبله كخلائق وضيعة ليس لها من الحقوق ما يجب على الرجل الابيض ان يحترمه . وان فقرة الدستور الفائلة بان جميع الناس يخلقون احراراً ما كان معناها ليشمل الزوج ، ولا كان الدستور يعترف لهم بوضع او مكانة ، انهم لم يكونوا من مواطني اية دولة ، فهم اذن ليسوا من رعايا الولايات المتحدة . ولما كان المدعي سكوت ليس مواطناً ، فلا حق له في المقاضاة امام محكمة الاتحاد ، ويجب رد الدعوى .

كان في وسع قاضي القضاة ان يقف عند ذلك الحد . ولكنه كان يتوقع ان يتكلم احد القضاة الذين اقترحوا ضد الحكم . فمضى يقول ان اتفاق ميسوري كان باطلاً . فلا سلطة للكونغرس على المقاطعات سوى اعدادها لتصبح ولايات . وعليه ان يعمل ضمن نطاق الدستور الذي خول المواطنين حق التملك . ولما كان العبيد من المقتنيات ، فلا حق للكونغرس في منعهم عن اية مقاطعة ، وما دام لا حق له في تحريم الرق فيتبع ان لا حق كذلك لاي مجلس تشريعي قائم في اية ولاية او مقاطعة بناء على قانون من الكونغرس لقد فتح هذا القرار البلاد باسرها للرق . فتارت نائرة الجمهوريين ، اذ قوض الاساس الذي يقوم عليه مبدأهم ، فكيف يمكن صد انتشار الرقيق؟ واعتبر اهل الشمال ذلك القرار مؤامرة لجعل الرق امراً مشروعاً في جميع

البلاد . كما ان القرار ازعج دوغلاس والديمقراطيين الشماليين فما هو مصير
السيادة الشعبية التي يدعون بها ، مادام ليس في وسع الشعب ان يمنع الرق
عن منطقتهم . فتظل السيادة الشعبية . معطلة الى ان تبلغ المنطقة مرحلة الولاية .
بيد ان دوغلاس عاد فعدل آراءه لتتفق مع قرار المحكمة العليا .
فخطب في سبرنغفيلد بمتدح المحكمة لانها اعتبرت اتفاق ميسوري غير
دستوري ، فاقرت قيامه هو بالغائه سابقاً ، وزعم ان القرار لا يتعارض
مع السيادة الشعبية . ووافق قاضي القضاة على ان موقعي وثيقة اعلان
الاستقلال لم يقصدوا ان المساواة الواردة فيه تشمل الزوج . واءترض
على رأي لنكولن في المساواة قائلاً انها ستنتهي الى المساواة التامة سياسياً
 واجتماعياً ، بحيث يصح التزاوج بين البيض والسود ، وسلم بان للزوج
بعض الحقوق ، ولكن هذه يجب ان يقررها الرجل الابيض حسب ظروف
كل منطقة وحسب كثافة الزوج فيها ، لا ان تكون شاملة التطبيق كما
يريدونها لنكولن . ورد عليه لنكولن في خطاب القاها في سبرنغفيلد ، قال
فيه انه لا يؤيد الذين يقاومون قرار المحكمة العليا ، بل يجب احترام المحكمة
وطاعتها . الا ان القرار كان خاطئاً ، وقد سبق للمحكمة ان تراجع
عن قرارها ، وسيدخل الجمهوريون ما في وسعهم لكي تراجع هذه المرة
ايضاً . ولكنهم لن يلبجأوا الى مقاومتها في الوقت الحاضر ، ودافع عن
رأيه في وثيقة اعلان الاستقلال ، وقال ان الآباء لم يقصدوا فعلاً الى ان
الجميع متساوون من جميع الوجوه . وانما ارادوا وضع قاعدة قياسية
للمجتمع الحر ، يألفها الجميع ويحترمها الجميع ، تكون هدفاً يسعى اليه
ويجدون في تحقيقه ما امكنهم ، واذا لم يبلغوه تماماً ، فيظل تأثيره يمتد
ويعمق ، يعزز سعادة الحياة وقيمتها لجميع الشعوب من مختلف الالوان
في كل مكان . وسفه منطق دوغلاس الذي زعم ان الجمهوريين يقولون
بالمساواة العرفية التامة . فاذا كان لنكولن لا يريد ان يقتني زنجية كعبدة

فلا يعني ذلك انه يريد ان يجعلها زوجة له . واستطرد يقول : انها فعلا ليست مساوية لي من بعض الوجوه . ولكن حقها الطبيعي في ان تاكل الحبز الذي كسبته بعرق جبينها دون استئذان اي شخص آخر ، يجعلها مساوية لي ولكل واحد غيري .

وكان ذلك العام (١٨٥٧) خالياً من الحركات السياسية في الينوي . ولكن لنكولن كان ينظر الى المستقبل ، فرأى ان يرشح نفسه لعضوية الكونغرس كمزاحم لدوغلاس ، لكي يقضى عليه وعلى المبادئ الخاطئة التي يمثلها . بيد ان الحوادث دارت عليه ، وتدخلت قضية كنساس ثانية في خطته ، واختلطت الحالة السياسية حتى كاد يبدو ان دوغلاس لا لنكولن هو حامل علم الجمهوريين في الينوي .

• • • • •

في ١٥ حزيران ١٨٥٧ جرى في كنساس انتخاب ممثلين عن الشعب لوضع دستور الولاية . وكان في وسع انصار التحرير ان يفوزوا بسهولة ولكنهم ارتابوا في حسن نية المجلس التشريعي الذي دعا الى اجراء الانتخاب ، فلم يعترفوا به وامتنعوا عن تسجيل اسمائهم . وهكذا استقل انصار الرقيق بانتخاب جميع الممثلين . وكان الرئيس بكنان قد وعد بعرض الدستور الجديد على الاهالي للاقتراع عليه . ولكن انصار الرقيق في وشنطون وفي كنساس ، لما رأوا انهم استاثروا بالموتمر الذي سيضع الدستور لكنساس ، طمعوا في استغلال الموقف الى اقصى حد . فلما اجتمع الممثلون ، وضعوا في الدستور مادة في صالح الرقيق ، وقرروا عرضها وحدها على الشعب ، لا عرض الدستور برمته كما وعد بكنان .

وضعف الرئيس تحت ضغط الجنوبيين ، فبرر اذعانه لهم بان عرض المادة على الاهالي يكفي لأن يعتبر براً بوعده ، وكان قد سئم الموضوع ، ولا بد ان الشعب سئم ايضاً ، فايد قرار الممثلين في كنساس في ، رسالته

السنوية التي كان بعدها ، و ابرق اليهم بذلك ، دون استشارة دوغلاس الذي كان رئيس لجنة المقاطعات في الكونغرس ، ومسؤولاً بصفته هذه عن سياسة الحزب . واسرع دوغلاس الى القصر الابيض في واشنطن ، واصطدم مع الرئيس في نقاش حاد . ولكن هذا كان قد ائتمز إنهاء قضية كنساس وجعل سياسة فيها محكاً لولاء الحزب ، فهدد باقصاء دوغلاس اذا عصى . وأضمر دوغلاس تحطيم الرئيس اذا حاول ذلك . وكان بكنان يملك سلطة قوية باعتباره رئيس الحزب . بيد ان دوغلاس كان قويا ايضاً . وكان اقوى مزاحم لبكنان على الرئاسة في الانتخابات السابقة ، ولكنه سحب اسمه من القائمة ليظفر بكنان بالفوز . ولكن بكنان لم يكافئه بما يستحق من الرعاية ، لانه كان يغار من قوة نفوذه في الحزب . فثار الغل المكبوت في الصدور ، وتأجج ناراً لاهبة تنذر بمركة بينها حتى الموت .

• • • •

رفض الاحرار في كنساس الاشتراك في الاستفتاء العام حول الدستور فأقرت مادة الرقيق باكثرية ساحقة . واككنهم عادوا بعد اسبوعين ، فاشتركوا في الاقتراع على موظفي الولاية واعضاء مجلسها التشريعي ، ففاز اكثر مرشحيهم . ثم نحدوا القانون ، فاقترحوا على الدستور الجديد واسقطوه باغلبية عشرة آلاف صوت . ولما طلبت كنساس اعتباره حاول الرئيس اقتناع الكونغرس بشرعية الطلب لكونه يعبر عن ارادة الاهالي ، وبذل اقصى جهده لاجازته . وهب دوغلاس يعارض قائلاً انها خديعة هازلة بالسيادة الشعبية . وخطب في الكونغرس يقول : اذا حاولوا صب ذلك الدستور في حلوقنا قهراً ، فسأظل اقاومه الى النهاية لن احيد عن مبدأ السيادة الشعبية الذي يخول الشعب الحق في ان يكون مطلق الحرية في تنظيم مؤسساته الداخلية كما يشاء ، وسأحميه من كل اعتداء يقع عليه من اية جهة .

وانقسم الحزب الديمقراطي . وانحاز دوغلاس الى جانب الجمهوريين في الكونغرس ، واغرق في مهاجمة الحكومة ، الى حد ان فكر بعض زعماء الجمهوريين بوجود تايد ترشيحه للدورة القادمة .
ولما عجز بكنان عن تنفيذ برنامجه ، اضطر الى ان يستر وجهه بالموافقة على مشروع قانون يعرف بالمشروع الانكليزي . وهو ينص على قبول كنساس فوراً كولاية ، اذا اقترح الاهالي بالموافقة على الدستور بما فيه مادة الرقيق ، وعلى ان يرجأ قبولها الى ان يبلغ سكانها الرقم المقرر - اي نحو ٩٣,٠٠٠ (وكان سكانها اذ ذاك ٣٥,٠٠٠) اذا رفضوه . واجيز المشروع واصبح قانوناً رغم محاولات دوغلاس لعرقلته . فما كان من اهالي كنساس الا ان رفضوا الدستور رفضاً باتاً .

• • • •

كان لنكولن يرى في حركة دوغلاس ، لا تهديداً لترشيحه فقط ، بل تهديداً لوحدة الحزب الجمهوري ايضاً . كان يقول في رسائله لزعماء حزبه : ماذا في عمل دوغلاس مع الجمهوريين في قضية دستور كنساس ؟ انه لا يزال اول داعية لمبدأ السيادة الشعبية ، ومؤيداً لقرار المحكمة العليا في قضية الزنجي دريد سكوث ، وكلاهما بغيض لدى الجمهوريين . إن كلا من بكنان ودوغلاس مخطىء ، فان كان بكنان أبعدهما خطأ ، فما شأن الجمهوريين في تايد دوغلاس ؟ ان في ذلك التايد تفريطاً في مبادئ الحزب الاساسية .

في اوائل الصيف عقد ٩٥ مؤتمراً محلياً للجمهوريين في افضية ولاية الينوي ، واختارت لنكولن كمرشح لعضوية الكونغرس . والتأم مؤتمر الولاية ، فاتخذ بالاجماع قراراً يندد بالميل الى دوغلاس ، ويعلن ان ابراهيم لنكولن هو مرشح الجمهوريين الوحيد لعضوية الكونغرس خلفاً لدوغلاس ولم يعتبر هذا الاجماع تسمية بالمعنى القانوني . فقد كان اعضاء الكونغرس

ينتخبون من قبل مجلس الولايات التشريعي ، وتم تسميتهم في اجتماع تمهيدي لاعضاء الحزب في المجلس . بيد ان ذلك الاجماع الحزبي قد ضمن تسمية لنكولن .

• • •

كان لنكولن يتوقع تأييد المؤتمر له ، فاعد خطابا يتلوه فيه . وقد حذره بعض من اطاعهم عليه قبل تلاوته بما فيه من بعض الغلو . ولكن من دأبه ان يعتمد على رأيه الشخصي ، فتلاه كما كان مكتوبا . بدأ بقوله : اذا عرفنا اولاً اين نحن والى اين نتجه ، استطعنا بعد ذلك ان نقرر ماذا نفعل وكيف نفعله . اننا في السنة الخامسة من وضع سياسة الحزب التي تعهدنا فيها وضع حد للاضطراب حول الرقيق . وها نحن اليوم ، والاضطراب لم ينته ، وانما ازداد وتفاقم . وفي رأبي انه لن ينتهي حتى يبلغ ازمة ويجتازها . ان البيت المنقسم على نفسه لا يثبت ، ويقيني ان هذه الحكومة لن تظل الى الابد نصفها مع الرقيق ونصفها ضده . وستصبح برمتها إما هذا واما ذلك . فاما ان يبطل انصار التعريم انتشار الرقيق ، ويجعلوه في وضع يساعد على اضمحلاله في النهاية ، وإما ان يعمل انصار الرقيق على امتداده الى ان يصبح شرعياً في جميع الولايات ، قديماً وجديداً ، شمالياً وجنوبياً . »

ثم اتى على ذكر التقدم الذي حققه الرقيق في السنوات الاربع الاخيرة . وقال انه لم يكن يؤمن بوجود مؤامرة ، الا انه اصبح يميل الى الاعتقاد بذلك ، بعد ان تبين له احكام الحطة ، ابتداء من إلغاء دوغلاس لاتفاق ميسوري ، الى نداءات بيرس وبكنان التي ناشدا فيها الناس قبول قرار المحكمة العليا بشأن سلطة الكونغرس على الرقيق في المناطق ، الى قرار قاضي القضاة . واستطرد يقول : لاندرى اذا كانت هذه كلها قد دبرت باتفاق مسبق . ولبكننا اذا رأينا امامنا هيكلا خشبياً



ابراهام لنكولن . التقطت ايام المجادلات الكبرى عام ١٨٥٨



منزل لنكولن . التقطت هذه الصورة عام ١٨٦٠ عندما كان لنكولن
مرشحاً للرئاسة . ويشاهدهو على عتبة البيت مرتدياً بزة بيضاء



الواجهة الغربية للكابيتول - مقر الكونغرس - في واشنطن

مؤلفاً من قطع عديدة أعدت في اوقات مختلفة وفي اماكن مختلفة وبايد مختلفة ، وقد ضمت الى بعضها ، ووضع كل في موضعه باحكام ودقة في القياس دون زيادة او نقصان - فمن العسير في مثل هذه الحالة ان لا نعتقد بان اسطفان وفرنكلير وروجر وجيمس كانوا على تفاهم منذ البداية فعملوا وفق خطة مرسومة . ثم قال انه لا ينقص ذلك التركيب سوى قرار آخر من المحكمة العليا يعلن ان الدستور لا يبيح لأية ولاية ان تحرم الرقيق في اراضيها . و اضاف متشائماً : ان قراراً كهذا محتمل قريباً ، شئنا ام ابينا ، الا اذا قضي على سلطة هذه الدولة السياسية الحاضرة .

كان لنكولن قد ضمن تأييد زعماء الحزب في ولايته ، ولكنه كان يخشى تأثير دوغلاس على سائر الاعضاء . فخصص الجزء الاخير من خطابه لابرار عدم صلاحية دوغلاس لقيادة الحملة على الرقيق . وقال في الختام ان دوغلاس رجل عظيم - انه اسد ، الا انه في هذه القضية اسد محبوس في قفص ولا انياب له ، وان كلباً حياً خيراً من اسد ميت وحث على الثبات ، وعلى العهدة بالمبدأ الجمهوري الى انصاره ، وعندها يتحقق النصر عاجلاً ام آجلاً .

كان ذلك الخطاب من اهم خطبه التاريخية ولكنه على الاجمال لم يكن حكماً ولا عادلاً . وقد اظهره ، كما حذر اصدقائه ، كرجل متطرف ، بينما كان هو في الواقع من المحافظين ، وقد خالف الواقع في اسارته الى وجود مؤامرة لنشر الرقيق . كما لم يكن منصفاً لدوغلاس في إيجائه بان مبدأه في السيادة الشعبية كان ينطوي على مساعدة نشر الرقيق ولكننا انما نحكم عليه على ضوء ما ادر كناه في هذا العصر . اما هو في عصره فقد تراءى له الرقيق كأمر أحكمت خططه وتمذرت مقاومته .

• • •

لما سمع الشيخ دوغلاس وهو في واشنطن بتسمية لنكولن ، قال :

متكون مهوتي في منافسته صعبة . انه اقوى رجل في حزبه ، و افضل خطيب في الغرب ، لسرعة خاطره وإلمامه بكافة الحقائق والتواريخ : ، ولكن دوغلاس كان فد حبيب نفسه الى جميع الناخبين في دائرة الانتخابية فلما افتتح حملته بخطاب القاه في شيكاغو في ٨ تموز ١٨٥٨ ، استقبل بمظاهرة شعبية عاصفة . وجاء لنكولن لسمع الخطبة . ثم خطب لنكولن في الليلة التالية هناك ، وقد قدر الجمهور بقوله انه كان بعدد الذين حضروا خطبة دوغلاس ولكنه خمسة أضعافه حماسة .

وبدأت الحملة . فسار دوغلاس بجوب انحاء الولاية ، وفي اثره لنكولن لان خطة لجنة حزبه المركزية قضت بتتبع خطوات دوغلاس والرد عليه كلما امكن ، استقلالا لاجموع التي كان يجتذبا : سافر دوغلاس في عربة خاصة من عربات القطار ، مزينة بالاعلام والشارات ؛ وصحبته زوجته الحسنة وكتبته وحاشية من الاتباع والخدم . وقد ألحق بعربته عربة مكشوفة فيها مدفع نحاسي بحرسه اثنان في لباس شبه عسكري . وكما اقترب القطار من بلدة ، أطلق المدفع انذاراً بقدومه . وكثيراً ما ركب لنكولن نفس القطار كراكب عادي . وقد اصفى الى دوغلاس في بلومنتون وهو يعيد نفس الخطاب الذي القاه في شيكاغو ، وفي سبرنغفيلد تكلم دوغلاس بعد الظهر ، فرد عليه لنكولن في المساء . وسخرت صحف دوغلاس من لنكولن لافتقائه اثر دوغلاس ؛ قائلة انه لا سبيل له لاجتذاب المستمعين الا بهذه الخطة ، ينصح له انصاره بان يتعهدى دوغلاس باستدعائه الى سلسلة من المحاورات . ولم ير الشيخ دوغلاس جدوى في ذلك ، فقد اعلن برنامج رحلته مسبقاً ، والاجتماعات الثنائية لا تخدم الا لنكولن اذ تعطيه نصيباً من الشهرة التي احرزها . ولم يسعه الرفض فوافق على ملاقاته لنكولن في الدوائر التي لم يسبق لهما ان خطبا فيها . ولم تكن الاجتماعات الثنائية كل ما قاما به في تلك الحملة ، بل كان

منها يخطب في الجماهير المحتشدة في العراء تقريباً يومياً طيلة اربعة شهور ،
وينتقل من مكان الى آخر بالقطار والسفن النهرية وعلى ظهر الخيل ،
غير عابئ برداءة الطعام والمقام في الارياف ، حتى يبع صوت دوغلاس ،
بينما ظل صوت لنكولن قويا مدويا . والتهب الريف بمماسة ، فيحضر المحاورة
الاولى في بلدة اوتاوا عشرة آلاف ، ومكثوا ثلاث ساعات تحت الشمس
المحرقة . واصفى ١٥ الفاً الى المحاورة في بلدة فريبورث في جو ماطر بارد
وكان الحضور لا يقل عن خمسة او ستة آلاف في القرى الصغرى حيث
تكلم احد المتنافسين منفرداً . وكنت ترى العتير يثور على الطرقات
الجافة ، فتعلم ان الفلاحين مقبلون في عرباتهم وكراتهم وعلى خيلهم
واقدامهم لسماع الخطب والمناظرات

وانهم دوغلاس منافسة لنكولن بانه من انصار الغاء الرقيق ، في سبيل
اثارة الخصومات الدفينة بين اعضاء الحزب الجمهوري ، واستهالة المحافظين
منهم ، مع العلم ان لنكولن كان قد ابتعد عن انصار الالغاء عام ١٨٥٤ ،
ولم ينضم الى الجمهوريين عام ١٨٥٦ الا بعد كثير من التردد وظل
دوغلاس يردد تلك التهم ، مع انه كان من السهل دحضها ، حتى ضاق
لنكولن بها ذرعاً . وحاد في كيفية الرد على ذلك الافتراء المتكرر . وقد
اصر هو ايضاً على الاشارة الى المؤامرة المزعومة بين دوغلاس وبيرس
وبكنان وثاني ، رغم تكذيب دوغلاس لها ، وظل ينكهن بصدور
قرار آخر من المحكمة العليا في صالح الرق ، ويعلم ان ما من ولاية
تستطيع طرد الرقيق من اراضيها ما دام الديمقراطيون في الحكم ، وان
دوغلاس بتصرفه اللامبالي كان يهيب "الرأي العام" لقبول مثل ذلك القرار
اما دوغلاس فكان يسخر من تلك الفكرة ، ودعاها مهانة للعقل البشري ،
واستنكف من الرد عليها وظل يندد باشارة لنكولن الى البيت المنقسم
على نفسه ، ونعتها بمعمل الهدم الذي يقوض اسس الحكم الاميريكي ، ويجرض

على حرب اهليه ، فلهذا توحيد زي المؤسسات الداخلة المحلية ، ولماذا لا نضون الحكومة كما وضعها آباؤنا ، بعضها بصطنع الرق وبعضها بجرمه؟ ورد عليه لنكولن بقوله ان دوغلاس يشعره الحقائق ، فان الآباء لم يقصدوا الى جعل نصف الامة احراراً ونصفها الآخر مسترقين . بل ادركوا وجود حالة من الرق ، فاتخذوا من الاجراءات ما يحول دون انتشاره والانتفاء به الى الاضمحلال ، وهو عين ما يبتغيه لنكولن .

ولم ينفك دوغلاس عن ارهاق خصمه بالاشارة الى اعتناقه مبدأ المادة بين السود والبيض ، حتى ان لنكولن لم يسعه في احدي المناظرات الا ان يعلن : لم اكن يوماً من مجندي المساواة السياسية والاجتماعية بين السود والبيض ، وما كنت يوماً لأحبذ قيام ناخبين ومحلفين من بين الزوج ، ولا تأهيلهم للوظائف ، ولا تراوهم مع البيض . بل اضيف على ذلك قولي ان هناك من الفوارق الطبيعية بين السود والبيض ، ما يمنعهم ابدأ من العيش معاً على قدم المساواة اجتماعياً وسياسياً . وما دام الامر كذلك ، فلا بد من وجود طبقة عليا وطبقة دنيا . واني كأني شخص آخر ، احبذ تخصيص الطبقة العليا للجنس الابيض . « فاشار دوغلاس على الفور الى ان ذلك القول يتعارض مع ما دعا اليه لنكولن سابقاً من نبد القول بافضلية عرق على آخر .

وفي بلدة فريبورث سأل لنكولن خصمه ، بناء على الحكم الصادر على الزنجي دريدسكوث ، اذا كان اهل المقاطعة يستطيعون ان يمنعوا الرق بصورة قانونية قبل وضع دستور الولاية . وكان في ذلك السؤال ضربة معلم ، يقصد منها معاداة الجنوب لدوغلاس وجعل ترشيحه للرئاسة عام ١٨٦٠ مستحيلاً . وقال دوغلاس انه اجاب على ذلك مراراً ، وان الجنوب يعرف موقفه من ذلك ، وكذلك لنكولن . ومع ذلك قال دوغلاس ، انه يمكن منع الرق عن منطقة ما ، على رغم قرار المحكمة

العليا ، وذلك بامتناع الشعب عن سن تشريع يحميه . ورد لنكولان بان الامر لا يحتاج الى ذلك ، فقد نشأ الرق في المستعمرات الاميركية على رغم ارادة المستعمرين ، وتساءل كيف يمكن لعضو في مجلس المنطقة التشريعي اقسام على طاعة دستورها ، ان يمنع عن اقتناء العبيد تلك الحماية التي ضمنها الدستور ؟ بل الم يمكن الكونغرس نفسه ملزماً بسن التشريع اللازم لحماية اقتناء العبيد ؟ ولو صحت حجة دوغلاس بان في امكان مجلس تشريعي محلي ان يلغي الضمان الدستوري بسن تشريع مضاد ، افلا يطبق ذلك على قانون العبيد الهاريين ، وهل لا يبرر سن تشريع يعرقل استرداد العبد الفار ؟

وكما تقدمت المعركة ، كان لنكولان يزداد استغلالاً لخبوته ، وقرصاً في التكيف لكل طارئ و صار يصوغ افكاره بوضوح وجلاء . كان في البداية مرتبكاً يلزم خطة الدفاع ، فتجلت عبقريته قرب النهاية . واخذ يعالج قضية الرق من وجهتها الادبية الاخلاقية ، فقال ان الجمهوريين يعتبرون الرق خطيئة ويسبرون في سلوكهم على هذا الاعتبار ، اما الديمقراطيون فلا يعبأون بخطا الرق او صوابه . افليس في ذلك الفرق كل الفرق ؟ . وفي المناظرة السادسة ، عالج هذا الموضوع بقوة ، فاجابه دوغلاس ان شعب الولايات التي تصطنع الرقيق ، ليس اقل حضارة من شعب الشمال ، وانه لا يليق بلنكولن ان يصف الناس بفقدان الضمير وبانهم يعيشون في الاثم ومعصية الله ، وخير له ان لا يدين لكي لا يبدان ، فما اكثر ما في الشمال من اخطاء وشرور . بيد ان لنكولن كان قد اثر على لب الموضوع بل جوهره الذي طالما نشده . ففي المناظرة الاخيره قال : ان جوهر الموضوع والخلاف حوله ، هو ذلك الشعور الذي يجعل فريقاً من الناس ينظر الى الرق كخطا وشر ، والذي يجعل الفريق الآخر لا يرى فيه اي خطا او شر . والفريق الاول هم الجمهوريون الذين يرون فيه خطا ادبياً واجتماعياً وسياسياً ، وهم

مع ذلك يعترفون بوجوده الفعلي بيننا ، وبالمصاعب التي تعترض سبيل الخلاص منه بطريقة مرضية ، وبالالتزامات الدستورية المنوطة به ، فيرغبون في سياسة ترمي الى عدم تفاقم شره وخطره ، ويصرون على وجوب اعتباره شراً ، ومعالجته كشر بقدر المستطاع . وان احدى السبل الى معالجته كذلك هي وضع احكام تحول دون نموه وانتشاره ، وتعمل على محوه يوماً ما . فاذا كان بيننا من لا يعتقد بان نظام الرق شر من اي وجه من الوجوه التي ذكرتها ، فهذا الشخص في غير مكانه ، ويجب ان لا يكون معنا . واذا كان بيننا من ضاق به ذرعاً كشر ، بحيث لا يعترف بوجوده الفعلي ولا بمصاعب التخلص منه فوراً وبطريقة مرضية ولا بالالتزامات الدستورية المنوطة به ، فذلك الرجل في غير مكانه وهو ليس منا ولا نتعاون معه .

قلت ان هناك من الناحية الاخرى شعوراً لا يعتبر الرقيق شراً ، ذلك هو شعور الديمقراطيين في الوقت الحاضر . ولا اقصد بذلك ان كل من انتمى الى ذلك الحزب يجزم بان الرقيق صواب . فمنهم من يجزم بذلك ، ومنهم كالشيخ دوغلاس لا يبالي اصواباً كان ام خطأً فهو يقول ان اي مجتمع يرغب في العبيد ، له الحق في اقتنائهم انه حق ، لو لم يكن الرق خطأً ولكنه ما دام خطأً ، فليس له ان يقول ان الشعب له حق في ارتكاب الخطأ ، واقتبس من خطابه الذي القاه في بيوريا قوله ان الخلاف حول الرق انما هو ناحية من نواحي ذلك الصراع الدائم بين الخير والشر ، الذي رافق تاريخ البشر .

تضع دقة تحليل لنكولن ، عندما نلاحظ التشابه بين تفكيره وتفكير دوغلاس . فبينما يتفق الاثنان على عدم مساواة الزوج بالبيض ، نجد لنكولن اكثر تساهلاً واكثر غموضاً من دوغلاس حول هذه النقطة . وكانا كلاهما باسفان لذلك النزاع الاقليمي بين الشمال والجنوب ، ويرغبان

في حسه ولم يرغب احد منها في انتشار الرق ، وكانا حريصين على صيانة اتحاد الولايات وكان الفارق الوحيد بينهما فارقاً ادبياً ، فقد ادرك لنكولن ان ذوي الشعور الادبي لا بد ان يقوموا في وجه الرق اما دوغلاس فمن رأيه ان ذلك الشعور يمكن بل يجب كبتة وقمعه .

• • • • •

وطلع صباح يوم الانتخاب في الينوي ما طراً مكفهراً . ومع ان مرشحي الحزب الجمهوري ظفروا بزيادة اربعة آلاف صوت على خصومهم فان القرائن دلت على فوز دوغلاس في المجلس التشريعي الذي كانت اغلبيته ديمقراطية ، فنال دوغلاس ٥٤ صوتاً ونال لنكولن ٤٦ .

• • • • •

اسفرت تلك المناظرات بين الرجلين عن نتيجتين تاريخيتين : (١) ان نشر موقف دوغلاس في فريبورث . جواباً على سؤال لنكولن ، قد سهل على متطري الجنوب إحداث انشقاق في الحزب الديمقراطي عام ١٨٦٠ مما يعرف لترشيح دوغلاس للرئاسة . ولم يكن الفضل في بلوغ تلك النتيجة لمهارة لنكولن ولبافته ، بل لتسرع دوغلاس في شرح تأويل لمبدأ السيادة الشعبية ، كان في مصلحة انصار التحرير فنقم عليه متطرفو انصار الرقيق . (٢) جعلت تلك المناظرات من لنكولن شخصية وطنية ، كما جعلت الرئاسة في متناوله ، فان من استطاع الصمود في وجه دوغلاس ، فقد اثبت اهليته لرفع المناصب . ثم ان لنكولن استطاع بدهائه وموقفه المعتدل ان يحتفظ بالعناصر المطالبة بتحريم الرق في حزبه . كما تهذبت لفته ، وانطلق لسانه بالبلاغة والبيان . ولم تفت الهزيمة في عضد لنكولن ، على رغم شدة شعوره بالحيرة . قال بعد ذلك بست سنوات وهو يعود بالذكري الى ليلة الانتخاب ، حين عاد الى بيته مجتازاً الشوارع المظلمة : كان الطريق أملس زلجاً . فزلقت احدى قدمي وازاحت الاخرى عن موضعها . ولكني تماكنت نفسي قائلاً . «إنها

زلاقة لا سقطه ، . و كتب إلى صديقه الدكتور هنري يقول : يسرلي اني
قمت بذلك السباق ، فلقد يسرلي الادلاء برأيي في ذلك الموضوع الجلل .
ولئن تواريت الآن عن الانظار وغرقت في بحر النسيان ، فاني اظن اني
قد تركت اثراً في قضية الحرية المدنية ، سيبقى طويلاً من بعدي . .
وقد تأثر نورمان جاد مدير الحملة الانتخابية ، من فشلها اكثر مما تأثر
لنكولن . فكان يعزيه بقوله ان الكفاح يجب ان يدوم ، كما تجب صيانة
تنظيم الحزب الجمهوري ومعنويات اعضائه . واكد له وجوب اعادة
انتخاب ترامبول لعضوية الكونغرس عند ما تنتهي مدته عام ١٨٦٠ ، فهو
لن يحتمل مكان اي شخص آخر .
ونجده في الحملة التالية يقاتل بين الصفوف ، الا ان القدر كان يعدله
شيئاً آخر .



الفصل الحادي عشر

كيف يصنع الرئيس

لما طلب نورمان من لنكولن ان يساهم في سد العجز الناتج عن الحملة الانتخابية ، اجاب انه تكبد مؤخراً كثيراً من النفقات دون ان يحصل شيئاً ، حتى اصبغ يفتقر الى المال اللازم ليقوم بأوداسرته . ولكنه لما كان على رأس قائمة المرشحين ، فقد ابت عليه نفسه الا ان يساهم ، فدفع ٢٥٠ دولاراً اخرى ، بحيث تجاوز تبرعه ٥٠٠ دولار . وعاد الى مزاوله المحاماة . وما ان ظهرت نتائج الحملة ، حتى شرعت صحف النيوى وبعض الولايات الاخرى تذكر لنكولن كمرشح لائق للرئاسة . وفي احد الامسية ، تابط جيس فل ذراع لنكولن واخذه الى مكتب اخيه المحامي . وكان جيس فل هذا صاحب جريدة ، وملاكاً كبيراً وسياسياً محنكاً ، وقد عاد مؤخراً من الولايات الشرقية . حيث ما فتى الناس يسألونه « من هو لنكولن هذا الذي يقاوم دوغلاس ؟ » ، وحاول فل اقناعه بان شهرته قد شاعت في الامة ، وانه اذا احسنت الدعاية له ، فانه سيكون من اقوى المرشحين للرئاسة ، ولم يقتنع لنكولن ، ورأى ان شهرته تقصر عن شهرة سواه من الاكفاء مثل سيوارد وتشايس الذين هم احق منه ، لفضاهم في سبيل مبادئ الحزب الجمهوري منذ البداية . وسلم فل بذلك ، ولكنه قال ان الخدمات الشخصية والاستهتاق كثيراً ما لاتضمن

الفوز ، وان كلاً من سيوارد وتشايش تفوه ببيانات متطرفة بما ربي له
الاخصام . واكد له ان المرشح الجمهوري عام ١٨٦٠ يجب ان يكون
من طبقة الشعب ، متحفظاً في مناوأة الرقيق ، خالصاً من اية صبغة
متطرفة ، وطلب منه ان يكتب لمحة عن حياته تنفع لجملة الدعاية . ولم
يتعمس لنكولن للفكرة على رغم رغبته في الرئاسة ، وقال انه يجب
ان يكبح جماح مطامحه ، ويكفيه ان يفوز بمقعد دوغلاس في الكونغرس
عام ١٨٦٤

وبعد ثلاثة شهور اقترح الصحافي توماس بيكث ان يشهر ترشيحه .
ورجاه لنكولن ان لا يفعل قائلًا انه يشعر بانه ليس اهلاً للرئاسة .
ولقد اصاب في ذلك ، فان اشهار ترشيحه مبكراً كان لا بد من ان يثير عليه
حملات المنافسين . ويظل مركز المرشح اقوى اذا لم يظهر طمعه في
الرئاسة . ومع اعتراضه على اشهار ترشيحه ، فانه لم يغفل اية سانحة للتأثير
على سياسة حزبه . فقبل الدعوة الى الخطابة في ولاية ايوا ، وكان لا
يفتأ يتشاور مع زعماء الحزب . ولم يكن خطابه سياسياً ، بل تناول
امكانيات تحسين الآلات الزراعية وزيادة المحاصيل ، وافاض في افضلية
نظام العمل الحر ، واثار من طرف خفي الى ان التساهل في النظرة الى
الرقيق تد يؤدي في النهاية الى استعباد جميع العمال ، البيض منهم والسود .
كان سيأتي ذلك اليوم الذي يعتبر فيه لنكولن كأصدق مثال للرجل
العصامي المحبوب . وقد بدأ يشعر هو نفسه بانه مثال حي للرجل الذي
يتقدم بجدده في بيئته تتيح التنافس الحر . وكان يرى ان عمال الشمال
افضل من اخوانهم في الجنوب الذين يعترض الرقيق سبيل تقدمهم . ثم
ان الزمن الذي عاش فيه لنكولن لم يكن له مثيل في تاريخ اميركا
من حيث اتاحة الفرص للنجاح والتقدم . فكان يرى انى ذهب اناساً بدأوا
حياتهم كأجراء في المزارع او كتبة او عمال ميكانيك ، ثم اصبحوا

محامين واطباء وتجاراً ومزارعين ملاكين وسياسيين ثاجحين . قال في احدى خطبه : لا يوجد عندنا طبقة دائمة من العمال المأجورين . ولقد كنت انا عاملاً مأجوراً قبل ٢٥ سنة . ان اجير الامس ، اصبح اليوم يعمل لنفسه ، وسيستخدم الاجراء في الغد . فالنظام هو النظام السائد في مجتمع يدين بالمساواة .

كان لذكولن يعتقد بافضلية العمل على رأس المال وانه اجدر بالاحترام والاهتمام . ولكن لرأس المال حقوقه التي تجب حمايتها . وستظل العلاقة بينها تجلب الفوائد الى الطرفين . وكانت عقيدته الاقتصادية الاساسية ، هي اتاحة الفرص المتساوية للجميع ، فيسير الاجتهاد الفردي قدماً في بيئة من التنافس الحر ، وان على الحكومة ان تقدم المعونة للمشاريع العامة . والقى لذكولن خطاباً سياسياً في ملواكي ، وقبل الدعوة لالقاء خطابين آخرين في طريقه الى شيكاغو ، حيث مكث اياماً للتشاور مع زعماء حزبه . وقضى صيف عام ١٨٥٩ يكتب ويخطب ، ويجد في مهنته ليستعيد ما كان قد نضب من حسابه في المصرف . بينما نشط الحزب الجمهوري في الينوي ، فطلق يجمع الاموال ، ويدرب زعماءه في الاقضية ، ويعزز منظماته المحلية . وجاب جيس فل ارجاء الولاية ، يقابل الزعماء وافراد الشعب ، ويدرس اتجاهاتهم في الترشيح . وقد وجد في الشعب ميلا الى ترشيح لذكولن للرئاسة ، بيد ان زعماء الحزب لم يكونوا واثقين من ابن ولايتهم ، وكانوا يبحثون عن شخص آخر يضمن الفوز لحزبهم .

• • • •

في يوم من ايام تشرين الاول ، شاع في البلاد خبر مفاده ان جون براون المتعصب لتحريم الرقيق ومسبب حوادث الاضطراب في كنساس قام مع ثمانية عشر من اتباعه المخدوعين بالاستيلاء على دار الاسلحة الاتحادية في فيرجينيا ، بقصد تجريض العبيد على الثورة . وحبس الناس انفسهم

وهم يتتبعون اخبار تلك الحفنة من البواسل المتهورين الذين صمدوا في وجه جيش فرجينيا الاحتياطي وفصيل من بحارة الولايات المتحدة تحت امره العقيد روبرت لي ، الى ان قتلوا او جرحوا جميعاً ما عدا اثنين . واثنى متطرفو التحريم على بسالة براون وعدوه شهيد الواجب . اما زعماء الجمهوريين فقد استنكروا فعلته واسفوا لوقوعها . ورأى الجنوبيون فيها نذيراً بما كانوا يتوقعونه من ثورة العبيد ، ونسبوا الى انصار التحريم . واستغلها الديمقراطيون للدعاية ، فقالوا ان للجمهوريين يداً في مؤامرة براون وان براون كان يستلهم بمبادئهم . وعاد متطرفو الجنوب يرددون ان لامناص من الانفصال اذا ما فاز الجمهوريون . واخذ الناس في الشمال والجنوب يفكرون بعواقبهم لا بعقولهم . سافر لنكولن في اواخر تشرين الثاني الى كنساس ، بايعاز من اصدقائه ، ليلقي عدة خطب فيها . وكانت تلك المقاطعة قد انحازت اخيراً الى تحريم الرقيق ، ووضعت دستورها ، وانتخبت مجلسها التشريعي ، وانتظمت كولاية لها كرسي في الكونغرس وتنقل لنكولن من بلدة الى بلدة بين عصف الرياح وهطول الامطار وأعدم براون شنقاً في ٢ كانون الاول ، بينما كان لنكولن يخاطب في بلدة اتشيسون . وكثيراً ما كان يشير الى براون في خطبه ، فيطري شجاعته وايثاره للغير ، ويندد بخروجه على القانون ، ويقول ان الرق يجب معالجته عند صناديق الاقتراع ، وان مقاومته لاثور العنف وسفك الدماء والحياة ، ثم يميل الى انصار الرق من سامعيه فيقول ان الجنوب ايضاً يجب ان يعتبر بعبرة براون . فاذا ما حاول الجنوب هدم الاتحاد ، فان من واجبنا ان نعاملكم بمثل ما عومل به براون .

.

وظل اسم لنكولن يتردد طيلة الحريف كمرشح ثانوي للرئاسة . بل ان تشايس وسمعان كمرون من زعماء الجمهوريين الطامعين في الرئاسة ، اقترحا

ترشيحه لنيابة الرئاسة ، اما في البنوي ، فقد ازداد الدعاء الى ترشيحه وازدادت ثقتهم في فوزه . ولاول مرة ألمع لنكولن الى امكان فوزه ، في كتاب بعث به الى فريزر قال فيه : اما انا فقد كرمست نفسي لانجاح قضية الحزب الجمهوري . وفي سبيل ذلك ، سأجاهد باخلاص بين صفوف جنوده ، الا اذا ارتأى الحزب وضعي في مكان آخر . وارسل الى جيس فل تلك اللوحة التاريخية عن حياته ، التي كان قد طلبها منه قبل عام ، وارفقها بكتاب قال فيه : انها لا غناء فيها ، ولعل السبب ان لا غناء في انا واذا امكن الانتفاع بها ، فازجو ان تتوخوا التواضع والاعتدال وان لا تتجاوزوا مادتها الحقيقية .

وفي اواخر عام ١٨٥٩ قام نورمان جد بمرحلة بارعة ، فعند ما اجتمعت لجنة الجمهوريين القومية في نيويورك لاختيار مكان يعقد الحزب فيه مؤتمره ، وكانت المنافسة حادة بحيث تعددت اسماء المدن المقترحة ، اقترح بصورة عرضية اسم شيكاغو كمدينة محايدة مادامت البنوي لم ترشح احداً من ابناءها . وانطلقت الحملة على اللجنة ، وتركزت حلبة السباق في ولايه لنكولن بالذات . وظل لنكولن يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، ويقول انه لا يجزئه عدم وضع اسمه في قائمة مرشحي الحزب العامة ، بقدر ما يجزئه عدم تايد وفود ولايته له . وقبل بترشيحه ، لا املا بالفوز بالرئاسة ، بل طمعاً في ضمان مقعد له في الكونغرس . وسر اصدقاؤه بذلك ، وكانوا اكثر منه تفاؤلاً ، ودأبت صحيفة شيكاغو تريبيون في توريد اسم لنكولن وذكر اعماله ونشر مقتبسات من خطبه ، وتفصيله على سيوارد وتشايس . وسافر رئيس تحريرها بالذات الى واشنطن لاقتناع اعضاء الكونغرس الجمهوريين بارجحية فوز لنكولن في الولايات المشكوك في اتجاهها . وفي ١٦ شباط ١٨٦٠ اعلنت الصحيفة ترشيح لنكولن على رؤوس الاشهاد .

كان لنكولن قد دعي في تشرين من العام الماضي الى القاء محاضرة في كنيسة بيتشر الشهيرة في بروكلين ، وكان في ذلك شرف عظيم له ، ولكنه كان قد جرب المحاضرات سابقاً فلم يفلح فيها . وكان يعلم ان عبقريته لم تبرز الا في الخطب السياسية . فسأل اللجنة الداعية عما اذا كانت لا تمنع في القاء محاضرة سياسية . فلما اجابت بالقبول ، اكب على الاستعداد لها جاهداً . وكان هو ودوغلاس على طرفي نقيض حول حقيقة رأي موسي الجمهورية في نشر الرقيق ، فاخذ يبحث وينقب في الكتب التاريخية ، ويقضي الساعات الطوال في مكتبة الولاية يطالع كتاب البيوث عن المناقشات حول دستور الاتحاد ، وكتاب اخبار الكونغرس وكل ما عثر عليه من الصحف القديمة . ولما سافر الى نيويورك ، وجد ان اتحاد الشبان الجمهوريين المركزي قد تولى رعاية محاضراته ، واختار نادي اتحاد كوبر لالقاءً بدلاً عن الكنيسة . وكان الدافع الى ذلك ظاهرياً هو رغبة اتحاد الشبان في اقامة سلسلة من المحاضرات لتنوير رجال الاعمال المنهمكين في اعمالهم ، اما في الواقع فان زعامة تلك المنظمة كانت في يد جماعة من الساسة الجمهوريين القدماء ، الذين كانوا يضررون احباط مطامع سيوارد الى الرئاسة . وانزله القوم في فندق استور ، واحتفوا به كضيف ذي مكانة . وعند المساء احتشد في القاعة اكثر من ١٥٠٠ من عليبة القوم . وجلس الصحافي هوراس غريبي على المنصة ، حيث اقتيد لنكولن في معبة محامي نيويورك الشير دافيد فيلد ، والاديب الالمعي وليم براينت محرر النيويورك ايفنغ بوست . وانطلقت الحناجر بالهتاف تحيي خصم دوغلاس الالد . وارتبك لنكولن بينما كان رئيس الاجتماع يقدمه . وخشي ان يسخر الشرفيون المثقفون من لهجته الغربية الريفية ، ومن قيافته وبذلته التي جمعها السفر . ولكن الجمهور كان معه منذ البداية ، فما لبث ان استعاد ثقته بنفسه ، ولم يفكر الا في اقناع سامعيه .

وبما افاده من دراساته الاخيرة ، أخذ يبرهن على ان ٢١ من الاعضاء التسعة والثلاثين الذين وقعوا دستور البلاد ، مع اعضاء الكونغرس الستة والسبعين الذين اجازوا التعديلات العشرة الاولى ، كانوا يفهمون دون ريب ان لا شيء في ذلك الدستور ولا في الفصل بين السلطات المحلية والاتحادية ، كان يمنع حكومة الاتحاد من الاشراف على الرق في المقاطعات الاتحادية ، ومن المرجح ان بقية الموقعين كانوا يشاركونهم في ذلك الرأي . ثم اتجه بكلامه الى شعب الجنوب ، فاخذ يستعرض التهم التي ألصقها الديمقراطيون بالجمهوريين ، وبين ان حزبه ليس اقليمياً ولا متطرفاً ولا ثورياً ، بل محافظاً . وكان الجنوب هو الذي رفض السياسات التقليدية القديمة ، فاثار قضية الرقيق . ولم يحرض الجمهوريون جون براون على فعلته ، بل ان مبادئهم لا تميز اعمال العنف وشبه التهديد بالانسحاب من الاتحاد ، بعمل قاطع طريق يصب مسدسه الى رأس ضحيته .

ثم وجه كلامه الى الجمهوريين ، فحثهم على العمل في سبيل السلام ، وملاينة الجنوب بقدر المستطاع لاقتناعه بانهم لا يضررون له شراً . وابدى ارتياحه في امكان ذلك ، لان الجنوب لا يرضيه شيء اقل من الاعتراف بشرعية الرقيق . « ان الخلاف بيننا وبينهم كامن في اننا نرى الرق غير شرعي وانهم يرونه شرعياً وما داموا يرونه شرعياً ، فلا لوم عليهم اذ ارغبوا في الاعتراف به اعترافاً تاماً . ولكننا مادما نرى غير رأيهم ، فهل يسعنا الادعاء انهم ؟ ايمكن ان نقترح مع نظرتهم ضد نظرتنا ، فنرمي بمسؤولياتنا الادبية والاجتماعية والسياسية عرض الحائط ؟ واذا كان شعورنا بالواجب يردعنا عن ذلك ، فلنصمد دون تردد ولا وجل ، لا تززعنا التهم الباطلة ولا الخوف من السجن ولا التهديد بهدم الحكومة . ولنؤمن بان الحق يولد القوة ، وبهذا الايمان فلنقم بواجباتنا كما نفهمها . » وما كاد يتفوه بذلك حتى نهض الحضور يضجرون بالهتاف والتصفيق والتلويح بالقبعات

والمناديل ، وتلكأوا في الانصراف لشدة ما أخذوا بخطابه . فقلما استطاع
زائر غريب ان يفوز بمثل هذا الاثر الذي تركه في مجتمع نيويورك . وفي
اليوم التالي ظهر خطابه كاملا في اربع من صحف المدينة ، مع كثير من
الاطراء والمدائح . وطبعت صحيفة شيكاغو تريبيون الخطاب في شكل
كراس . وهكذا حقق لنكولن شهرته في الولايات الشرقية .

• • • • •

كان من الاسباب التي دعت لنكولن الى زيارة الشرق ، رغبته في رؤية
ابنه روبرت الذي كان يدرس في ولاية همبشير ، ليحاول دخول جامعة
هارفرد بعد أن اخفق ١٥ مرة في ذلك . وكان على طول الطريق يتلقى
الدعوات للخطابة في المدن الكبرى . ولما قدمه رئيس الاجتماع في مانشستر
لقبه بالرئيس العتيد . ولما جاء هارتفورد ، وجد عمال الاحذية فيها مضربين
فقال : «يسرنى ان ارى هنا نظاماً للعمل يمكن العمال من الاضراب عندما
يشاؤون ، ولا يجبرهم على العمل مهما كانت الظروف حتى ولو لم تدفع لهم
الاجور ، اني احب هذا النظام الذي يسمح بترك العمل متى شاء العامل
وارجو انتشاره في كل مكان . وانا لا اؤمن بقانون يمنع الانسان من
الاغتناء ، فهو يضر اكثر مما ينفع . فبينما نحن لانقترح اشهار حرب على
الراسمال ، نود ان نتاح لاحقر الناس فرصة الاغتناء اسوة بالآخرين . ان
من يبدأ جهاد الحياة فقيراً ، يعرف ان المجتمع الحر انما هو ليتمكنه من
تحسين احواله ، وان لا قيود تربطه بعمله المعين طيلة حياته . »

وفي نيويورك رافقته جوقة نحاسية الى منزله بعد القاء خطبته . وفي
مدينة اخرى جرى مهرجان بالمشاعل . وكان الاقبال عليه عظيماً في كل مكان
وكان الجمهوريون يصحبونه مزهوين من بلد الى آخر . وكانت المهرجانات
والمواكب تنتظم على الفور دون انذار سابق .

• • • • •

لما عاد لنكولن من رحلته الشرقية الموقفة الى سبرنغفيلد ، وقف ملتون هاي يخاطبه باسم النادي الجمهوري ، فقال : « لم يكن ضئيلا عدد مواطنيك في مختلف الانحاء الذين اعربوا عن تفضيلهم لترشيحك للرئاسة باسم الحزب الجمهوري ، وهوذا امامك يا سيدي من كانوا يراقبون باهتمام وافتخار صعودك من الحضيض الى الاوج . ومنهم من يعرف ما اعتور سبيلك من مصاعب وعقبات . ان تاريخنا زاخر بامثلة ما يمكن ان يحققه الجِد والمقدرة والاستقامة . ولكن احداً منهم لا يستطيع ان يبلغ شاؤ ابرهيم لنكولن . عند ما تفاهم الخلاف الاقليمي عام ١٨٥٤ ، اخذ الشعب المغذور يري في استنكارك البليغ لهذه الحركة وفي دفاعك المجيد عن الحرمات المنتهكة ، تلك العبقرية السياسية التي تشهد لصاحبها بجدارته باسمي المناصب والشرف ، بل بالرئاسة نفسها . واننا على ثقة من اننا ، مهما تقبنا بين اعلى شخصيات البلاد ، لن نجد من يضاھبك في الجمع بين محمود المناقب التي تليق بهذا المقام . كل هذا النجاح الذي لاقاه ، أكسبه ثقة جديدة بنفسه . فلما سأله الشيخ ترامبول اذا كان قد رشح نفسه للرئاسة ، اجاب ان حلاوة ذلك على لسانه . واخذ يبيء الوفود وينسقمهم ولكن دون كثير من التظاهر فلما انعقد مؤتمر الجمهوريين في ديكاتور ، كان مدراء حملة لنكولن قد انجزوا خطتهم . ولما دخل القاعة ، قوبل بعاصفة من الاستحسان والترحيب والتصفيق واقتادوه الى المنصة . ثم وقف ديك اوغلزي واعلن ان جمهوريا قديماً من ناحية ما كون يريد ان يتبرع بشيء وصاح الجمهور المتحمس يقول «إقبله» . واذا بالشيخ المسن جون هانكس من اقارب لنكولن الريفيين ، ينهض بمساعدة بعض الحضور ويدلف حاملا راية غريبة يدهمها قضبان من قضبان السياج ويزينها عدد من الاعلام الصغيرة المثلثة وقد كتب عليها

ابراهيم لنكولن

مرشح القضبان للرئاسة عام ١٨٦٠

قضبان من مجموع ٣٠٠٠ قضيب صنعها عام ١٨٣٠ جون هانكس
وابراهيم لنكولن الذي كان والده الرائد الاول في ناحية ماكون

وساد المهرج والمرج ، واختلط القوم وهم يصخبون ويقذفون بالمناديل
والقبعات في الفضاء ، ويتدافعون بحيث سقط علي رؤوسهم جزء من
السقف المعرش الذي كان قد نصب علي عجل . ولما هدأت الجلبة دعي
لنكولن الي الخطابة . فنهض و اشار الي الراية وقال : « لعلمكم تنتظرون
مني ان ارد علي هذه . اني لا اذكر اذا كانت تلك القضبان الخشبية من
صنع يدي ، ولكني اؤكد لكم اني كنت اصنع افضل منها . » وجلس
فتجددت المتفافات . وهكذا فاز لنكولن بلقب « شقاق القضبان » ،
وكان موفقاً فيه ، لانه يشير الي صنعة منشأه وصلته بطبقة العمال . وفي
اليوم التالي من المؤتمر ، نهض جون بالمر (وكان ديمقراطياً في السابق)
فقدم الاقتراح التالي : « ان ابراهيم لنكولن هو مرشح الرئاسة الذي اختاره
الحزب الجمهوري في الينوي ، وعلي وفود هذه الولاية الي مؤتمر شيكاغو
ان يؤيدوه بالاجماع ويضمنوا ترشيحه . »

وما ان انتهى مؤتمر ديكاتور ، حتى شرع الجمهوريون يتوافدون علي
شيكاغو ، التي كانت قد نمت واتسعت وبلغ سكانها ١١٠٠٠٠٠ نسمة ،
والتقت فيها ١٥ سكة حديدية ، ووشيت سماؤها بابراج ٦٥ كنيسة ،
والعديد من رافعات (ونشات) الخنطة ، وباهت باكثر من الف حانة
وغير ذلك من المراقص والملاهي . ونصبت المدينة سرادقاً كبيراً يتسع
لعشرة آلاف ، سمته وينغوام . وما كان هذا ليستوعب جزءاً من وفدوا
عليها من الوفود ورجال السياسة والصحافيين وعموم الافراد القادمين

للإطلاع على ما جريات المؤتمر . فقد أرسلت نيويورك أكثر من ألفي شخص للتهاتف للمرشح سيوارد . وجاء من بنسلفانيا ألف وخمسة مئة ، كما تقاطر انصار لنكولن بالآلاف من جميع أنحاء البينوي .

وسارت المواكب تخرق شوارع المدينة المزدانة بالاعلام ، وعزفت الاجواق الموسيقية . وتكتل الناس في جماعات هنا وهناك يتهايمسون ويتضاحكون ، وغصت بهم الحانات والمقاهي . وجعل انصار لنكولن مقرهم في دار تريمونت . وعلى رأسهم داود ديفس ، وهو رجل ضخم الجثة ثقيل الوزن ، غني ذكي . وكان قاضياً للمحكمة الدورية الثامنة ، وكثيراً ما كان هو ولنكولن يتنقلان معاً وينزلان في نفس الفندق ، فيضحك من نكاتة مل شذوية ، ويعجب باخلاقه ومزاياه . وكانت تحيط به نخبة من اخلص اصدقاء لنكولن كنورمان جد ، واسطفان لوغان وجوزيف ميدل وغيرهم ، ممن خبروا المناورات السياسية وادر كواصعوبة مهمتهم وان قوة لنكولن في ضعف منافسيه . وكان زعيم الحزب المعترف به هو سيوارد . وكان رجلاً حصيناً مدققاً واسع الخبرة ، وقد تولى يوماً منصب حاكم نيويورك ، وعضوية الكونغرس منذ ١٨٤٨ ، واشتهر بمقاومته لانتشار الرق . وكان وفد نيويورك يشد ازره ، ولكنه لم ينج من بعض الاخصام ، لاسيما هو راس غريبي الذي حرم الاشتراك في وفد نيويورك فتدبر امره ودخل وفد اوريفون . وكان من اخصامه الذي اتهموه بالتطرف ، هنري لاين من انديانا . واندراوس كيرتن من بنسلفانيا المرشحان لمنصب الحاكمية . وقد اثبتت انتخابات ١٨٥٦ ان فوز الجمهوريين يرتكز على ولايات بنسلفانيا وانديانا والبينوي ونيوجرسي . فكان اخصام سيوارد يؤكدون انه لن يفوز بواحدة منها .

اما المنافس الآخر سامون تشايس من اوهايو ، فقد تولى منصب الحاكمية مرتين ، وعضوية الكونغرس مرة ، وكان اكثر تطرفاً من سيوارد ،

واقبل منه حياً من قبل الجمهور ، فلم يستطيع اكتساب التأييد التام في ولايته . وكان المنافس المحافظ ادورد بيتس قد اكتسب نقمة الناخبين الالمان باتصالاته مع الالادريين . اما المنافس سيمون كمرون ، فقد كان سيء السمعة ، وله مناوؤون في نفس ولايته . ولم يكن لنكولن قد نال من الشهرة ما يميزه كمحافظ او كمتطرف . وكانت ضعة مولده وعصاميته بما يجيبه الى عامة الشعب . وقد قدر لنكولن وضعه قبل المؤتمر بستة اسابيع ، فكتب الى صديق في اوهايو يقول : « ان اسمي جديد في هذا الميدان ، وأعتقد اني لست المرشح الاول لكثيرين . فمن سياستنا ان لا نسيء الى الآخرين ، بل ان نجعلهم في وضع يتجاوزون معه الينا اذا اضطروا الى التخلي عن احبابهم المفضلين . »

جلس ديفس في مكتب لنكولن ، وطلق يرسل الرسل لزيارة مختلف الوفود . وفي اليوم السابق لعقد المؤتمر في شيكاغو ، كان لنكولن لا يزال في سبرنغفيلد . واذ ببرقية ترده من ناثن ناب من وفد وتشستر ، جاء فيها : « تسير الامور سيراً حسناً . احتفظ باعصابك ولا تدهشك اية نتيجة . واؤكد لك ان امكانياتك ليست اسوأ الامكانيات . اننا نعالج الامور بدراية ، فاعتمد علينا ، ولا تفرط في الآمال . » وتبين قبيل افتتاح المؤتمر ان من الممكن اقناع انديانا باعطاء لنكولن اصواتها الستة والعشرين في اول اقتراع ، وان من الممكن اكتساب عدد من اصوات بنسلفانيا في الاقتراع الثاني . وبينما كان ديفس يعمل جاهداً ، اذا ببرقية من لنكولن تقول : « اني لا اسمح باية مساومات ، ولن اتقيد بأحدها . » ودهش اصداقائه واسقط في ايديهم . بيد ان ديفس لم يعبأ بتوصية لنكولن قائلاً انه غير حاضر ليرى ما يجابهونه ، ولم يكف عن قطع الوعود والالتزمات .

• • • •

احتشد عشرة آلاف في السرادق المنصوب صباح ١٦ ايار ، كما احتشد ضعفا ذلك العدد خارجاً ، وجلس حاملو البطاقات على مدرجات تطل على المنصة القائمة في الوسط حيث كانت الوفود تروح وتغدو في حركة دائمة وانقضى اليومان الاولان من المؤتمر في الاشغال النهيضية المعتادة . ومل الناس انتظار الاقتراع ، واقترح انصار سيوارد في اليوم الثاني البدء بالاقتراع ، ولكن الممارسة نجحت في إرجائه . وكان الوفود يجتمعون في جلسات تمهيدية ، ويجيبون الليالي ساهرين . واتفق وفد بنسلفانيا بعد منتصف تلك الليلة على التصويت الى جانب كمرون في الاقتراع الاول ، والى جانب ماك لين في الثاني ، والى جانب لنكولن في الثالث . ويعني ذلك ان الاقتراعين الاولين كانا من قبيل المجاملة فقط . ونجح وفد الينوي في اقتناع وفد نيو جرسي بتأييد لنكولن بعد الاقتراع الاول الى جانب مرشح ولايتهم ولیم دايتون على سبيل المجاملة . ولم تكتسب اصوات بنسلفانيا الا بعد الوعد بكرسي في الوزارة لكمرون .

وحسب انصار لنكولن حساباً لما لنفسية الجماهير من اثر على الاتجاهات فاقترح احدهم العمل على اقضاء الذين يهتفون لسيوارد عن السرادق . واحتالوا على ذلك بطبع عدد آخر من البطاقات ، وزعوها على رجال لنكولن واوصوهم بالحضور مبكراً . وجيء باحد سكان شيكاغو اشهر بقوة صوته وعين له مكان في القاعة واوصي بالصياح باهلي صوته كلما نشر جد منديله ، ونصب رجل آخر جهوري الصوت في جهة ثانية من القاعة وهكذا استعدوا لمعركة الصباح التالي .

واكتظ السرادق في العاشرة صباحاً ، واحتل رجال لنكولن اكثرية المقاعد ببطاقاتهم الزائفة ، بينما وقف كثير من انصار سيوارد خارجاً حائقين لنفاد المقاعد . وبدأت التسمية ، فما ان ذكر اسم سيوارد حتى ارتفعت عقيرة انصاره بهتاف يعم الآذان . وقد اثار ذلك حماس انصار

لنكولن ، فما ان ذكر اسمه حتى دوت القاعة بهتاف اعظم ، كان اشبه
بخليط من هدير الامواج وقصف الرعود ودق الطبول والصنوج ، على
حد قول احد الحضور ، ثم سمي دايتون وكمرون وتشايس دون تقديمهم
بخطب مطولة كما هو المألوف في هذه الايام ، وكما كان قد اتفق في الليلة
السابقة ، نهض كالب سمث من وفد انديانا ، فسمى لنكولن ثانية ، وعاد
انصاره الى الهتاف المدوي . واذا بأحدهم يثني على تسمية سيوارد ،
فاغتنمها اهالي نيويورك فرصة للتباري بالهتاف الذي يصم الآذان ، حتى
اضطر البعض الى سد آذانهم . وسرعان ما سمي لنكولن للمرة الثالثة
من قبل احد وفود اوهايو . وكان من شدة الهتاف ان ارتجت جوانب
القاعة ، وامتعت وجوه وفود نيويورك .

وبدا الاقتراع ، واعلن الرئيس النتائج فكانت كما يلي : سيوارد
١٧٣٥ ، لنكولن ١٠٢ ، كمرون ٥٠٥ ، تشايس ٤٩ ، بايتس ٤٨ ، ووزع
الباقى بين الآخرين . وبوشر بالاقتراع الثاني فلم ينل سيوارد الا ١١ صوتاً ،
بينما نال لنكولن ٧٩ اذا انحازت وفود بنسلفانيا عن ماك لين اليه .
واحتد التوتريبينما اخذ كاتب الجلسة في تلاوة اسماء الحضور للمرة الثالثة .
وامسك كل بقلمه لاحصاء الاصوات . ونال لنكولن ٢٣١٥ صوت .
وكان ٢٣٣ صوتاً تكفي لتسميته .

وكان جوزيف ميدل يجلس الى جانب وفد اوهايو ، فمال على دافيد
كارتر رئيس ذلك الوفد وهمس في اذنه : « اذا انحاز وفدكم الى لنكولن ،
فان تشايس سينال ما يريد . » وكان كارتر تيلعتم في نطقه ، فوقف منتصباً
واعلن : « اني انهض ايها الرئيس لااعلن تحويل اربعة اصوات من جانب
تشايس الى جانب لنكولن . » اما ماتلا ذلك من جلبة فلا يمكن وصفه .
لقد اخذ الأنصار يقفزون ويرقصون ويقذفون في الفضاء بكل ما كان
لديهم من قبعات ومناديل وعصي ، وانطلق المدفع المنصوب يزجر بالتعبية ،

تجاوبه صفارات السفن من فوق مياه النهر ، واجراس المدينة من ارجائها
الاربعة ، كما اخذت اجهزة البرق تصطك وتثرثر في كافة انحاء البلاد

.

كان لنكولن يجلس في مكتبه في سبرنغفيلد صباح اليوم التالي ، واذا
بادورد بيكر محرر جريدة الجورنال يدخل عليه حاملا نتيجة الاقتراع
الاول . ولم يسهه ان يتمالك هدوه فصار معه الى دار الجريدة . وعرجا
في طريقها على دائرة البرق فلم يكن فيها شي جديد . وتمالك لنكولن
على كرسي ينتظر ، واذا ببرقية تعلن نتيجة الاقتراع الثاني . وما لبثت
ان وردت برقية ثالثة تقول : «لقد صدرت النتيجة النهائية - مجموع الاصوات
٤٦٦ ، الاكثرية اللازمة ٢٣٤ ، نال لنكولن ٣٥٤ وبناء على اقتراح
السيد ايفارتس من نيويورك ، تمت التسمية بالاجماع في جو حماسي .
واخذت تنهال عليه برفيات التهئة ، والناس يصافحونه مستبشرين .
وهرول الى بيته ليزف النبا الى زوجته . ولم تم سبرنغفيلد تلك الليلة ،
واكتظ منزلة بوفود المهنيين .

.

وفدت على لنكولن في اليوم التالي لارفضاض المؤتمر ، جماعة من
كبار ساسة الحزب الجمهوري ، لاعلامه رسمياً بتسميته ، فاستقبلهم في
ردهة منزله المتواضع . ولم يكن قد رآه قبلا الا القليل منهم ، فشر
اكثرهم بالخيبة من فوزه ، مرتابين في كفاءته للاضطلاع بهمام أعلى منصب
في الامة . واخذوا يلتمونه بانظارهم الفاحصة ، بينما وقف رئيسهم جورج
اشمون بخطب بين يديه مسلماً اياه وثيقة الاعلان الرسمية . ووقف لنكولن
صامتاً في ثيابه المهلهلة ، مطاطى الرأس ، متمدل الكتفين ، ينم حياها على
شعور غامض يشوبه الارتباك . فما ان فرغ اشمون ، حتى ارتفع الرأس
واعتدلت القامة المديدة ، وبرقت العينان ، وارتسمت على الهيا اسارير

الثقة والهيبة ، فرد بكلمة وجيزة ، شكر لهم فيها ما اولوه من شرف ، واعرب عن تقديره لخطورة المنصب ، ووعد بالرد كتابة . وتقدم منهم واحداً واحداً يصفحهم بجرارة ويمازحهم . وادبرت عليهم المرطبات ثم انصرفوا . بين مطمئن وموجس خيفة ، وقال احدهم وهم في الطريق : لعله كان في وسعنا ان نقوم بعمل اسطع او ابهر ، ولكننا يقيناً ما كنا لنقوم بعمل افضل ، .

• • • •

اخذ لنكوان يدرس برنامج الحزب الموضوع ، فوجده معداً بصورة يرضى عنها مختلف الهيئات والفئات . وجد فيه نصوصاً تتعلق بالتعرفه ، بقصد اجتذاب انصار الحماية الجمركية في بنسلفانيا ونيوجرسي ونيوانغلند ، دون إقصاء الديمقراطيين المناوئين للرقائق الذين انضموا الى الحزب الجمهوري بما يتفق مع رأيه في ذلك الصدد ، ولا يشكل موضوعاً يظل يثير الخلافات السياسية والمباحكات . وحوى البرنامج نصوصاً تتعلق بالملكية ، تجتذب الطامعين في اقتناء الاراضي ، ومشاريع لتحسين الانهار والموانئ ، مما يرغب فيه اهل الشمال الغربي ، كما نص على انشاء سكة حديد على الساحل الغربي ، وعلى نظام لنقل البريد البري يوميا . واسترضى الاجانب ببيان يندد بفرض قيود على الهجرة ومنح الجنسية الاميركية . واشاد برنامج الحزب بالاتحاد ، وعرض بالديمقراطيين على ما بدا في حكومتهم من فساد وتبذير ، ووصم بالجريمة ما كانوا ينوونه من اعمادة فتح سوق النخاسة ، واستفكر مبدأ السيادة الشعبية ، وطالب بقبول كنساس في الاتحاد كولاية حرة . اما بشأن الرق في المقاطعات الجديدة ، فلم يكن بيان الجمهوريين صريحاً كما كان عام ١٨٥٦ حينما اكدوا ان من واجب الكونغرس إبعاد الرق عن تلك المقاطعات . اما اليوم ، فقد اکتفوا بانكار حق الكونغرس او اية هيئة تشريعية اخرى في اعطاء الرق صفة شرعية في

المقاطع . ولم يتضمن البرنامج اي بيان شديد اللهجة ضد الرق ، بل اعترف بحق كل ولاية في تقرير شؤونها الداخلية ، وتجنب الاشارة الى الناحية الادبية من المشكلة نفاديا لحسارة بعض الاصوات .

كان التنظيم الجمهوري مستكملاً . وعمل الحزب عن طريق خطبائه و منشوراته على استغلال فقر لنكولن في طفولته ، وروحه الرائدة وعبقريته الطبيعية ، وعصاميته . كما استغلوا الالقاب التي كان يعرف بها من مثل « ابراهام الامين » و « شقاق القضبان » الى ابعد حد . ودخل الحزب معركة الانتخابات متحداً ، حتى ان سيوارد كبت خذلانه وطفق يؤيد لنكولن . وكذلك فعل تشايس وسواه من المرشحين الآخرين . واشترك الجميع بحماس في اقامة المآدب والحفلات والمهرجانات . وكانت جماعات من شبان الجمهوريين في الشمال تطوف في تشكيلات متعرجة تقليداً للسياحات القضبانية ، وهي تحمل المشاعل او المصابيح المعلقة على قضبان خشبية .

• • • •

وعلى العكس ، كان الحزب الديمقراطي منقسماً على نفسه . فقد تفاقم الحلاف بين بكنان ودوغلاس ، وكانت قضية الرق تهدد بانفراط عقد الحزب . وازداد اخصام دوغلاس من انصار بكنان ، واخذوا يكيلون له ولا تباعه التهم جزافاً . ومع ان دوغلاس كان كثير الانصار في الجنوب الا ان المتطرفين لم يقروه على مبدئه بشأن الرقيق ، ورأوا ان آخر امل لهم في الاحتفاظ بالحكومة ، كان السيطرة على حزب الديمقراطيين ، فاذا اخفقوا فلا مندوحة عن خروج الجنوب من الاتحاد .

وعند ما كان مؤتمر الديمقراطيين على وشك الانعقاد ، او عز الى وفد الاباما بالانسحاب من الجلسة ، الا اذا نص برنامج الحزب على حرية ادخال الرق الى جميع المقاطعات وحمايته فيها بتشريعات ايجابية من حكومة الاتحاد . ووافقت على ذلك ولايات كرونولينا الجنوبية والمنسبي وفلوريدا ولوزيانا

وأر كنساس وتكساس. واصر المتطرفون على ذلك رغم معارضة دوغلاس وانعقد مؤتمر الديمقراطيين في مدينة تشارلستون في كارولينا الجنوبية قبل انعقاد مؤتمر الجمهوريين بثلاثة اسابيع . وكان تحت سيطرة دوغلاس من الوفود ما مكنه من املاء برنامج الحزب ، ولكنهم لم يكونوا بالعدد الكافي لترشيحه للرئاسة ، لان قانون الحزب كان ينص على اغلبيية الثلثين ونهض يانسي فقدم اقتراح الاباما ، وحمل على دوغلاس لان مبداه في السيادة الشعبية اضعف الحزب في الشمال . وقال ان انصار سياسة دوغلاس كانوا يعترفون بان الرق لم يوجد بناموس طبيعي ولا بقانون الهي ، بل بمجرد تشريع بشري . وخاطب دوغلاس بقوله « : لو انك قلت بان الرق حق ولذلك يجب ان يبقى ، لكنك انتصرت ، واقضي على التحريم في الشمال » . ولم يسع دوغلاس ان يقف هذا الموقف الادبي من الرق ، فوجد نفسه بين حجري الرحي .

لم يكن من داع لانقسام الحزب عند دراسة برنامجه في المؤتمر . فان مصير الرق كان قد تقرر في جميع انحاء البلاد . بيد ان ما كان يريد المتطرفون ، هو الاعتراف بشرعية الرق فلما هزموا ، انسحبوا من الاجتماع وفي طلبعتهم وفد الاباما ، تتبعه وفود مسيسي ولويزيانا وكارولينا الجنوبية وفلوريدا وتكساس ، وبعض وفود اركنساس وميسوري وجورجيا وفيرجينيا . واذ ذلك لم تمكن تسمية دوغلاس للرئاسة ، لان الرئيس قضى بان اغلبيية الثلثين تتناول جميع اعضاء الوفود ، لا الباقين منهم فقط . ورأى مدراء حملة دوغلاس تأجيل المؤتمر ستة اسابيع وعقده ثانية في بلتمور ، على امل ايجاد اعضاء معتدلين يحملون حمل المتطرفين . واجتمع المنشقون انصار الانفصال ، في قاعة مجاورة ، وقرروا كذلك تأجيل المؤتمر وعقده ثانية في رتشموند . وفي الموعد المضروب ، اجتمع هؤلاء المتطرفون في رتشموند . اخذوا يراقبون المؤتمر الآخر لحزبهم في

بلمتور ، وقد ارتد اليه بعض المنشقين ، ثم ما لبثوا ان اخذوا ينسحبون حتى لم يبق من الاعضاء الاصليين الثلاث مئة والثلاثة ، سوى ١٩٢٥ صوتاً . وقضى الرئيس هذه المرة بان تُلثي الاعضاء الحاضرين بشكل النصاب القانوني ، وهكذا تمت تسمية دوغلاس كمرشح للحزب الديمقراطي . اما مؤتمر المتطرفين في بلمتور فسمى جون بريكتر دج من ولاية كنتاكي مرشحاً للحزب . وبما زاد الطين بلة ، ان اجتمع في بلمتور ايضاً جماعه مختلطة من قدماء حزب الاحرار وحزب اللاأدريين ، وشكلوا حزبا سموه الحزب الدستوري الاتحادي . مؤيدون دستور البلاد ، واتحاد الولايات وتنفيذ القوانين . وسموا جون بل من تنسي وادورد افريت من مانتشوزتس ، كحاملين لواء الحزب . وهكذا سار الحزب الديمقراطي في ثلاثة اتجاهات ، مما عزز مركز لنكولن .

ولم يتبدل شيء من اخلاق لنكولن وعاداته وبساطة عيشه ، بيد ان منزله ومكتبه كانا يضيقان بزائريه ، فخصص له الحاكم غرفته الخاصة في دار الحكومة ، لاجراء المقابلات ، واصبح جون جورج نيكولي امين سره الخاص ، وعين جون هاي مساعداً له . وكانا شابين نشيطين ، ظلّا في خدمته الى آخر حياته . وكتب اليه عدد من خالص الجمهوريين في نيويورك يقترحون عليه اطلاق لقبه تعزيراً لهيبته . ثم جاءه نفس الاقتراح من فتاة من وستفيلد في الحادية عشرة اممها غريس بيدل ، قالت فيه : « لما كانت النساء عموماً ترغب في اللحي ، فانهن سيرغمن ازواجهن على الاقتراح الى جانبك » . ولا شك في انه ضحك في سره ، فكتب اليها يقول : « لما كنت لم اطلق لحيتي حتى الان ، افلا تظنين ان الناس سيرون في اطلاقها اليوم محاولة سخيفة للزهو والظهور ؟ » ولكنه ما عتم ان اذعن فاطلقها .

• • •

بينما كان لنكولن يرقب تطورات الحالة من سبرنغفيلد ، افزعه ما كان

يتخمس عنه الجنوب : اخذ الغلاة هناك بعد ان شتتوا شمل الحزب الديمقراطي ، ينادون بالويل والثبور اذا ما فاز الجمهوريون . وادعوا ان برنامجهم في الحماية الجمركية وامتلاك الاراضي ومشاريع الاصلاح الحكومية ، ان هي الاوسائل لنهب الجنوب ، وان الرق واسلوب الحياة في الجنوب سبقي عليها فوز لنكولن . . ولم يعلق لنكولن كبير اهمية على ذلك الهراء وكتب الى احد المرسلين يقول ان الجنوب اعقل من ان يطوح بالحكومة ويحول دون سيرها على الخطة التي رسمها لها الاولون . وكان على حق في تفاؤله هذا ، لان الكثيرين من دعاة الاتحاد في الجنوب ظلوا يقاومون المتطرفين . وحتى لو انتخب الجمهوريين رئيس البلاد وفازوا باكثرية مجلس النواب ، فسيظل الديمقراطيون يسيطرون باكثرية في مجلس الشيوخ . ولا يعقل ان يسن الجمهوريون قوانين تضر بمصلحة الجنوب . اما التهديد بالانفصال ، فكثيراً ما تردد سابقاً ، ولعلمهم يستعملونه اليوم سلاحاً لتحقيق هزيمته .

.

اما دوغلاس ، فقد ضرب بالتقاليد عرض الحائط ، وسار في حملته الانتخابية بكل قواه . وكان المرشح الوحيد من كافة الاحزاب غير الجمهورية فظل يأمل في الفوز على رغم جميع القوى التي تأمرت عليه . وكان اكثر من لنكولن فهماً لعقلية اهل الجنوب ، فرأى في انتخابه إقراراً للسلام ، فقام ببث رسالته بين الشعب ، واخذ يتجول بنفسه ، على غير المألوف ويبدل اقصى ما في وسعه ، على رغم مرضه وبحة صوته .

وجرت في آب انتخابات مرعبة في ولايتي فيرمونت وماين ، ففاز الجمهوريون باغلبية كبيرة .

وحاولت الكتلة غير الجمهورية في الشمال الاندماج في حزب ائتلافي ، في محاولة يائسة لتفادي الهزيمة . بيد ان الانتخابات الفرعية التي جرت في

تشرين الاول في بنسلفانيا و اوهايو ، اثبتت فوز الجمهوريين ثانية . فلما اطلع دوغلاس على برقية بتلك النتائج ، قال لامين سره : « سيكون لنكولان الرئيس العتيد . وعلينا ان نحاول انقاذ الاتحاد ، فانا مسافر الى الجنوب . » وسافر الى الجنوب حيث ركز خطبه في ضرورة الاتحاد ، وقال ان انتخاب رئيس جمهوري لا يبرر الانفصال ، وان انصار التحريم ودعاة الانفصال يستحقون الشنق على السواء . واهاب بالامة جمعا ، ولكن كان من سوء حظه انهم كانوا يعتبرونه في الشمال من انصار الرق ، وفي الجنوب من انصار التحرير .

.

استحوذ الفرع على الجنوب ، رغم جهود دوغلاس واعوانه من ، وبيدي الاتحاد . فقد تواترت الشائعات المقلقة . قيل ان انصار التحريم يعملون سرا بين الزوج ، وان الابار سممت في تكساس . وعم الجفاف يهدد محصول القطن ، وثقلت الديون المستحقة لمصارف الشمال على المزارعين واصبح الجنوب يغلي كالمرجل . ولم يكن يومه في الدرجة الاولى خوفا من ان يجرر الجمهوريون العبيد ، بل كان يفزعه تخيل المتوحشين السود وهم يجوبون البلاد بحرية ، ويطالبون بالمساواة الاجتماعية والاقتصادية ، ويقتحمون مدارس البيض وكنائسهم ، ويزاحمونهم على اعمالهم ويتفوقون عليهم في الاقتراع ، وكان اشد هم فزعا الطبقات الفقيرة التي خشيت على منزلاتها وكرامتها ، اذا استعلى العبيد ولم يظلوا دونها . منزلة في السلم الاجتماعية . واخذوا يتساءلون عما سيفعله لنكولان .

كان الجنوب قد ألف نظامه القديم ، فرسخت فيه فلسفة اقليمية ترى انه ذو حضارة هارقي من الشمال ، لا مجال فيها لما يقوم في الشمال من خلافات شديدة بين رأس المال والعمل . وقد ضمن هذا النظام للعمال طمأنينة اجتماعية لا وجود لها في غيره من الاقطار . وهذا للشماليون الجشعون

مجاولون تدنيس نظام الحياة في الجنوب ، ويصمون مقتني العبيد بالاشرار .
ولقد طال امد استغلالهم للجنوب ، ولقد انفصت الصلات الروحية بيننا
وبينهم ، ولا مناص من الانفصال عنهم . ومع ان الكثيرين في الجنوب
كانوا يتساءلون عن حكمة اتخاذ تلك الخطوة ، اي الانفصال ، فان احداً
منهم لم يكن ليرتاب في حقهم في ذلك او ينكره . وازدهرت فكرة
الاقليمية الجنوبية في كارولينا الجنوبية ، حيث كان المستأثرون بالسلطة
يحرصون على الاحتفاظ بها . وفي سبيل ذلك لم يكن بد من الانفصال
وتأسيس حكومة مستقلة . ولن يقوى الشماليون الجبناء على الحيلولة دون
ذلك . وقبل حلول يوم الانتخاب ، كان ستة من حكام الجنوب وتقريباً
جميع الشيوخ واعضاء الكونغرس في الولايات السبع في اقصى الجنوب ،
يجذبون الانفصال فيما لو فاز لنكولن في الانتخاب .

• • • • •

قضى لنكولن معظم يوم الانتخاب ، ٦ تشرين الثاني ، في مكتبه في
دار الحكومة . وسار في الثالثة بعد الظهر الى مركز الاقتراع ، ووضع
ورقته في الصندوق . ورافقه جمهور من الشعب المتحمس ، فصعد معه
سلم دار المحكمة ونزل معه بعد ان رمى بورقته . وأحس لنكولن ليلته في
دار البرق ينتظر النتائج . وما لبثت ان وردت هذه تفيد انه نال
١,٨٦٦,٤٥٢ صوتاً ، بينما نال دوغلاس ١,٣٧٦,٩٥٧ ، وبراكنرديج
١,٨٤٩,٧٨١ ، وبل ٥٨٨,٨٧٩ . وكان مجموع ما نال منافسوه الثلاثة يزيد
بنحو مليون صوت على ما ناله وحده . ولم ينل صوتاً واحداً في الجنوب
فيما عدا بضعة اصوات جاءت من الولايات الواقعة بين الشمال والجنوب .
هذا في الانتخابات العامة ، اما في الانتخاب النهائي من قبل الممثلين ،
فقد اكتسح لنكولن جميع ولايات الشمال ما عدا نيوجرسي ، وحاز على



لنكولن يلقي خطابه التنسيبي الاول امام جمهرة امن المواطنين . وتلاحظ
ان قبة الكابيتول لم تكن منتهية بعد

١٧٣ صوتا ، بينما حاز بر كنردج على ٧٢ ، وبل على ٣٩ ، ودوغلاس على ١٢ . وحتى لو فاز احد منافسيه باصوات الثلاثة معا ، فان لنكولن سيظل هو الرابع ، ويكون اذ ذاك رئيس اقلية ، ولكن ليس في الدستور . ما يمكن من الاعتراض على انتخابه .



الفصل الثاني عشر

اسم أم الحرب

انقضت كالعادة اربعة شهور بين انتخاب لنكولن وثيرساً في تشرين الثاني وتنصيبه في اذار من العام التالي . ومع ان حكومة بيكمان ظلت في الحكم الا انه كالرئيس المنتخب و كزعيم لحزبه كان يستطيع التأثير على الرأي العام اما بالبيانات العامة واما بالرسائل والضغط على الجمهوريين من اعضاء الكونغرس . واتضح نية انصار الانفصال عند ما دعت ولاية كارولينا الجنوبية الى مؤتمر للخروج على الاتحاد ، وهذا حذوها بعض الولايات الاخرى . فذب الذعر في النفوس واقفل بعض المصارف وهبطت قيمة الاسهم . والتفت الجميع الى لنكولن يأملون منه كلمة تطمين لأهل الجنوب .

وحاول لنكولن تطمين الموالين المعتدلين من اهل الجنوب . من ذلك انه كتب الى جون غلمر من ولاية كارولينا الشمالية معرباً عن نيته الطيبة ولكنه قال انه لا ينوي ان يختط طريقاً معينة كالتما هو نادم على جريمة انتخابه يطلب عنها المذرة والغفران . وقد سره خطاب صديقه اسكندر ستنفنز لدى مجلس جورجيا التشريعي وقد دافع فيه عن الاتحاد . فاثني على ذلك الخطاب الوطني وسأل الجنوبيين اذا كانوا يعتقدون حقيقة بأنه ينبغي العتب بتقابلهم قائلاً ان الفرق الاساسي انما هو في انهم يؤمنون

بشرعية الرق ووجوب انتشاره ، بينما يؤمن هو بعكس ذلك . وقد أمن ستيفنز على قوله ذلك ، وعند ما أصبح نائب رئيس لولايات اميركا المؤتلفة صرح بأن أمس تلك الحكومة انها تقوم على مبدأ عدم مساواة الزنجي بالرجل الابيض . وكتب كينث رينر من كارولينا الشمالية يؤيد صحة تحليل لنكولان لعقلية الجنوب ويقول : « اما من حيث لنكولن فانه لا يعتقد به ، ولا يعتبر رجلاً خطراً ولا رديئاً . ونحن لانخشى ان يقوم باي عدوان علينا . بل على العكس نعتقد بان هدفه التوفيق والترضية . وانها نخشى الفكرة الاساسية التي قامت عليها حركة ترشيحه وانتخابه . اعني بذلك اعلان الحرب الدائمة ضد الرق » .

لما اجتمع الكونغرس في مطلع كانون الاول كان الرئيس السابق ممتازاً يخشى الانفصال وضالماً نوعاً ما مع اصدقائه الجنوبيين . فصرح في رسالته السنوية الى الكونغرس بأنه بينما لا يحق للولاية ان تنسحب من الاتحاد ، لا يجوز لحكومة الاتحاد ان تصطنع معها الضغط والاكراه . واقترح تهدئة خواطر الجنوب بعقد مؤتمر دستوري يضع التعديلات التي تضمن بقاء الرق في الولايات ، وتكفل استرداد العبيد الهاربين . ولم تعبأ كارولينا الجنوبية بجهود الرئيس ، فأنشقت في ٢٠ كانون الاول . وتبعها ولايات مسيسي وفلوريدا والاباما وجورجيا ولوزيانا ، ثم ولاية تكساس في اول شباط عام ١٨٦١ ، وبدأت بوادر الثورة تكتسح ولايات الخليج ، فاستولى المنشقون على حصون حكومة الاتحاد ودور اسلحتهم ، ورفعت اعلام الولايات مكان علم الاتحاد ذي الخطوط والنجوم على دور الجمارك . وشاع القلق بين اعضاء الكونغرس ، فبدلوا مختلف الجهود في سبيل الحل لاسيما لجنة الثلاثة عشر المؤلفة من كبار الاعضاء امثال سيوارد ودوغلاس الذي عاد فاقترح فكرة السيادة الشعبية . كما اقترح الشيخ كرتيندن من ولاية كنتيكي عدة تعديلات للدستور ، تضمن ملامة الرق في ولاياته

وفي مقاطعة كولومبيا ، ودوام تجارة الرقيق مع تعويض اصحاب العبيد الفارين . واقترح بشأن القضية الشائكة الخاصة بالمقاطعات الجديدة ، مد خط اتفاق ميسوري الى المحيط الهادي بحيث يحرم الرق شماليه ويسمح به جنوبيه .

اشترك الجمهوريون من اعضاء الكونغرس في القلق على سلامة الاتحاد، ولجأوا الى لنكولن يسترشدون به . وعلم هذا ان اي قرار يتخذه قد يكون وبالا على الاتحاد الذي يحرص هو على صيانته . فلم يدر اي سبيل يسلك الشدة والثبات كما فعل الرئيس جاكسون في ازمة عام ١٨٣٢ ، ام سبيل اللين والترضية ، وهل سيقضي رفض الترضية الى الحرب ؟ وعقد لنكولن عزمه بسرعة وكانت له اجوبة مماثلة لمختلف الاسئلة فلم يعبا كثيراً بالامور الطارئة كالعبيد الفارين والرق في مقاطعة كولومبيا وتجارته وما اشبه ، ولكنه لم يجد قيد انملة فيما يتعلق بالرق في المقاطعات الجديدة . وقال ان السيادة الشعبية او اي تساهل آخر جنوبي خط اتفاق ميسوري قد يجر الى انشاء دولة مناصرة للرقيق . لا سيما بعد ان لاحظ ميل الرقيق الى التوسع عبر المكسيك واميركا الوسطى واكتساح جزيرة كوبا . ولذلك بات لا يؤمن بالتوافق والتراضي واخذ يحذر منها كقوله للشيخ ترمبول : « قف ثابتاً ، فلا بد من وقوع الجذب في الحبل عاجلاً ام آجلاً والافضل ان يقع اليوم » . بيد ان رفضه للترضية ما كان ليعني انه كان يبغى الحرب او يتوقعها . وظل طيلة الفترة بين انتخابه وتنصيبه شديد الثقة بقوة عاطفة الاتحاد لدى ولايات الجنوب لاسيما في الشمالية منها ، وبان بقاءها تحت الراية القديمة كفيل بان يسترد الولايات المنشقة . والحق يقال انه لم يسيء تقدير تلك العاطفة وقد بدا ان الانشقاق قد غلب على امره وجاءت اخبار سارة من كارولينا الشمالية تفيد بانها اقترعت ضد عقد مؤتمر للانفصال . ووردت اخبار سارة ايضاً من ولاية تنسي وبدا ان ولايتي اركنساس

وميسوري لم تكونا ميباليتين الى التسرع ، وكانت ولاية كنتكي تقاوم جهود حاكمها لسلخها عن الاتحاد . اما حاكم ولاية ماريلند ، توماس هيكس فقد قاوم انصار الانفصال لرفضه دعوة مجلس الولاية التشريعي الى عقد دورته . ولعل اهم من كل ذلك ان ولاية فرجينيا ذات الاثر العميق على ولايات الرقيق الاخرى لم تكتف بانتخاب ١٢٢ من الموالين ضد ٣٠ من انصار الانفصال كوفود الى مؤتمرها ، بل اشترطت ايضاً ان اي قرار يتخذ للانفصال عن الاتحاد يجب تصديقه بالاقتراع العام . وقد قبلت جميع الولايات باستثناء اركنساس دعوتها لارسال وفود الى مؤتمر للصلح يعقد في واشنطن . وقد انسحبت سبع ولايات من الاتحاد بينما بقيت ثمانية منها موالية له وبدا كأن المد قد غير وجهته .

لما كانت سلامة الاتحاد معلقة على اتجاه ولايات الرقيق التي ظلت موالية فقد حرص لنكولن على صيانة السلطة القومية متجنباً اي عمل متسرع او مشير . فيجب ان يصل الجمهوريون الى السلطة ، والحكومة ما تزال محترمة ، وولايات الرقيق في مزاج هادي . وان سياسة كهذه تتطلب حنكة نادرة ، فان اية بادرة ضعف قد تشجع المتطرفين وتضيع ثقة المعتدلين بينما اية بادرة من العنف او الخسومة قد تشجع ولايات الرقيق العليا على الانضمام الى اخواتها المنشقة . وقد عانى لنكولن كثيراً في تلك الفترة ، وبدت اثار الجهد على مجاه وفي كل يوم كان طلاب الوظائف يقتحمون عليه بلده سبرنغفيلد ، فتكتظ فنادقها بالوافدين حتى ليضطر العدد الزائد منهم ان يبيت في عربات النوم . وكان كل بريد يحمل اليه سيلاً دافقاً من الرسائل ، منها الناصح ومنها المستعطف او المحذر او المهدد او الشاتم . وكتب صديقه ولاس اى زوجته يقول : « لقد رأيت السيد لنكولن مرتين او ثلاث مرات منذ قدومي الى هنا ، ولكن لبرهة فقط ، وهو دائماً محاط بمحشد من الناس . انه عظيم المسؤولية ويخيل الي ان معرفة

ذلك تزوجه وتضايقه ، فلم اره قبل الآن اكثر غمًا وانحناء وكان مما يخفف حدة ذلك التوتر زيارة بعض اصدقائه له امثال ولاس ، وروح الفكاهة التي كانت تلازمه .

و كثيراً ما كان يتدمر من الوعود التي بذلها مؤيدوه في مؤتمر شيكاغو فيقول انهم قاموا به وباعوه واشتروه مئات المرات ، وانه يتعذر عليه ان يفي بجميع تعهداته . واخذ اذ ذاك يختار اعضاء وزارته ومستشاريه محاولاً الجمع بين ممثلي مختلف العناصر في الحزب الجمهوري ، معتمداً على حنكته في التوفيق بينهم . وعرض وزارة الخارجية على سيوارد فتردد في قبولها . فقد كان هذا الداهية المعقوف الانف الاشعث الحاجبين لا يزال يعتبر نفسه زعيم الحزب الجمهوري ، فيرى ان لنكولن غير قليل الخبرة ، لا يجوز ان يؤتمن على المسائل الخطيرة في مثل ذلك الزمن ، ويقابل بين افضلية وجوده داخل الوزارة او خارجها فانسل مساعده السياسي من نيويورك الى سبرنغفيلد ليجمع معلومات اوفى عن لنكولن . وكانا مجتمعين معاً يوم اعلنت كارولينا الجنوبية انفصالها ، وكان المساعد يحاول ان يقرر الى اي مدى يستطيع ذلك الرئيس الفر ان يقبل نصيحة سيوارد . وكان الثاني على لائحة لنكولن هو سلمون تشايس . وكان هذا طويل القامة منتصبها ، تشع في رأسه الجميل الشكل عينان زرقاوان تزيدان منظره هيبه ووقاراً . وكانت امانته تؤهله لتقلد وزارة المالية وقد اشتهر بشدة طموحه وصلابته وزعامته لمتطري محاربي الرقيق واختار ادوارد بيتس لوظيفة النائب العام وكان هذا وقوراً بلحيته الطويلة ورزاقته وتمسكه بالتقاليد القديمة كما كان كثير التفكير قليل الكلام ، هزيل الجسم يبرز في وجهه انف ضخم وحاجبان كثان ولحية مسترسلة وكان محامياً من انصار مقاومة الرقيق . ولكي يعطي الولايات الوسطى حظاً اوفر من التمثيل ، اختار لنكولن منغومري بليز من ولايه

ماريلند لمنصب مدير البريد العام . وهو من خريجي كلية وست بونيت
الحربية ، ولقد زاول بعد ذلك الحقوق والسياسة ودافع عن الزنجي سكوث
امام المحكمة العليا . وكان من ابرز انصار الاتحاد في ماريلند كما كان
اخوه فرنك بليز من زعماء انصار الارض الحرة في ولاية ميسوري ، بعد
ان كان يقطن العبيد سابقاً . وكانت اسرة بليز تتمتع بنفوذ بعيد ، واشتهرت
بالنعرة العصبية والمنازعات والحكمة السياسية .

استقر رأي لنكولن على اختيار جدعون ولز لوزارة البحرية . وكان
هذا الاختيار بالاتفاق مع نائب الرئيس هنيبال هملين ، وكان المرشح ولز
ذات لحية مسترسلة يضع على رأسه شعراً مستعاراً يجعله اشبه بالاله نبتون
(اله البحر) . وكان سابقاً احد محرري صحف الديمقراطيين ، عديم الخبرة
في الشؤون البحرية ، ولكنه قبل الاسترشاد بمساعدة الاصغر غوستاف
فوكس . واحترم لنكولن ما تعهد به انصاره فمنح وزارة الداخلية الى
كالب سمث من اعضاء الحزب الذي كان له بعض النفوذ في ولايته انديانا .
بيد ان اشد ما اربك الرئيس الجديد كان امر سمعان كميرون ، ذلك الرجل
الثري العايب من وراء الاستار الذي كان قد افاد كثيراً من الشؤون
السياسية . وكان سمعان هذا طويل القامة نحيل الجسم دقيق الملامح ذكي
الفؤاد ، يسيطر على حزب قوي في بنسلفانيا ، وكان له معارضون
من الرجال الاكفاء . واضطر لنكولن بعد الانتخاب ان يعده بمنصب
وزاري وكان كميرون يفضل وزارة المالية . ولكن ما ذاع عن معاملاته
المشبوهة اجبر لنكولن على العـدول عن عرضه فاحتج كميرون بأن ذلك
سيؤثر على سمعته لان خبر تعيينه في الوزارة كان قد بلغ الصحف . وبعد
اخذ ورد خشي اخصامه ان تفقد بنسلفانيا ممثلها في الوزارة فكفوا عن
مقاومتهم وعينه لنكولن وزيراً للحربية . وكان لنكولن قد اختار اعضاء
وزارته منذ انتخابه ، ولكنه لم يشأ البوح بالاسماء خشية الاخاح عليه .

باجراء تعديلات فيها . ومع ذلك حدثت مناورات يائسة لان انصار سيوارد وكميرون كانوا يكرهون تشايس بسبب تطرفه ، بينما كانت كثيرون من الاعضاء البارزين في الحزب يمتقون اسرة بليو . وكادت وزارة الرئيس الجديد تنهار قبيل تنصيبه عند ما اعتذر سيوارد عن قبول وزارة الخارجية ، رافضاً ان يعمل مع تشايس ولكن الرئيس ابي ذلك واجبره على اعادة النظر بالامر .

لم يدخل لنكولن في وزارته احداً من ولاية الينوي ، ولكنه كافأ الذين خدموه في اثناء الانتخاب باعطائهم وظائف صغرى اما الضجة التي احدثها انتخاب لنكولن ، فانها اقنعت بعض اعضاء الحزب الجمهوري ان من الضروري اسناد احدى الوزارات الى أحد زعماء الجنوب اعراباً عن حسن النية . وكان لنكولن يرى ان الجنوبي الحقيقي لا يسعه ان يقبل بذلك المنصب دون ان يستهين بمعتقداته ولكنه مع ذلك لم يمانع في التجربة ففاتح جيمس غوتري من ولاية كنتكي في هذا الامر ، فاعتذر لمرضه وكبر سنه . فاتجه لنكولن الى جون غامر من كارولينا الشمالية ، فتشاور هذا مع زملائه الجنوبيين ، ورفض الطلب ، وصار فيما بعد من اعضاء الكونغرس في ولايات الجنوب المنشقة . وهكذا وقع اختيار لنكولن أخيراً على بيتس وبليو من الولايات الوسطى ، وكان متعصبو الجنوب يعتبرونها مارقين . لم يكن جديداً ان يختار الرئيس منافسه السياسي لاجد مناصب وزارته . اما ان يحيط نفسه بجميع اخصامه الفاشلين ، فذلك امر له خطره ، وان دل ذلك على شيء فأنما يدل على اخلاص لنكولن في توخي استشارة اقوى الرجال . كما برهن اطمئنانه اليهم إما على سداجة مفرطة ، وإما على ثقة عظيمة في زعامته .

لما كان لنكولن لا يزال في سبرنغفيلد ، اضطلع سيوارد بتوجيه سياسة الحزب الجمهوري في واشنطن ، نظراً الى نفوذه في مجلس الشيوخ ومنزله

في لجنة الثلاثة عشر وعلاقاته الطيبة مع اعضاء الكونغرس الجنوبيين . كما كان قد اطلع على اراء لنكولن من مساعده الذي كان قد اوفده الى سبر نغفيلد ، فظل هو ولنكولن يتصلان بالمراسلة . وكان سيوارد يحسن ادارة الامور في الازمات ، اذ كان لين العريكة بشوشاً دائم الابتسام ، يميل الى الملاينة والتوفيق اذا اقتضى الامر . ومع انه كان يسير حسب رغائب لنكولن على وجه العموم ، الا انه كان يجيد عنها احياناً اعتقاداً منه برجاحة عقله . وكان يخشى ما يخشاه الجمهوريون ان يؤدي ضعف حكومة بكنان الى تشجيع المنشقين فيضربون ضربتهم القاضية قبل ان يتسلموا أزمة الحكم ، وقد تفادى سيورد مثل هذا الاحتمال بانشاء علاقة وطيدة مع جون ديكس وزير المالية اذ ذاك الذي كان يعيش مع بكنان في البيت الابيض ، ومع الداهية ادوين ستانتون الذي كان من انصار الاتحاد وقد ضم مؤخراً الى وزارة بكنان . فقد كان يخشى تأثير الجنوبيين على الرئيس ويرتاب في نيات انصار الرقيق في وشنطن فيطلع سيوارد سراً على ادق تفاصيل جلسات الوزارة . كما ان سيوارد ولنكولن كانا وثيقي الاتصال مع قائد الجيش العليل الجنرال ونفيلد سكوت . فقد ظل هذا القائد اميناً موالياً لحكومة الاتحاد رغم تحدره من ولاية فرجينيا ورغم عشرات الامراض والرصاصات التي استقرت في جسمه الذي سلخ ٧٤ عاماً .

استحوذ الذعر على وشنطن منذ كانون الثاني ، فقد تواترت الشائعات عن مؤامرات لاحتلال المدينة المحاطة بمقاطعات ينتشر فيها الرقيق . وما ان خفت تلك الشائعات في شباط حتى شاع ان الجنوبيين يعتزمون الحيلولة دون تعداد اصوات الاقتراع الذي كان مقرراً ان يجري في ١٣ شباط وخشي لنكولن ان تتمكن الاغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ من رفض اعطاء انتخابه صفة رسمية . واجتمع المجلسان في العاصمة في جنو

خائق متوتر ، بيد ان التعداد جرى مجراه الطبيعي . وتجددت الشائعات
عن عزم المنشقين على منع تنصيب لنكولن كما تواترت شائعات اخرى عن
التآمر على اغتياله ، بما جعل العاصمة في قلق دائم . وظل الجمهوريون الى
ذلك الحين يرفضون اية محاولة للتراضي حول الرق في المقاطعات الجديدة ،
ولكنهم تساهلوا الى ابعد ما يمكن قرب انتهاء دورة الكونغرس فلم
يعارضوا حتى ولا لنكولن نفسه عندما نظمت داكوتا ونيفاذا وكولورادو
كمقاطعات دون ما ذكر للرقيق . وقد ادى توالي انسحاب المنشقين الى
سيطرة الجمهوريين على مجلسي النواب والشيوخ . ولم يسع دوغلاس الا
ان يبدي اغتباطه عند ما رأى معارضية معتنقون أخيراً مبدأ السيادة
الشعبية الذي طالما نادى به . وعلق بن وين الذي كان من اشد انصار
تحریم الرق على ذلك الاتفاق حول المقاطعات الجديدة بقوله : « لقد بحثنا
الموضوع وشعر كلا الطرفين بضرورة تنظيم تلك المقاطعات الجديدة
فاتفقنا على اغفال ذكر الرق فيها ، . وقد فانت هذه الترضية اهل الجنوب
ولعلها جاءت متأخرة او لعل لنكولن كان محقاً في رأيه بأن الخصومة
الاساسية بين الشمال والجنوب انما كانت قائمه على الايمان بشرعية الرق
او بعدم شرعيته .

دنا موعد انتقال لنكولن الى واشنطن . وفي الاسبوع الاول من
شباط تسلل من سبرنغفيلد خفية ليقوم برحلة وداعية في اقصية الولاية
يودع فيها على الاخص زوجة ابيه التي حلت محل والدته المتوفاة في حياته .
وقد اراد ، قبل ان يتسنى ذروة اعلى منصب في البلاد ، ان يطيب خواطر
اصدقائه القدماء البسطاء ويؤكدهم صداقته ووداعته . وفي آخر يوم
قضاه في سبرنغفيلد زار مكتبه ليودع شريكه ولیم هيرندون . وبعد ان
اتم الترتيبات لانجاز بعض القضايا المعلقة ، استلقى لنكولن على الاربكة
واخذ يتفرد في السقف . وفاجأ شريكه بتذكيره بالمرات العديدة التي

وجده فيها سكراناً واسر اليه ان من المحامين الآخرين من حاولوا احتلال مكانه في الشركة بسبب ادمانه الخمر . وما لبث لنكولن ان نهض وتأبط رزمة من الكتب وسار الاثنان معاً بهبطان السلم ونظر الى اللافتة على الباب وكان مكتوباً عليها « لنكولن وهيرندون » فاوما اليها وقال : « لتبق كما هي ، وليفهم عملاؤنا ان انتخاب رئيس لن يبدل شيئاً في شركة لنكولن وهيرندون . وسأعود ثانية اذا بقيت على قيد الحياة كأنما لم يحدث شيء » . وافترق الرجلان بعد مصافحة بالايدي . وكانت يوم الرحيل في ١١ شباط قرأ مطيراً ووقف لنكولن ومودعوه في الصباح الباكر في غرفة انتظار المحطة وكأنت على رؤوسهم الطير . وانطلقت صفارة القاطرة فهرع الرئيس المنتخب وحاشيته الى تسلق عربة الركاب الوحيدة . واحتشد المودعون على الرصيف يتقنون المطر بمظلاتهم . واطل عليهم لنكولن مطاطياً الرأس مكفهر الحيا . ولكنه ما عثم ان رفع وجهه واخذ يتفردس في وجوه اوائك الذين جاؤا لبدءوا له بالنجاح والتوفيق . وبعد برهة من الصمت قال لنكولن في هدوء : « ايها الاصدقاء يعجز من كان في موقفني عن تقدير ما اشعر به من الاسى لهذا الوداع ، اني مدين بكل شيء الى هذا المكان والى لطف اهله . لقد عشت هنا ربع قرن وانتقلت فيه من طور الشباب الى طور الكهولة وهنا ولد ابنائي وهنا دفن احدهم . واني اغادركم اليوم ولا ادري اذا كان مقدراً لي ان اعود ، وامامي مهمة افدح من تلك التي اضطلع بها وشنطن . ولن اطمع في النجاح الا بمساعدة العناية الالهية التي كانت ترعاه دائماً . فلنضع كل ثقتنا واعتمادنا عليها فلا يخيب لنا رجاء . واني استودعكم الله كما ارجو ان تستودعوه اباي في صلواتكم » .

كانت الرحلة الى وشنطن محنة قاسية تستغرق اثني عشر يوماً ، اخطر لي ان يخطب فيها مرات عديدة وقد تحاشى ان يفضح خططه قبل الاوان .

وقد اعدت له استقبالات رسمية في المدن الكبرى ، واحتشدت الجماهير في كل محطة . واتبع القطار طريقاً متعرجاً بقصد ان يراه ويسمعه اكبر عدد من الناس . وقد دعا في معظم خطبه الى صياغة الاتحاد معلناً ان ذلك مهمة منوطه بالشعب والاجيال المقبلة . وفي نيو جيرسي اهاب بالشعب الى تأييده اذا ما اضطر الى اتخاذ خطوة حازمة ، فقوبل هذا القول بالهتافات العالية . ولكنه كان لا يفتأ عن الاعلان ان لا حاجة الى الحرب وان الحكومة لن تصطنع القوة الا اذا استعملت القوة ضدها اولاً .

وبينما كان القطار يخترق ولاية نيويورك وردت انباء تفيد بان جفرسن ديفس وقف في رواق دار الحكومة في ولاية الباما واقسم اليمين كرئيس لاتحاد الولايات المندمجة . وان ممثلة هي ماغي مينشل رقصت على علم الاتحاد ذي الخطوط والنجوم . وقد مل لنكولن كثرة الحفلات الرسمية المتتالية وكان اهل الولايات الشرقية المتأثقون يحصون عليه عيوب سلوكه التي لم يألّفوها ، وقد لاحظوا خيب مشيته وعدم انتظام حركاته ، واستهجنوا لهجته الريفية وكثرة لجوئه الى الحكايات البلدية . وسخروا منه عند ما ظهر في دار الاوبرا وقد تدات يده الضخمتان من فوق حافة المقصورة وهما مكسوتان بقفاز من الجلد الاسود . ونعتته الصحافة المعادية بشتي الألقاب كالغويلا والبابون .

علم لنكولن ان الشعور ضده في مدينة بلتيمور كان حاداً . وكثر الحديث عن امكان طعنه او رميه بالرصاص وهو يجتاز احد شوارعها . او ان قطاره سيخرج عن الخط ، او انهم سيخطفونه ويرسلونه الى الجنوب في قارب معد لتلك الغاية . وكانت بلتيمور المدينة الكبرى الوحيدة التي لم تقم بترتيبات رسمية لاستقباله والترحيب به . غير ان لنكولن كان قد الف التهديدات والانذارات المغفلة ، حتى بات يعتقد ان ليس هناك في الحقيقة من يريد أن يؤذيه . اما انصاره لاسيما جاد وفلتون ، فقد كانوا

من شدة قلقهم عليه ابن نصحوا له التخلي عن البرنامج المقرر وركوب
القطار تلك الليلة رأساً الى واشنطن . فلم يقبل بذلك البتة ، اذ كان قد
وافق على ان يخطب في شعب فيلادلفيا صباحاً ، وفي مجلس بنسلفانيا
التشريعي بعد الظهر . وكان اقصى ما تساهل به أن يركب القطار من
فيلادلفيا الى واشنطن اذا لم ترسل بليتيمور وفداً لاستقباله في مدينة
هرسبورغ في بنسلفانيا . فلما عاد الى غرفته عبر الممرات المحتشدة ،
استوقفه فريدريك سيورد ابن الشيخ سيورد ، وأسر اليه انه يحمل من
والده والجنرال سكوت رسائل تحذره من مؤامرة لاغتياله في بليتيمور
وبعد ان تلا الرسائل بامعان ، اخذ يعظ الشاب ، مع انه استنتج ان
المؤامرة كانت اكثر من مجرد اشاعة والقي خطبته في هريسبورغ في اليوم
التالي . وكان بعض اعضاء حزبه المؤتمنين قد اخذوا علماً بالحظر الكامن
وبالخطة التي رسمها جاد وفلتون . وعاد لنكولن الى غرفته بعد العشاء ،
فبدل ثيابه وارتندي معطفاً ووضع في جيبه قبعة صوفية لينة ، واسترق
خطاه الى عربة كانت بانتظاره . فما كان من وارديلامون الا ان قفر وجلس
الى جانبه . وكان هذا قد شاركه في المحاماة سابقاً ، وقد اشتهر بقوة بأسه
وكان مسلحاً بمسدسين وطبجتين وخنجرين . وسارت العربة بها تواء الى
المحطة حيث كان بانتظارهما قطار خاص ، وقد قطعت جميع خطوط البرق
المتصلة بمدينة هرسبورغ . وفي فيلادلفيا استقبلها بنكرتون وفاظر الخط
فأخذاهما في عربة الى المحطة الكبرى حيث ركبا آخر عربة للنوم في قطار
بليتيمور . ووقفت تلك العربة في محطة بليتيمور في سكون الليل الهادي
تنتظر مرور قطار الغرب . وتزل لنكولن الى واشنطن في السادسة صباحاً .
ما ان ذاع خبر كيفية دخول لنكولن الى العاصمة ، حتى هبت الصحافة
المعادية تضيف سخريتها اللاذعة الى تهجماتها العدائية . وقد اشاع احد
المراسلين المفرضين ان لنكولن دخل العاصمة متخفياً في زي جندي

اسكتلندي ، مما جعل اخصامه ليرمونه بالجبن ، كما اوجد مادة غزيرة
لرسامي الصور الهزلية . ولم يكن لنكولن راضياً عن نفسه لهذا المسلك
ولو لم يقنعه اصدقاؤه بان مصلحته الشخصية ومصلحة البلاد وحدة لا تتجزأ
لفضل الذهاب الى بلتيمور حسب البرنامج المقرر .

كان صباح يوم ٤ اذار ملبداً بالغيوم في واشنطن ، ولكنها انقشعت
عند الظهيرة . وزخرت العاصمة بالزائرين ، وكان بعضهم يخشى ان يحال
دون تنصيب الرئيس بالقوة بينما كان الآخرون يأملون في وقوع بعض
القتل . وتوجه الرئيس السابق بكنان عند الظهر الى فندق ويلر ليرافق
خلفه الى دار مجلس النواب عبر الطريق التاريخية التي سلكها جميع الرؤساء
وكان لنكولن يطل من العربة المكشوفة ليتطلع الى وجوه الجماهير المحتشدة
على الجانبين ، ويكشف عن رأسه بين آن وآخر وينحني محبباً . وكانت
دار المجلس النيابي غير تامة البناء ، تبدو على قبتها ذراع احد الونشات ،
وفي ارضها تمثال نحاسي للحرية لم ينصب بعد . وسارت عربة الرئاسة يحيط
بها الحرس ، كما اصطف الجنود في الشوارع ووقفت ثلة من الحياالة عند كل
تقاطع . ووقف على السطوح رجال مجهزين بالبنادق لمراقبة النوافذ ، ونصب
مدفعان قرب الدار .

وسار الموكب الى منصة اقيمت امام الدار ، مشى فيه لنكولن بقامته
المديدة وكان يرتدي بزة جديدة سوداء ويتنعل حذاء اسود ويحمل بيده
قلنسوته العالية وعصاه ذات المقبض الذهبي . ومشى الى جانبه الرئيس
السابق بكنان ، خلف قاضي القضاة وبقية اعضاء المحكمة العليا . وجلس
دو غلاس في مكان بارز في الصف الامامي ، ليبدا انه من مؤيدي الرئيس
الجديد . فلما نهض لنكولن لالقاء خطبته لم يجد ابن يضع قبعته وعصاه .
ويقول احد الرواة ان دو غلاس تطوع فتناولها منه واحتفظ بها الى آخر
الحفلة . واستهل الخطبة بكلمة تطمين الى الجنوب قائلاً انه لا ينوي ان

يتدخل مباشرة او غير مباشرة في وضع الرقيق في الولايات التي هو قائم فيها ، وانه يعتقد بأن لا حق شرعي له في التدخل . ووعده بأحترام التعديل الاخير الذي ادخل على الدستور والذي يضمن الرق في الولايات من تدخل حكومة الاتحاد ، والذي ينص على القبض على العبيد الفارين واعادتهم . ثم تطرق الى سلطة حكومة الاتحاد فقال انه لا يحق لأية ولاية ان تنسحب من الاتحاد بمجرد ارادتها . والمع الى الولايات التي اعتبرت نفسها منسحبة ، فقال انه سيعمل كما يأمره الدستور على تنفيذ قوانين الاتحاد في جميع الولايات ، وذلك بقدر المستطاع الا اذا شاء سيده الشرعي ، اي الشعب الاميركي ان يمنع عنه الوسائل الضرورية ، او اذا امر بخلاف ذلك . ولكنه أكد ان لا ضرورة الى اللجوء الى العنف وسفك الدماء في تنفيذ القوانين ، قائلاً بالحرف الواحد : « ان السلطة المخولة لي ستستعمل في امتلاك واحتلال وصيانة الممتلكات والاماكن التي تخص الحكومة ، وفي جمع الضرائب والمكوس . فلن يتعدى الامر هذه الاجراءات ، دون اي فتح او غزو او عنف . » واستطرد يقول ان الولايات من الوجهة الطبيعية لا يمكن انفصالها ، بل يجب ان تظل بينها العلاقات التجارية والسياسية . وتساءل هل يمكن الأغراب ان يفوقوا الاصدقاء في سن القوانين وعقد المعاهدات ؟ ولماذا لا يوثق بعدالة الشعب بالنهاية فإنه المحكمة العليا صاحبة الحكم الاخير ، فلا بأس من الصبر وطول الأناة ، وكان ينوي ان يختم خطبته بما يلي : « ايها المواطنين المتبرمون ، ان في ايديكم لا في يدي مسؤولية الحرب الاهلية . والحكومة لن تهاجمكم ، ولن تشتبكوا في قتال ما لم تكونوا انتم المعتدين . » الا ان سيوارد اقترح عليه ان يكون الختام اكثر تودداً وملاطفة ، وقدم اليه فقرة اضافية ، هذها لنكون لن فجاءت كما يلي : « يسوءني ان اختم حديثي ، فانما نحن اصدقاء لا اعداء ، ولا يجوز ان نصبح اعداء . قد تكون المشاعر



ماوی تود لنکولن . مرتدیه لباس السهرة يوم تنصيب لنکولن رئیساً



الجنرال ونقيب سكرت واركاث حربيه عام ١٨٦١

قد توترت ولكنها يجب ان لا تفصم عرى الورد المقيم بيننا . ان اوتار
الذكريات الممتدة بين ساحات المعارك وقبور المواطنين الشهداء ، وبين
افئدتنا نحن الاحياء ، في طول البلاد وعرضها ، ستهتز بنشيد الاتحاد اذا
ما لامستها اجنحة نفوسنا الطيبة .

لقد تباينت الاراء في تقدير ذلك الخطاب ، واليك بعض ما قيل بوصفه :
كان ثابتاً واضحاً . انه ضعيف مفكك الاوصال . كانت لغته لغة رجل
سليم الذوق . كان عادلاً منصفاً لكلا الطرفين . كان حافلاً بالمسكر
والدهاء . ومع انه لم يلق قبولا في الولايات المنشقة فقد حظي بتعليقات
طيبة في التي ظلت على الولاة . فقد افاد حاكم فرجينيا انه اهاب بالمتحفظين
الى التفكير الهادي ، بل ان احدم في مؤتمر فرجينيا اثني على لنكولن
ولام الولايات المنشقة على تسرعها . وقال جون غلر الذي كان قد عرض
عليه لنكولن احدي وزاراته متسائلاً : ماذا يبتغي اي جنوبي عاقل
اكثر من هذا ؟ غير ان هذه الاراء كانت فردية خاصة ، بينما ظلت صحافة
الجنوب مندفة في عداها .

اضطر لنكولن بأسرع مما كان يتوقع الى اثبات ما جاء في خطابه حول
الاحتفاظ بمواقع الحكومة واملاكها . ففي اليوم التالي للتنصيب ، ورد
من روبرت اندرسن قائد حامية قلعة صمتر في مرفأ تشارلستون بان المؤونة
التي لديه لن تكفي الا ستة اسابيع فاذا لم تصله مؤن اخرى خلال تلك
المدة فانه مضطر الى هجر القلعة . وكانت قلعة صمتر رمز سلطة الاتحاد ،
واهم قلعة في اراضي الولايات المنشقة التي ظلت تحت سيطرة الاتحاد .
وكان قد بنى في مرفأ تشارلستون ثلاث قلاع ولكن عندما بدأ الانشقاق
لم توجد حامية الا في واحدة منها ، وهي قلعة مولتري وعلى رأسها روبرت
اندرسن ، الذي حذر بكنان من انه لا يسبيل الى السيطرة على المرفأ الا
بوضع حامية في قلعة صمتر وفي حصن بنكني ايضاً . ولم يصغ بكنان

الى نصيحته ، لانه لم يشأ ان ياتي عملا يعتبره اهالي كارولينا الجنوبية
عدائياً ، كما ان الجيش النظامي آنذاك لم يزد على ١٦ الف جندي كانت
معظمهم يحرس التخوم الغربية من الهنود المعتدين . وفي ٢٦ كانون الاول
عام ١٨٦٠ نقل اندرسن حاميته من مواقعها المكشوفة في قلعة مولتري
الى قلعة صمتو . وكانت كارولينا الجنوبية قد خرجت على الاتحاد واعتبرت
نفسها ولاية مستقلة كما اعتبرت انتقال الحامية عملاً عدائياً فطلبت اخلاء
مرفا شارلستون جميعه . ورفض بكنان ذلك الطلب وارسل في كانون
الثاني سفينة تجارية غير مسلحة فيها النجعات والمؤن الى اندرسن . فاطلقت
بطاريات الساحل في الولاية قنابلها واضطرت السفينة الى العودة . ولم
يشأ بكنان ان يعيد الكبرة الا اذا هوجمت القلعة . اما كارولينا الجنوبية
فاستوات على قلعة مولتري وحصن بنكني وأحاطت المرفأ بالمدافع . وكان
بما ينقص عيش اهلها علم الاتحاد الذي كان يرفرف على احد مرافئهم الهامة .
فحظرت حكومتها علي اندرسن شراء المؤن من شارلستون ، وكان ذلك
الحظر بداية الازمة ، اذ كان لا بد من تموين صمتو او الجلاء عنها .
واستشار لنكولن في حيرته الجنرال سكوت ، الذي كان يرى ان
السيطرة على مرفأ تشارلستون تقتضي لا اقل من عشرين الف رجل .
وقال رجال البحرية ان في وسعهم نقل الجنود الى صمتو ، بينما قرر رجال
الجيش فشل تلك المحاولة . ولجأ الى أعضاء وزارته وطلب منهم ابداء
ارائهم كتابة . فجاءت الردود متناقضة ، وكان رد سيوارد اطول رد
سلمي . وعندها ارجأ لنكولن اتخاذ قرار . حاسم ، وفي ذلك دلالة على قوة
طبيعية في خلقه تنزهه عن التسرع . وعلى انه سيتخذ بنفسه قراره النهائي
في حينه ، بعد ان يكون قد بناه على افضل ما لديه من النصح والمعلومات .
كانت حكومة الولايات المنشقة قد عينت ثلاثة مندوبين للتفاوض مع
حكومة الولايات المتحدة حول قلعة صمتو وغيرها من المشاكل . وفي ١٢

آذار تقدموا الى سيوارد يطلبون رسمياً تعيين موعد لتقديم اوراق اعتمادهم الى الرئيس كممثلين لامة مستقلة ورفض سيوارد مقابلتهم لان الاتصال المباشر بهم يعني الاعتراف باستقلال حكومة الولايات المنشقة . وكان يتصل بهم بصورة غير رسمية بواسطة جـون كميل الذي كان لا يزال عضواً في المحكمة العليا على رغم انسحاب ولايته الاباما من الاتحاد فأتبع معه سياسة الترضية التي كانت دأبه ، وأكد له ان قلعة صمتر ستخلى ، راجيا مقابل ذلك ابداء بعض التسامح من قبل الجنوب في سبيل حل سلمي . وافترض المندوبون الثلاثة ان سيوارد ينطق بلسان لنكولن ، واعتبروا تأكيداته الشخصية المتكررة بمثابة تعهد وثيق ، بما حدا بالولايات الجنوبية فيما بعد الى ان تتهم الرئيس بالحنث بقسمه .

لم يكن ما بدا من التردد على لنكولن ناتجاً عن محاولة تجنب العمل كما الحال مع بكنان ، وانما كان محاولة لتجنب الاخطاء وقد اراد درس الحالة عن كذب فارسل غوستاف فوكس الى قائد الحامية اندرسن ، كما ارسل صديقه وارد لامون والمحامي استفان هيلبت الى مرفأ تشارلستون لتقدير اتجاه الشعور الشعبي هناك . وبعد ان درس لنكولن المشكلة من جميع وجوهها ، تبين له ان من اللازم تو كيد سلطة الاتحاد ، والا فقد ثقة الاتحاديين في الشمال والجنوب على السواء . وعن له ان يثبت تلك السلطة في قلعة بيكنز في فلوريدا ، لا في جو شارلستون المكهرب . فاذا استطاع تعزيز قلعة بيكنز ، فلا بأس اذ ذاك من اخلاء قلعة صمتر بحجة ان ذلك كان تدبيراً عسكرياً ضرورياً وكانت لهذه الخطة ميزة اخرى . فقد رفض مؤتمر فرجينيا الرفض ما دامت حكومة الاتحاد تنزع الى استعمال القوة ضد كارولينا الجنوبية ، مما يؤثر في تقرير مصير ولايات الرقيق الاخرى . وعلى امل الاحتفاظ بولاية فرجينيا ، رتب لنكولن مقابلة مع جون بلدوين العضو الاتحادي في مؤتمر فرجينيا ، ووعدده سراً

بالجلاء عن قلعة صمتر اذا ارفض مؤتمر فرجينيا . وإن كسب ولاية مقابل قلعة لتجارة رابحة ، ولكن هذا لم يعده بشي .

وفيا كان منهمكا في تلك المشككة ، كان طلاب الوظائف يرهقونه ولا يتركونه لحظة يتفرغ فيها للشؤون الهامة ، كما اكتظ البيت الابيض بطلاب السحت ، حتى شبه نفسه برجل يؤجر منزله من الطرف الواحد ، بينما كان الطرف الآخر يحترق . ولم يكن في وسعه ان يقلب لهم ظهر المجن ، بل كان من الزم الامور آنذاك وحدة الحزب وارضاء اعضائه بالوظائف .

كانت البلاد تراقب حركات لنكولن باهتمام لكي تستشف سياسته . وقد بدا كأن لا سياسة له . واطهر كثير من محوري صحف الشمال بعض العداء ، وقل عدد من كان يثق بالحكومة من الشعب . ووجد سبورده نفسه في حيص بيص ، لا سيما مع ممثلي الجنوب الثلاثة ، كلما مر الوقت دون انسحاب حامية صمتر . وفي اول نيسان ارسل وزير الخارجية الى لنكولن كتاباً بعنوان « بعض الآراء لمطالعة الرئيس » وقد جاء فيها ان الادارة الحكومية بعد مضي شهر لم تكن لها سياسة داخلية ولا خارجية . وان التأخر اطول من ذلك سيكون وبيلاً . ويجب انجاز التعيينات المحلية فوراً ، وارجاء الالم منها . اذا اقتضى الامر ، اما المسألة الماثلة امام البلاد فيجب ان تتغير من الرقيق الى مسألة الاتحاد او عدمه ، وذلك بالجلاء عن قلعة صمتر فقط والاحتفاظ بالاماكن الاخرى في الجنوب ، فاذا تم ذلك فسيحاول سيوارد توحيد البلاد في حرب خارجية ، او على الاقل بابداء المقاومة النشيطة للتدخل الانكليزي والفرنسي في المكسيك والتدخل الاسباني في سانتو دومينغو . واختتم تقريره بقوله انه مهما اتبع من سياسة . فيجب المثابرة عليها اما من قبل الرئيس او من احد اعضاء وزارته . ويجب وضع حد للنقاش . ومع ان هذا

الامر لا يقع ضمن دائره اختصاصه ، الا انه لا يحاول تجنب المسؤولية او اخذها على عاتقه .

ولا شك في ان لنكولن قد دهش من ذلك الخطاب ، الذي كان بمثابة الاقتراح على الرئيس بان يقف جانبا ويخول وزير خارجيته سلطة دكتاتورية فان ما جاء فيه من الاقتراحات المتطرفة يدل على ان سيوارد قد فقد اتزانه تحت ضغط تلك الظروف . بيد ان لنكولن لم يجزع و ابى ان يخيفه احد . فارسل اليه جوابا رصينا قال فيه انه في احتفاظه باملاك الدولة ومواقفها انها كان يتبع السياسة التي اعلنها في خطاب تنصيبه الذي وافق عليه سيوارد . ولم يشير الى مقترحات الحرب الخارجية . وهكذا رد وزيره الى صوابه برفق دون ضعيفه ، مختتماً بأنه سيسير الحكومة بمشورة جميع اعضاء وزارته . ولم يشير احد منها الى هذا الحادث فيما بعد ، ولم يعلم به احد الا بعد ان نشر نيكولي وهاي تلك الرسائل بعد ثلاثة وثلاثين سنة من تاريخها . ويبدو من وجود كتاب لنكولن بين اوراقه انه لم يرسله الى سيوارد . ولعله كان ينوي ان يرد على وزيره كتابه ثم غير رأيه ، ولعلها تقابلا وتحادثا شفهيًا . ولا شك ان ذلك كان افضل ، لما كان قد ينبجم عن نشر الكتب من عواقب وخيمة في تلك الظروف العصيبة ، وتقبل سيوارد خذلانه برجولة ، فقد بدأ ان يفهم رئيسه . وكذلك كتب الى زوجته بعد شهرين يقول : « ان القوة التنفيذية والحبوية لصفات نادرة . وان الرئيس لأفضل واحد فينا » .

امر لنكولن بتجهيز حملتين ، احدهما لتعزيز حامية قلعة بيكنز ، والثانية لتقف على اهبة الاستعداد للتوجه الى قلعة صمتر اذا كانت الظروف مؤاتية . فاذا نجحت حملة بيكنز صار في امكانه اخلاء صمتر دون حرج بيد انه علم في ٦ نيسان ان اوامره بتعزيز قلعة بيكنز قد احبطت ، اذ ان بكنان كان قد وعد سلطات فلوريدا بعدم تعزيز تلك القلعة الا اذا

هوجمت ، ولذلك رفض القائد البحري في ذلك المرفأ السماح بتزول الجنود الى البر . فلم يبق امام لنكولن الا انجاد قلعة صمتر فوراً ، وصدرت الاوامر الى الحملة بالتوجه حاملة الجنود والمؤن ، ولكنه ارسل في نفس الوقت رسالة خاصة الى حاكم كارولينا الجنوبية يخبره فيها انه قد اعتمز تزويد القلعة بالمؤن فقط ، فاذا لم تلق المحاولة مقاومة ، فلن ينزل الى القلعة جنود ولا اسلحة ولا ذخائر . وحمل الحاكم الرسالة ليستشير سلطات الولايات المنشقة في مونتغمري ، ومع ان هذه السلطات لم ترد الحرب . الا ان تزويد صمتر بالمؤن يعني بقاء جنود حكومة الاتحاد في مرفأ شارلستون ، وهو امر غير محتمل ، ولذلك صدرت الاوامر الى الجنرال بوريفار ان يطالب باخلاء القلعة . وفي ١١ نيسان بعث هذا بثلاث ضباط الى قائد الحامية اندرسن يطلب استسلامه . فاجاب كتابة انه لا يسعه الاذعان ، و اضاف شفها قوله انه قد اوشك على الموت جوعاً . وثبوتت الاشارات بين شارلستون ومونتغمري ، وعلى اثرها طلب من اندرسن ان يحدد وقتاً للجلاء . فأجاب بان ذلك سيقع بعد اربعة أيام إلا اذا وردته من حكومته تعليمات او مؤن إضافية . ولم ترض السلطات عن جوابه المشروط ، فاعلن رسل بوريفان ان المدافع ستطلق قذائفها بعد ساعة . وفي الساعة الرابعة والنصف من صباح ١٢ نيسان أطلقت اول قذيفة وانفجرت فوق القلعة وتلتها القذائف تترى ، وقد ظلت المدافع المحيطة بالقلعة تصب عليها حممها طيلة النهار . وكانت الحامية ترد بالمثل وقد وقفت سفن الأسعاف على مقربة منها دون ان تشترك في المعركة ، لان سيوارد في محاولة يائسة لتجنب الاشتباك في قلعة صمتر ، كان قد حول اتجاه اقوى سفينة في الحملة الى قلعة بيكنز . وقد ابلت حامية اندرسن بلاء حسناً ولكن احد المدافع انفجر واسكتت الاخرى تحت وطأة القنابل ، فتهدمت الجدران وامتلا المكان بالدخان واشتدت الحرارة

عند ما اندلعت النيران نحو مخزن البارود . وقد نفذ الطعام ومع ذلك
ظلت الحامية تدافع اكثر من ثلاثين ساعة . وتقدم بوريفار بشروط
كريمة فاستسلم اندرسن ، وكان ذلك يوم الاحد في ١٤ نيسان ، حين خرج
مع افراد حاميته التسعين مرفوع الرأس موفود الكرامة بينما قرعت
الطبول لتشيعهم الى احدى السفن التي حملتهم الى نيويورك ، كما شيعهم
مدفع بخمسين طلقة . وكانوا يسرون منتصبى القامة والشرر يتطاير من
اعينهم . واذا كان الشمال قد اساء تقدير رغبة الجنوب في الاستقلال فان
الجنوب قد اساء أيضاً فهم شدة احترام الشمال للاتحاد .



الفصل الثالث عشر حرب في سبيل الديمقراطية

ما ان شاع خبر استسلام اندرسن ، حتى اكتظ البيت الابيض بالزائرين المستفسرين . واكد رجال الكونغرس ولاءهم للرئيس وتعهدوا بتأييد ولاياتهم له وتبرعت المصارف والشركات والافراد بتقديم المساعدة . فدعا مجلس وزرائه الى عقد جلسة ، واعد منشوراً طلب فيه من الولايات ٧٥ الف متطوع لخدمة ثلاثة اشهر ، والى عقد دورة خاصة للكونغرس في ٤ تموز ، واهاب بجميع المواطنين الى المساهمة في هذا المجهود الرامي الى صيانة الاتحاد القومي ودوام الحكم الشعبي . وقضى ساعتين مجتمعاً مع دوغلاس الذي درس الوضع العسكري و اشار الى بعض المواقع الاستراتيجية التي يجب تعزيزها ، ووافق على منشور لنكولن وود لو انه دعا للتطوع ٢٠٠ الف رجل . ولم يحضر تلك المقابلة احد سوى جورج اشمون عضو الكونغرس ، الذي اعجب باتفاق الآراء بين ذينك المتنافسين السابقين . فعن له الابراق ببيان عن تلك المفاوضات يرسله مع منشور الرئيس بغية استمالة الديمقراطيين المترددين الى تأييد الحكومة . فقصد هو ودوغلاس الى فندق ويلارد حيث اعد الاخير بياناً . قال فيه انه بينما يعارض الحكومة سياسياً ، يؤيد الرئيس في كل ما يصطنعه لصيانة الاتحاد .

ولبي الشمال نداء الرئيس وكانت الاجتماعات تعقد في كل مكان تتلى فيها الخطب الحماسية ، وتنظم المواكب والمهرجانات وتصدح الفرق الموسيقية وتترفع الاعلام فوق المنازل والمباني العامة . وعقد في نيويورك اجتماع كبير حضره عشرون الف نسمة ، وقال فيه روبرت ووكر الذي كان سابقاً حاكم ولاية كنساس : « مهبا بلغ حي لحزبي فان حي لوطني اعظم . يجب ان يدوم هذا الاتحاد ، فلا تأفل من علمه نجمة ولا ينسحي منه خط » . وفتحت مجاس الولايات والمدن اعتمادات للجيش ومعداتها . ولم يجرؤ أنصار الانشقاق على الظهور في الشوارع . ولم يأل دوغلاس جهداً في تعزيز النزعة الاتحادية . قال ان المقترح آنذاك كان فصل الولايات المتحدة الى دولتين . وانه يخشى ان تتكرر العملية كما فشل احد الطرفين في الانتخابات التالية . ولم يعبأ بالعلل التي انتابت جسمه الهزيل فسافر الى ولاية الينوي ليخطب في مجلسها ، وقد اكتسب بنفوذه كثيراً من المؤيدين للاتحاد . وكثيراً ما كنت تسمع احدهم يقول : « اني ديمقراطي وقد اقتربت ضد لنكولن ، ولكنني سأقف الآن الى جانب وطني » . واستجاب المتطوعون الى دعوة الرئيس ، فكانوا يصطفون في شوارع المدن وحقول القرى ويسيرون على توقيع الناي وقرع الطبول . ولما سئل حاكم اوهايو عن هدد من يمكن تقديمهم ، اجاب بانه سيكون اكبر عدد يمكن قبوله ، وابرق زكريا تشاندلر من مشيغان يقول بانه سيجهز الفرق خلال ثلاثين يوماً . وقد فرض على ولاية انديانا خمسة الاف متطوع ، فابرت تقول ان المتطوعين المسجلين بلغوا عشرة آلاف وهكذا قل عن سائر الولايات الشمالية ، حتى اضطرت وزارة الحربية الى رفض بعض الفرق لقلّة ما لديها من معدات ، فكان لنكولن احياناً يقبلهم كيفما كان ، ارضاءً لذوي النفوذ ، مما دعا مجلة هاربر الاسبوعية الى القول : « اذا لم يكف هذا التأييد وهذه الموارد لتقصير اجل الحرب ، واعلاء شان السيادة

الحكومية في جميع البلاد ، فان اللوم انما يقع على ابراهيم لنكولن .
بيد ان الدعوة لحشد المتطوعين حفزت الجنوب على توحيد العمل ، وعلى
اضمحلال روح الاتحاد في ولايات الخليج ، وعلى تحدي الرئيس ، فقد صرخ
اسكندر ستيفنز يقول : « قد يحمل علينا لنكولن بمتطوعيه الـ ٧٥ الف ،
ولكننا سندافع عن بيوتنا وآبائنا وامهاتنا وزوجاتنا واخواتنا
وابنائنا وبناتنا . وسندعشده له مليون شخص اذا اقتضى الامر ، فأذا
حصدوا عن بكرة ابيهم حشدنا المليون تلو المليون الى ان يفنى آخر رجل
في الجنوب » .

اجاز مؤتمر فرجينيا قراراً بالانسحاب من الاتحاد ، بعد يومين من
توزيع منشور الرئيس . ورحب الحاكم بجيوش حكومة الولايات المنشقة ،
دون ان ينتظر تصديق القرار . وهاجم افراد الاحتياطي في الولاية داراً
للاسلحة والذخائر تخص حكومة الاتحاد ، فأحرقوا ما فيها واجبروا
الحامية على الانسحاب . وكان منزل القائد روبرت لي يقوم على رابية
تشرف على العاصمة . وكان الجنرال سكوت يعتبره اقدراً ضابطاً في الجيش
وفي صباح ١٨ نيسان ركب لي جواده ودخل العاصمة ليعاثر سكوت
وفرانسيس بلير . وبعد ان قابل كلاهما على حدة ، ذكر لي انه اعتذر
عن قبول قيادة الجيش الذي سيحلب الى الميدان ، قائلاً بصراحة انه ،
وإن كان يعارض الانشقاق والحرب ، لن يشترك في غزو ولايات الجنوب
وكانت جميع ولايات الجنوب ، القصوى منها والوسطى تلوم لنكولن
وتعتبره المعتدي في حادثة قلعة صمتر . فقام اصحاب النفوذ في ولايات
اركنساس وكارولينا الشمالية بالانضمام الى فرجينيا وسائر الولايات المنشقة ،
دون انتظار اتخاذ قرارات رسمية بالانفصال . وكانت الولايات الوسطى
الواقعة على الحدود الفاصلة بين الشمال والجنوب ، تعاني الامر من جراء
هذا النزاع . فكانت الاسرة الواحدة منقسمة على نفسها ، يتشبع بعض

أفرادها للشمال والبعض الآخر للجنوب . وفي مدينة لويزفيل مثلاً سار متطوعو الاتحاد في أحد جانبي الشارع ، بينما سار متطوعو الحكومة المنشقة على الجانب الآخر . وكثيراً ما كان القطار الواحد يحمل في إحدى عرباته متطوعي الاتحاد ، ويحمل في الأخرى متطوعي الجنوب . وليس من مثال أصدق من أسرة زوجة لنكولن على ذلك الانقسام . فقد كان أخوها الأكبر وأحدى أخواتها مواليين للاتحاد ، بينما كان أخ آخر وثلاث أخوات متزوجات من ضباط جنوبيين ، يشايعون الجنوب . في التاسع عشر من نيسان ورد إلى لنكولن نبأ يفيد بأن فيلق مساتشوزيتس السادس اعتدى عليه الجمهور في بلتيمور ، فقتل أربعة من الجنود وأصيب عدد آخر بجراح ، كما أصيب عدد من الشعب . ووصل ذلك الفيلق إلى واشنطن في عصر ذلك النهار ، ونقل الجرحى إلى المستشفى . وفي اليوم التالي أم البيت الأبيض وفد من بلتيمور ، يطلب من الرئيس إيقاف مرور الجنود بمدينةهم . فأجابهم بأنه لو تنازل لهم عن ذلك ، فلسوف يعودون إليه في اليوم التالي يطلبون عدم مرور الجنود حول المدينة . ولما احتجت ولاية ماريلند بان تربتها دنست ، قال « انه لا بد له من الجنود ، وانهم ليسوا بالمناجذ ليحفروا تحت الارض ، ولا بالطيور ليطيروا فوقها . ومع ذلك كان لنكولن يقدر أهمية الاحتفاظ بالولايات الوسطى كما كان يقدر ما تعانيه من مصاعب ، فاخذ يسير مقتضيات الساعة ، فمنع عبور الجنود مؤقتاً مدينة بلتيمور . وكانت ولاية ديلاوير محاطة تقريباً باراض حرة ، فلم تحاول الانفصال ، اما في ميسوري فكانت الاراء حول الرقيق متباينة ، والاتحاديون منشقين على انفسهم ، وكان حاكمها ضالماً مع الجنوب ، فانشأ مجلساً منشقاً ووافق على الانضمام الى حكومة الجنوب . بيد انه لم يكن لديه مال ولا سجلات رسمية ولا سيطرة على جباية الضرائب ، وقد لقي مقاومة عنيفة على يد الضابط ثنائيل ليون

وفرنسيس بليز الاصغر ، فظلت ميسوري ضمن الاتحاد ، ولو انها
كابدت قلاقل داخلية طيلة الحرب الاهلية ، وكانت ولاية كنتكي من
أهم المواقع الاستراتيجية ، لكونها متاخمة لولايات اوهايو وانديانا والينوي
الحررة . فلم يأل لنتكولن جهداً للاحتفاظ بها ، وذلك بتغذية روح الاتحاد،
بكل حيلة وحذر ، لارتباطها جغرافياً وتجارياً مع الجنوب . فلما رفض
حاكمها تلبية الدعوة الى التطوع ، عين لنتكولن روبرت اندرسن قائداً
حامية صمتو سابقاً ، ضابطاً للتطوع في سنسناتي القريبة من حدود كنتكي
وكان اندرسن نفسه من ابناء تلك الولاية . وكان لنتكولن يشجع تطوع
الحرس المحلي ، ويوزع الاسلحة على من اثبتوا ولاءهم . وكان من نتيجة
ذلك ان كنتكي في الانتخابات العامة التي جرت في حزيران انتخبت تسعة
اعضاء اتحاديين للكونغرس وعضواً واحداً من المنشقين . ومع انها كانت
في الحقيقة اقرب الى الحياد منها الى الاتحاد ، فان الرئيس كان يفهم مشاعر
اهالي تلك الولاية التي كانت موطنه الاصلي ، وكان يعرف كيف يعالجها
وفي ايلول وعلى رغم نقض الحاكم ، اتخذ مجلس الولاية قراراً بأن جنود
حكومة الجنوب قد افسدوا حياد الولاية ، وانه يجب طلب المعونة
والحماية من حكومة الاتحاد . وما حل شهر كانون الاول ، حتى اطمان
لنتكولن الى ان كنتكي كانت معه قلباً وقالباً .

استبد الفزع بالعاصمة ، فبعد سقوط قلعة صمتو لم تصلها فرقه واحدة من الجنود
بينما كان يعسكر ١٥ الف جندي من جنود حكومة الجنوب قريباً منها .
ونشرت صحيفة رتشموند انه لم يكن ثمة سوى تصميم واحد هو الاستيلاء
على العاصمة مهما كلف الامر . وقالت ان ذلك القفص القدر يجب ان يطهر
بالنار ، وان الجنوب يستطيع ذلك ولن يجول دونه سكوت الخائن ولا
لنتكولن الوحش . وأن غضب الشعب المستفز سيعلم قرد الينوي كيف
يعود القهقري عن ولايات الجنوب خاسراً مخذولاً . وقام المدشقون في

في ولاية ماريلاند بنزع الخطوط الحديدية وقطع الاسلاك البرقية الموصلة الى واشنطن ، التي كان يجرها يومياً عدد لا يستهان به من ضباط الجيش والبحرية ومئات من الموظفين المدنيين . وكتب أحد المرسلين يصف الحالة فذكر ان عدد نزلاء فندق ويلارد انخفض من الالف الى الخمسين ، وقد اقل معظم المخازن ، ووضعت أمام المباني العامة متاريس من براميل الدقيق والاسمنت وأكياس الرمل ، ولم يعرف أحد بالضبط عدد الخونة في داخل العاصمة الذين كانوا يتربصون بها الدوائر . وكتب سيورد يقول ان السخط كان كامناً في كل دائرة ومكتب وفي كل فرقة برية وسفينة حربية وفي مكتب البريد ودار الجمر . وكانت لنكولن على أحر من الجمر ينتظر وصول الجنود التي وعد بها ، فقد تفر همة الشمال إذا سقطت العاصمة . وفي أصيل ٢٥ نيسان دوت صفارة القاطرة تمزق السكون المخيم ، فهرع الناس الى المحطة ، فرأوا فرقة نيويورك السابعة تنزل من العربات ، وكانت قد رمت الخطوط الحديدية المخربة في طريقها الى العاصمة . وعلى رغم التعب البادي على أفرادها فقد ساروا في الشوارع بأعلامهم على توقيع الموسيقى . وتلا ذلك وصول ١٢٠٠ رجل من فرقة مساتشوزيتس وغيرها أيضاً من بنسلفانيا حتى بلغ المجموع عشرة آلاف رجل في ٢٧ نيسان بالاضافة الى من كانوا على الطريق .

بأنسحاب فرجينيا واركنساس وتنسي وكارولينا الشمالية من الاتحاد ، تضاعف سكان حكومة الجنوب ومواردها الاقتصادية ، كما زادت مساحة أرضها الثلث إذ صار عدد الولايات المنشقة إحدى عشرة وكان لها ساحل طويل ذو موانئ عميقة ، وجبال وسهول خصبة ، بما نوع مناخها . وكان فيها من الانهار والسكك الحديدية ما يسهل سرعة تنقلات الجنود . وكان الجنوب احسن استعداداً وتنظيماً من الشمال فقد أدركت الولايات المنشقة منذ البداية امكانية نشوب الحرب ، فشرعت تعي الجنود والمعدات

والذخائر . وكان ينعم بقيادة عسكرية ممتازة ، لان كثيرين من الضباط احترفوا الجندية ، على عكس ضباط الشمال الذين كثيراً ما كانوا يستقبلون ليزاولوا أعمالاً أخرى في الحقل المدني الذي كان اوسع مجالاً مما في الجنوب كما كان يضم عدداً وافراً من ابرز الضباط الذين تخرجوا في وست بونيت . الا ان الشمال كان أهلاً بعدد اكبر من السكان . كان فيه عشرون مليوناً من الاحرار مقابل ستة ملايين من البيض وثلاثة ملايين ونصف من العبيد في الجنوب . وكانت خطوطه الحديدية اكثر انتظاماً وكفاءة لتدليل بعد المسافات ، وقد فاق في ثروته وصناعته موارد الجنوب ، الذي لم يكن فيه عند بداية الحرب سوى مؤسسة واحدة للصناعات الثقيلة في ريتشموند ومع ذلك فقد مون الجنوب نفسه بما استحوذ عليه من العتاد والذخائر من دور الاسلحة الحكومية ، وما اشتراه من الخارج .

وكان الشمال يتفوق ايضاً بالقوة البحرية فحالما اعلن الرئيس الحصار ، قام وزير البحرية جدعون ويلز ببناء اسطول قوي يستطيع حماية ٣٥٥٠ ميلاً من الساحل ، وقد بنيت بوارج جديدة وجولت السفن التجارية والمراكب الى قطع حربيه تعمل في البحر وفي الانهار . وكان التنظيم الحكومي في الشمال اكثر استعداداً لمواجهة متطلبات الحرب ، اذ كان الشمال يعمل كوحدة ، بينما كانت ولايات الجنوب تعتبر نفسها وحدات مستقلة عن بعضها وقد تآزرت في سبيل غاية مشتركة . وكان ديفس رئيس حكومة الجنوب كثيراً ما يلقي عنقا ومقاومة من حكام الولايات واعضاء الكونغرس الذين كان كل منهم اشد ولاء لولايته الخاصة . كان ديفس اوسع خبرة في الادارة من لنكولن ، ولكنه كان تنقصه الحرارة الشخصية . وكان ابن فلاح أمي ولكنه احتل منزلة رفيعة بين مزارعي الجنوب ، وكان شديد الطموح ، لم يجلد في حياته عبداً ، ولا نبره بلقب ساخر كما كان انايباً مرهف الحس يكره المعارضات وقلمها يقبل النصيح .

وقد تخرج في وست بونيت ، وبرهن على بسالته في حرب المكسيك ، وعلى كفاءته الادارية عند ما كان وزيراً للحربية . وعلى رغم اخلاصه للنظام الاجتماعي في الجنوب فقد ظل يرتاب في حكمة الانفصال حتى النهاية ، ولم يخادع نفسه من حيث قوة الشمال فقد اختبر بسالة اهله في حرب المكسيك ، وأدرك ان النزاع سيكون مريراً . اما الجنوب فقد امتاز بقدرته على الحرب ، فقد اعتاد الصبيان فيه ركوب الخيل والرمي بالرصاص وقد غدت تقاليد الفروسية روح الشجاعة والتجدي في ابناؤه . ولما كان العبيد يقومون بمعظم الاعمال ، فقد كان للبيض متسع من الوقت للتفرغ للقتال دون الاخلال باقتصاديات البلاد ، على عكس الشمال حيث كان المجندون يؤخذون من الحقول والمصانع . وثمة ميزة اخرى للجنوب ، وهي ميزة نفسانية . فمع ان الرق كان السبب في خروجه على الاتحاد ، فقد اخذ يجارب لا في سبيل الرق بل في سبيل الاستقلال وعملت الانتصارات الاولى على تغذية كبريائه ، وعلى تعزيز اعتقاده بافضلية نظامه الاجتماعي وعدالة قضيته . ولم يشعر الشمال بشي من وحدة القصد ، فان حريرتهم لم تكن مهددة بالخطر . ولم يريدوا ان يلعبوا دور الغزاة الفاتحين . فلما تبين لهم ان الانتصار يقتضي اخضاع الجنوب ، أخذ الكثيرون منهم يرتابون في فائدة اتحاد تحميه البنادق والحرايب . ووجد لنكولن ان من اصعب ما القي على عاتقه كان افهام الشمال المعاني العميقة لذلك النزاع ، وصيانة وحدة القصد ، واقناعه بنبالة تلك المهمة البغيضة .

لما اطمان لنكولن على سلامة العاصمة ولو مؤقتاً ، التفت الى تنظيم قواته المسلحة . فدعا في ٣ ايار ١٨٦١ الى زيادة ١٠ طوابير على الجيش النظامي تضم ٢٢٧١٤ رجلاً ، والى ٢٠٠٠ متطوع لمدة ثلاث سنوات والى تجنيد ١٨٠٠ بحار ، لكي يبلغ مجموع الجيش البري ١٥٦,٨٦٠ ، والبحري ٢٥,٠٠٠ . ودأبت مصانع الاسلحة على الانتاج ، كما طلب

من المصانع الخاصة انتاج المعدات الحربية ، وسمح بشرائها من اوربا .
وبدت غلى محيا لنكولن امارات عذابه الداخلي ، فلا يمكن تصور ما
شعر به هذا الرجل المسالم من الالم وهو يقود الامة الى حرب اخوية .
ولكنه لم يحجم عن تقرير حرب اهلية ، ففي هذه الحياة أمور جديرة
بتحمل العذاب والموت في سبيلها . وقد وجد ما كان ينشده من مغزى
تاريخ اميركا ، في فلسفة توماس جفرسون السياسية . و كثيراً ما سرح
بذهنه الى جفرسون واعوانه الخالص الذين اجتمعوا في قاعة الاستقلال ،
وبعثوا الامل الى البشر بتصريحهم المعهود « ان الناس خلقوا متساوين ،
وان خالقهم منحهم حقوقاً لا يمكن انتزاعها منهم ، ومن هذه الحقوق حق
الحياة والحرية ونشدان السعادة » . وكان معجباً بهذه الاسس التي بنوا
عليها تلك الامة ، حتى لو حدث يوماً ان رجلاً او حزباً انشأ مذهباً جديداً
بان لا حق لأحد في الحياة والحرية ونشدان السعادة سوى الاغنياء مثلاً
او البيض او الانكلوسكسون ، قام من بعده من يجد في تلك الوثيقة
العظيمة مصدراً للقوة التي تحفزها على الكفاح في سبيل الحق والعدل والرحمة
وكان يرى ان على اميركا ان تبرهن على ان البشر واجدون في هذه
المبادي اضمن طريق الى السلام والسعادة .

لم يكن لنكولن يدعي التبخر في تاريخ العالم ، ولكنه ادرك منذ
البدايه الاهمية العالمية لتلك الازمة الاميركية ، فمنذ الثورة الاميركية ،
كانت اوربا تتطلع الى تلك البلاد كمنك للديمقراطية ، وكانت الشعوب
المغلوبة على امرها تحاول الاستقلال مقتفية اثر اميركا ، بينما كانت
الطبقات المميزة هناك لا ترى في الديمقراطية اكثر من حكم الفوغاء ،
وتنذر بفشل نظريات اميركا السياسية لسخافتها ولما اجتمع الكونغرس
في ذلك العام ، قال لنكولن : « هذا هو كفاح شعبي محض . وهو من
وجهة حكومه الانحداد كفاح عالمي لصيانة شكل الحكومة التي تستهدف

قبل كل شيء تحسين احوال البشر ، ورفع الاثقال المصطنعة عن كواهلهم وتيسير اسباب الحياة للجميع منذ البداية الى النهاية ، و كثيراً ما قيل عن حكومتنا الشعبية انها تجريرة او اختبار . ولقد فرغ شعبنا من اقرار نقطتين ، هما النجاح في تأسيسها والنجاح في ادارتها ، ولم يبق سوى النجاح في صيانتها من خطر هذه المحاولة لقلبها . فعليه الآن ان يثبت للعالم ان من يستطيع اجراء انتخابات يستطيع ايضاً قمع ثورة ، وان اوراق الاقتراع وريثة شرعية لرصاص البنادق ، فاذا قررت اوراق الاقتراع امراً بطريقة عادلة دستورية ، فلا متسع للأستئناف الا الى اوراق الاقتراع نفسها في انتخابات تالية تلك هي امثلة السلام ، تعلم الناس ان ما لا يمكن نيله بالانتخاب لا يمكن نيله كذلك باخرب .

كان همه الاول انقاذ الاتحاد ، ومع ذلك كانت له غاية اخرى ، وهو ينظر الى المشكلة في ابعاد نواحيها . فان مصير الديمقراطية العالمية يتوقف على مصير الاتحاد . وكان يقول للكونغرس ، وهو يتذكر نسبة الوضع ان المؤسسات الاميركية الحرة هي التي رفعت الشعب الاميركي الى الذروة ، وسمت بافراده من الدرك الى الاوج والى ارفع مناصب الدولة .

وما انتصف شهر ايار حتى كانت بلتيمور فيها حامية من جنود الاتحاد ، وامتد خط الدفاع العسكري على ضفة نهر اوهايو حتى داخل ميسوري واكتظت العاصمة بالجنود الا ان معسكرات الجنوب لم تكن تبعد اكثر من ثمانية اميال ، وقد دخل بعضها ولاية فرجينيا ، وكانوا يتمرنون على مرأى من العاصمة ، فقال لنكولن انه لا مندوحة لهذه الحكومة عن معالجة ذلك الامر كلها امكن . وكان بين الطوابير الموجودة في العاصمة طابور من الشبان المتهورين حمر السراويل ، وقد جندهم من دائرة مطافي نيويورك شاب يدعى المر الزورث كان سابقاً طالب حقوق يعمل في

مكتب لنكولن ، وقد صحبه الى العاصمة وابدى المزيد من البراعة العسكرية . ونزل المر مع طا بوره في الاسكندرية قرب العاصمة ورد جيوش الجنوب الا ان علمهم ظل يرفرف فوق الفندق هناك ، فما كان من المر إلا ان اندفع يرتقي السلم لانزاله . وفيما هو عائد هجم عليه صاحب الفندق من مكانه المظلم وافرغ في صدره رصاص بندقيته ، ثم تحول ليقضي على فرنسيس براونل الذي كان يرافق المر ولكن هذا عاجله برصاصة ثم خرق احشاءه بجريته . وسارت جنازة المر من البيت الابيض ولم يستطع لنكولن حبس دموعه . وكتب الى والديه يقول : « ان فجيعتنا بولدكما لا تقل عن فجيعتكما به . وعلى امل ان لا أعتبر متطفلا على حرمة حزنكما عليه ، فاني اتقدم بهذه الكلمة مشيداً بذكري صديقي الشاب وولدكما الباسل ، وارجو ان يمنحكما الله اجمل الصبر والعزاء » . وبعد ذلك بتسعة ايام ورد نبأ بوفاة دوغلاس في شيكاغو ، فلقد ارهق نفسه في سبيل انقاذ الاتحاد . اخذ الشمال يلج في طلب سرعة العمل ، لانهاء الحرب . ودعا لنكولن مستشاريه العسكريين واقترح عليهم اقتحام ملتقى الخطوط في منساس ، حيث كانت جيوش الجنوب تهدد العاصمة . وعارض الجنرال سكوت في ذلك لقلّة تمرس الجنود في شؤون القتال ، واقترح ارسال حملة الى مسيسي تفرض الحصار على الجنوب حتى يجوع . بيد ان لنكولن كان يخشى عاقبة التأخر ، فأمر بالاستعداد للهجوم . وفي ٢١ تموز سار جيش الجنرال ماك داول وعدته ثلاثون ألفاً ، الى السهول الوعرة جنوب العاصمة وكان الجيش متعدد الازياء والاشكال ، من طرايش حمر وسراويل تركية فضفاضة ، الى قبعات مزينة بالريش كعرس غاريبالدي ، الى بدلات رمادية او زرقاء الى غير ذلك ، مع فصيل صغير من الجيش النظامي . فلما علم الجنرال جونستون قائد الجنوب بحركة تلك الجيوش تظاهر بالتحرك الى جهة أخرى ، ثم قاد رجاله سرّاً الى ملتقى خطوط منساس .

كان ذلك اليوم يوم أحد ، فذهب لنكولان الى الكنيسة كعادته .
ولما عاد سأل عن سير القتال ، فقيل له ان الجيشين التقيا على ضفة بولون
أحد ووافد نهر بوتوماك ، وان جيش الاتحاد يتقدم . فقصد الى وزارة
الحربية ليطالع البرقيات فور ورودها ، وبداله ان جيشه كسب المعركة
فخرج في نزهته المعتادة بعد الظهر . وفي نحو الساعة السادسة هرول سيورد
الى البيت الابيض ممتقع الوجه ، فقيل له ان الرئيس خرج ليمتنزه . ولما
سأل عما لديهم من الاخبار ، أروه البرقيات التي تنبئ بالانتصار . فقال
لهم سيورد انها غير صحيحة وانهم خسروا المعركة ، وان القائد ماك داول
قد تقهقر مع جنوده ، وقد التمس من الجنرال سكوت انقاذ العاصمة .
واوصاهم بالبحث عن الرئيس وبمخضوره فوراً الى الجنرال سكوت . ولما عاد
لنكولان هرع الى وزارة الحربية ، فاذا ببرقية تعلن ان الجيش قد تقهقر
فعلا وخسر المعركة ، ويأبى الانتظام ثانية .

وانخذت الجنود المبعثرة تصل العاصمة مع الفجر وقد ارتمى بعضهم اعياء
في الشوارع او على عتبات المنازل ، وخرجت النساء تصب لهم فداجين
من القهوة الساخنة . وتطلع لنكولان من نافذة البيت الابيض فارتسمت
في مخيلته مشاهد الهزيمة . وكان المطر ينهمر فلم يلحق بهم العدو . وما جاء
يوم الثلاثاء حتى كان جيش الاتحاد قد تحصن في مرتفعات آرلينغتون ، اذ
لم يكن الفرع شاملاً بقدر ما تخيله البعض ولما تقابل الرئيس والجنرال
سكوت ، قال الاخير : اني يا سيدي اعظم جبان في اميركا واني
استحق التسريح لاني لم اصبر على ان جيشي لم يكن مستعداً للهجوم .
فقال الرئيس : كانك تعني اني اجبرتك على هذه المعركة . فاجاب سكوت
متلصاً : اني لم اخدم في حياتي رئيساً اعطف منك علي ، ولم يعن للرئيس
قط ان يقبل صلحاً مبنياً على شروط الجنوب ، واكنه ادرك انها حرب
ضروس وكسبها صعب المنال . وقد ادرك الشاعر والت ويطان وقع تلك

المكافئة على الرئيس فكتب يقول : لقد ذهبت تلك الساعة وتلك الليلة ،
ومهما يكن من امر فانها لن تعودا . فقد استرد الرئيس وعيه وشرع منذ
تلك الليلة ينظم قواته ويستعد للمستقبل ويكفيه فضلا وفخراً انه صبر
على تلك الساعة وتلك الليلة المريرتين ، فلم ييأس ولم تكن له قناة ، بل
عقد العزم على انقاذ نفسه والاتحاد من ذلك المأزق .

وفي اليوم التالي دعا لنكولن الجنرال جورج ماك كليلان الى واشنطن
وعهد اليه بالدفاع عنها . ثم كتب رساله بعنوان : مذكرة حول السياسة
العسكرية اوجت بها هزيمة بولرن ، قرر فيها الاحتفاظ بالمواقع الراهنة
وتشديد الحصار ، واستبدال متطوعي الثلاثة شهور بمتطوعين لخدمة اطول ،
وارسال الحملات في آن واحد إلى داخل فرجينيا ومنطقة تنسي المواليه
وحوض المسبي . وتحول اليأس في الشمال الى عزيمة صادقة ، وتواردت
الجنود عبر العاصمة الى ما وراءها من معسكرات ، حيث قامت مدينة
عظيمة من الخيام .

اختار لنكولن المقدم جون فريمونت لقيادة جيوش الاتحاد في الغرب
وقررها الرئيسي في سانت لويس وكان هذا المرشح الجمهوري للرئاسة عام
١٨٥٦ . وظلت ولاية ميسوري مركزاً يثير القلق والازعاج وكان جيش
فريمونت تنقصه الاسلحة والعتاد الحربي فأبرق فرنك بليز الى لنكولن
يقول ان الامور في سانت لويس تنذر بالخطر ، ولكنها تتحسن لو ارسلت
الحكومة امدادات قوية الى فريمونت . ولكن فريمونت هذا ما لبث ان
اثار النعمة عليه . فقد استأجر لمقره منزلاً انيقاً ، واحاط نفسه بحاشية من
الضباط الاجانب . ووصلت الى لنكولن تقارير عمّا يجري هناك من
الفطسة والتبذير والمحاباة والفساد .

وكانت عصابات الجنوب لا تفتأ تجتاح ميسوري ، فاعلن فريمونت ان
الحالة تستدعي ان يتقلد قائد الجيش سلطات الدولة الادارية . فاعلن



وليم هنري سيوراد - وزير الخارجية
مونتغمري بليرز - وزير البريد



ادوين ماكاستون ستانتون - وزير الحربية



القاعة الشرقية في البيت الابيض ايام رئاسة لنكولن



الواجهة الجنوبية للبيت الابيض ايام رئاسة لنكولن

الاحكام العرفية ومصادرة املاك كل من حمل سلاحاً ضد الحكومة
وتحرير ماله من العبيد ، وكانت هذه الانباء تزيد من ارتباك لنكولن
لكن انصار تحرير الرقيق التطرفين اخذوا ينظرون الى فريمونت كبطل
من الابطال . وفسر لنكولن لفريمونت ان اعماله تلك قد تثير عدا
الموالين في الولايات الوسطى وجمهرة الديمقراطيين الشماليين الذين يؤيدون
حرباً في سبيل الاتحاد ، لاجل حملة على الرقيق . وكان وشبورن رئيس لجنة
تحقيق مرسله من قبل الكونغرس . فابرق الى لنكولن يقول : ان الامور
تزداد خطورة هناك وانها في نظره تتجه الى مقاومة سلطة الحكومة وان
كثيرين غيره يرون رايه ولقد اعذر من انذر . فقرر لنكولن انه لا بد
من ابعاد فريمونت ولكن ذلك ليس بالامر الهين ، فهو شخصية معروفة
عديدة ، فماذا لو تجدى اوامر الرئيس ؟

وبما اتخذ لنكولن من الاجراءات الاحتياطية لتهدئة الراي العام
ارسال منتغومري بليو لابلانغ حاكم مساتشوزتس ومحري بعض الصحف
الاسباب الموجبة لعزل فريمونت . وفي ٢٤ تشرين الاول ارسل الى
الجنرال كورتس كتاباً يتضمن رسالتين ، الواحدة الى فريمونت تعفيه
من القيادة ، والثانية الى الجنرال هنتر تعنيه مكان فريمونت . ولم يعلم
كورتس بمضمون الرسالة الى فريمونت ، ولكن التعليمات كانت تقضي
بتأمين ايصالها اليه ، الا اذا كان فريمونت قد سبق فكسب معركة او كان
على وشك الدخول في معركة ، وعندها يجب على كورتس ان ينتظر
تعليمات اخرى . اما الرسالة الى هنتر فلا تسلم اليه الا بعد ان يكون
فريمونت قد ابلغ امر تسريحه . وكان لنكولن يخشى فريمونت ، فأمر
في التحفظ والاحتياط ، واختار صديقه الامين ليونارد سويت لا يصل
التعليمات الى كورتس . ولكن قبل ان يصل هذا الى ميسوري كانت
نية تسريح فريمونت قد بلغت جرائد نيويورك . وخشي سويت وكدرتش

افتضاح الامر قبل الاوان ، فارسلا الضابط ماك كيني لتسلم رسالة لنكولن .
وتنكر هذا في زي فلاح ووصل الى معسكر فريمونت ، وطلب مقابلة
القائد ولما سئل عن غرضه اعتذر وأصر على مقابلة القائد شخصياً ، وقرأ
فريمونت رسالة لنكولن فقال لحاملها : كيف استطعت عبور خطوطي ،
ولم يسمح الرسول بمغادرة المخيم ، ولكنه فر ليلاً اذ اعطى كلمة السر التي كان
قد سمعها ، وتخلي فريمونت عن القيادة في اليوم التالي ، واثار تسريحه عاصفة
من الاحتجاج ضد لنكولن حتى من بعض زعماء حزبه ، مما اضطر لنكولن
الى اصطناع الحنكة السياسية للتوفيق بين مختلف الآراء المتباينة داخل الحزب .
كان مما يقلق بال لنكولن واعضاء وزارته ، الموقف الذي قد تقفه الدول
الاجنبية من حكومة الجنوب اذ ان الاعتراف باستقلال الجنوب قد يقضي
على الاتحاد ومن المرجح ان تحذو دول اخرى حذو بريطانيا في هذه المسألة .
فاختار لمنصب الوزير المفوض في لندن شارلز آدمز ، وقد سبق لوالده
وجده ان تقلدا ذلك المنصب وكانت مهمة هذا الوزير دقيقة حرجية ، لان
الطبقات العليا الانكليزية كانت تعطف على الجنوب ، وكان آدمز يعتقد
ان تلك الطبقات جد راغبة في انهيار الاتحاد الاميركي ، لانها كانت تخشى
انتشار المبادئ الديمقراطية في وطنها ، وكان اللورد جون رسل وزير
الخارجية البريطانية قد استقبل وفوداً من الجنوب بصورة غير رسمية
وكانت تعليمات سيورد الى آدمز تقضي عليه بالاحتجاج على اي اعتراف
بحكومة الجنوب رسمياً كان أم غير رسمي ، واعتباره عملاً ضاراً بالولايات
المتحدة ، وبقطع اتصالاته بالحكومة البريطانية مادامت تتعامل بصورة
رسمية او غير رسمية مع اعداء هذه البلاد ، وكان هذا النزاع بين الشمال
والجنوب امراً داخلياً محضاً في نظر الولايات المتحدة ، وكان لنكولن
لحسن الحظ قد اطلع على هذه الرسالة ، فخفف من حدتها بتغيير بعض الفاظها .
وفي نفس اليوم الذي وصل نيه آدمز الى لندن ، قررت الوزارة البريطانية

الاعتراف بالجنوبيين كمحاربين ، وفي اليوم التالي قرأ آدمز في الصحف اعلانا بالحياد يمنع حكومة الجنوب حقوق دولة في حالة حرب . مما يدعو الى الاعتراف بعلمها بعرض البحار ، وتحويل سفنها الحربية والتجارية نفس الامتيازات التي تتمتع بها سفن الشمال بالموانئ المحايدة ، والحق يقال انه لم يكن لبريطانيا مناص من ذلك ، فان الحصار الذي اعلنه لنكولن كان اعترافاً رسمياً لدى دول العالم بوجود حالة حرب ، كما فسرت ذلك فيما بعد محكمة اميركا العليا ، ولكن الشمال امتعض من تصرفات بريطانيا ولولم يعدل لنكولن التعليمات التي ارسلت الى آدمز لوقعت الحرب بينهما الاحالة .

وفي شهر آب عين رئيس حكومة الجنوب جيمس ماسون كمفوض خاص الى بريطانيا ، وجون سليدل الى فرنسا . وتوجه هذان الى هافانا بسبب الحصار المضروب ، وركبا منها سفينة بريطانية وما كادت تغلغ حتى لحقت بها بارجة اميركية وقذفت قنبلة فوق مقدمها ، ولم يكن القبطان قد اعتاد مثل هذه المعاملة فتجاهل الامر بالتوقف ، ولكن قنبلة انفجرت على مقربة منها فاضطرت الى ايقاف آلاتها ، وأنزلت ثلاثة قوارب من البارجة الاميركية ، وصعد ملازم الى السفينة البريطانية وطلب تسليم ماسون وسليدل وسكرتيريهما ، وكان قبطان البارجة شارلز ولكس يراقب ما يجري بالمنظار ، وعادت القوارب بالرجال الاربعة على رغم احتجاج القبطان الانكليزي ، ونقلوا الى بوسطن حيث سجنوا في قلعة وارن .

وسر الشمال بهذا العمل ، واحتفلت نيويورك بالقبطان ولكس ، كما فعلت بوسطن ايضاً ، واقترح مجلس النواب اهداءه وساماً ذهبياً ، اما انكاترا فكانت تتميز غيظاً ، واخذت تهيب اسطولها البحري ، ونقلت ثمانية آلاف جندي الى كندا .

كانت حكومة الاتحاد قد بعثت الى اوربا بشخص يدعى ويد لمقاومة دعاية الجنوب ، فحذر سيورد من شدة الغليان في لندن ، كما كتب الى

لنكولن قائلاً : اضرع اليك ان تتسامح إذا لم يكن قد فات الاوان ، وان تدير الحُد الآخر إذا لزم الامر عوضاً عن الرد بالمثل . وتوقع تجار نيويورك ان تهاجم بريطانيا مدينتهم دون انذار كما فعلت بكوبنهاغن اثناء حروب نابليون . وكان القانون الدولي يخول ولكس حق تفتيش السفينة وأخذها الى أحد الموانئ لمقاضاتها إذا عثر فيها على مهربات ، ولا يسمح له بنقل ما سون وسليدن من سفينة محايدة . وقد سبق لاميركا ان قاومت مثل هذا الاعتداء من قبل انكلترا . فلم يكن لها ان تدافع عن عمل القبطان ولكس ، كما لم يكن لبريطانيا ان تشكو منه . ولم يكن اختبار لنكولن الثاني قد امتد الى القانون الدولي ، ولكنه أدرك في الحال حقيقة المشكلة ، فاخذ يرتاب في مشرعية قضية اميركا ولم يشجع مظاهر الاغتياب بعمل ولكس .

ومع ذلك أنف لنكولن من التراجع امام التهديد البريطاني ، وحاول ايجاد حل يستر به وجهه . وكان يتوقع صدور الاحتجاج البريطاني ، فأشار على سيورد بوضع الاسباب الموجبة للقبض على وفد الجنوب ، كما قرر اعداد مذكرة تقترح فيها التحكيم او اطلاق السراح بشروط . وفي ٣٠ تشرين الثاني وضع رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها صيغة انذار نهائي يهدد بالحرب ، ولكن الامير البرت زوج الملكة فكتوريا كبح جماح حنقها ، ووافقت الملكة على خطته في تعديل صيغة الانذار ، وقد جاء فيه انه يسر حكومة جلاتها ان تعتقد بان الولايات المتحدة لا ترغب في فصح عرى الصداقة الطويلة بينهما ، وان ولكس استقل برأيه الخاص فيما اقدم عليه ، وان الولايات المتحدة ستطلق سراح المعتقلين وتقدم اعتذاراً مناسباً . إلا ان تلك الوثيقة لم تترك مجالاً للشك في نية بريطانيا في حالة ورود جواب غير مرضي . فاذا لم تدعن الحكومة الاميركية خلال سبعة أيام كانت التعليقات الى الوزير البريطاني في واشنطن تقضي بأن يقطع

العلاقات الدبلوماسية ويعود إلى لندن .

واجتمع لنكوالن باعضاء وزارته يوم عيد الميلاد للنظر في تلك المذكرة البريطانية . ولم يشر إلى مذكرته الخاصة باقتراح التعكيم أو اطلاق السراح بشروط ، فان قانون الامم يجعل الحق إلى جانب بريطانيا . ومع ذلك فان أحد الرواة يصف التردد الذي بدا على الرئيس وبعض الاعضاء في الاعتراف بتلك الحقائق الواضحة ، ودامت المناقشة من العاشرة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر دون الوصول الى نتيجة . وتم الاتفاق في صباح اليوم التالي على وجوب اطلاق صراح المعتقلين والسماح لهم بالقيام بمهمتهم وكانت حكمة هذا القرار تبتدي كلما تقدمت الحرب . ومع ان الطبقة الارستقراطية البريطانية ظلت تميل الى الجنوب ، فانها لم تجرؤ على الاستهانة بطبقات الشعب التي اعتبرت ان الشمال يكافح في سبيل الحرية البشرية . ولم تعترف بريطانيا قط بحكومة الجنوب كدولة مستقلة ، وكانت تقاوم محاولات امبراطور فرنسا لويس نابليون للتدخل المشترك او التوسط . وقد جهزت بعض السفن الحربية التابعة للجنوب في مواني بريطانيا ، إلا ان الحكومة أخيراً اوقفت هذا الحرق للحياة وعوضت عنه . وما جاء ايلول من عام ١٨٦٣ حتى كان الجنوب ساخطاً على تصرف بريطانيا هذا، فطرد جميع القناصل الانكليز من مدنه .



الفصل الرابع عشر

ظلال نجم على البيت الأبيض

كان لنكولن في موقف لا يحسد عليه ، يخشى الاضطراب في الغرب ، واعتراف الدول الاجنبية بالجنوب او تدخلها في الحرب ، ويحاول الاحتفاظ بالولايات الوسطى ، ف شعر بضرورة احراز نصر عسكري . وكان امل الامة يتمركز في القائد ماك كليان ، ولم يقلل كونه ديمقراطياً من حظوته لدى الرئيس الذي كان لا يفرق بين الحزبين في سبيل تدعيم المجهود الحربي . كان ماك كليان ربع القامة يميل الى القصر ، متين العضل ذا شعر أحمر وشخصية قوية ، ا كسبته ثقة جنوده به وكانوا يلقبونه بـماك الصغير او نابليون الصغير ، وكان فارساً ممتازاً والثاني في صفه عند ما تخرج في وست بونيت ، ثم زاول الاعمال الهندسية وانشاء الطرق والمرافئ ، وخدم تحت إمرة سكوت في حرب المكسيك . وكان أديباً وخبيراً في الفنون العسكرية وله فيها بعض المؤلفات ، كما زار اوربا كمرآب خلال حرب القرم .

فلما اندلعت الحرب اسندت اليه قيادة فرقه من الجيش النظامي ، وكانت صلاحياته تشمل اوهايو وانديانا وايلنوي واجزاء من فرجينيا الغربية وبنسلفانيا ، فقام بحملة ابقت غربي فرجينيا في يد الاتحاد . ولو استولى الجنوب على تلك المنطقة لكانت مصدر خطر للشمال . وكان

سكان الجبال وحوض نهر اوهايو لا يقتنون الا القليل من العبيد ، ولا صلة وثيقة لهم باهالي باقي فرجينيا . فلما انشقت الولاية ، عقدوا اجتماعين وانشوا حكومة ادعت السيادة على جميع الولاية . وأدرك ماك كيلان اهمية موقع تلك المنطقة عسكريا وسياسياً فجرد حملة نجحت في طرد الجنوبيين ، وطلب الاهلون قبولهم في الاتحاد . ولكن الدستور كان يحظر تقسيم ايه ولاية دون موافقتها ، فجابته لنكولن مشكلة جديدة ، اذ لم يشأ ان يخالف نصوص الدستور ، فأخذ يرجي ويسوف حتى عام ١٨٦٣ ، حين صدرت فتوى قانونية وافقت فيها « الحكومة المعترف بها » على الانفصال ، واصبحت فرجينيا الغربية الولاية الخامسة والثلاثين في الاتحاد . كانت انتصارات ماك كيلان في فرجينيا الغربية هي كل ما ظفر به الشمال . فلما عين قائداً لفرقة بوتوماك ساد الامة جو من التفاؤل . وكان في الخامسة والثلاثين من عمره فخيّل له الفرور انه منقذ الوطن . ولكنه في سره كان غير واثق من مقدرته ، كما يتجلى ذلك في رسائله الى زوجته . وانشأ ماك كيلان تحصينات منيعة للدفاع عن العاصمة ، واعد تنظيم جيشه ، واعتزم اخماد الثورة بجملة قوية مركزه . غير انه كان دقيقاً متحفظاً ، يدخل التحسين تلو الآخر على خطته ، غير عابئ بما يستغرقه ذلك من الوقت واخذ رجال الكونغرس والمواطنون يتملقونه ويتزلفون اليه ، كما وثق فيه سكوت وأذعن اليه لنكولن . بيد انه استحوذت عليه منذ البداية فكرة تفوق جيش الجنوب على جيشه في العدد . وكان لا يفتأ يطلب المزيد من الجنود ، وفي نفس الوقت لا يسلم بحاجة غيره من القواد اليهم . فلما طلب الجنرال شيرمن ٧٥ الف جندي اضافي في كنتكي ، حمل برقية شيرمن الى لنكولن وقال متمعضاً ان ذلك الرجل مجنون وبينما كانت جنوده تتمرن تحت الشمس المحرقة ، كان الجنوب يقيم المدافع على ضفة بوتوماك الجنوبية لتهديد منفذ العاصمة الى البحر ، وخرب

الحط الحديدي الرئيسي الذي يصلها - ا بالغرب . وفيما كان الشمال يغلي
كالرجل من تصلف الجنوب ، لم يقم جيش ماك كليلان الا بالاستعراضات
الفخمة .

كان ماك كليلان بطبعه يمث المشورة ويضيق بالسلطة العليا ،
فأخذ ينفر من الجنرال سكوت ، و كتب الى زوجته يقول عنه انه هو
العقبة الوحيدة في طريقه ، وانه لا يفقه شيئاً ، وان لا مندوحة من التخلص
منه واحتلال مكانه حتى ولو استحكمت العداوة بينها ، فالشعب يريد ذلك
ويعول عليه في انقاذ الوطن ، ولم يصدق سكوت ما كان يتوهمه ماك كليلان
من حرج موقفه ، فان قواته كانت في الحقيقة تفوق قوات الجنوب بكثير .
كما ان الشيوخ من متطرفي تحريم الرقيق ضاقوا به ذرعاً ، وتوجه ثلاثة منهم
الى واشنطن للاطلاع على سبب تأخره في الهجوم ، وهم : الشيخ ويد الفظ
الحاد الذكاء العصامي ، وزكريا شاندر ، وهو تاجر مليونير يد من الشرب
ويكره الجنوب كره ويد له ، ولايم ترمبول صديق لنكولن ومنافسه
القديم . وكان الاولان متعصبين للحزب لا يريان خيراً في اي عضو ديمقراطي
فكانا يرتبان في ماك كليلان منذ البدايه . ولم يكن الثالث على شاكتها ،
كما اتضح له ذلك فيما بعد ، ولكنه كان يعتقد آنذاك ان لنكولن ، كان
ينجح كرئيس في الظروف العادية بفضل استقامته ووطنيته ، ولكنه غير
كفو لمثل هذه الازمة . واجتمع الثلاثة ذات ليلة في منزل بلير ، وحاوروا
ماك كليلان ثلاث ساعات حول شن هجوم . فادعى هذا ان سكوت
كان يعرقل خطته وقصد الثلاثة الى البيت الابيض في الليلة التالية لحث
الادارة على الهجوم . وكانت مناقشة عاصفة ، طلبوا فيها من الرئيس ان
يأمر بالتقدم . فلما اعتذر عن ذلك بوجود عدم التدخل في شؤون القيادة
انسحب الثلاثة ساخطين . وأسرع لنكولن الى مقر ماك كليلان ، فالفاه
ناقما على عدم اصطبار الشعب ومتأثراً من اجتماعه بالشيوخ الثلاثة . ورثى له

لنكولن ، ولكنه أفهمه ان اولئك الشيوخ انما يعبرون عن ارادة الشعب التي لا يسهه ان يتجاهلها .

واقبل الحريف بايامه المشرقة ، وألح الشمال باقتحام ويتشموند ولكن لاحياة لمن تنادي . وخشي لنكولن من هذا التلكو اذ سيكون من الصعب حشد الرجال والاموال ثانية فيما لو دخل الشتاء وظلت العصاة مهددة فوقع في حيص بيص وتقدم سكوت ثانية يطلب اعفاءه من القيادة العامة بسبب عجزه وكبر سنه ، ووافق لنكولن وعين ماك كليلان مكانه واغتبط ماك كليلان بذلك وشيع سكوت الى المحطة ، وقال انه يشعر كأن عبئاً ثقيلاً أزيح عن كاهله ، وانه اصبح على اتصال مباشر مع الرئيس . وتبين للنكولن ان الحرب ستطول ، وان عليه ان يوسع المامه بالقنوت العسكرية . فاستعار عدة مؤلفات في الموضوع من مكتبة الكونغرس وطفق نيور ومقر ماك كليلان للتباحث معه . وبرم القائد بهذه الزيارات فاخذ يزوغ منها . وذهب لنكولن وسيورد ذات ليلة الى منزل ماك كليلان ، فقبل لهما انه في حفلة زفاف احد الضباط . ودخل ماك كليلان بعد نحو ساعة ، فاخبره الخادم عن زائريه ولكنه صعد رأساً الى الطابق الثاني . ولما سأل عنه بعد مضي نصف ساعة قيل انه اوى الى فراشه . وتغاضى لنكولن عن هذا التصرف ، ولكنه صار يدعو اليه كلما أراد مقابلته . ومل الناس الانتظار ، واصبحوا يرددون عبارة « كل شيء هاديء على البوتوماك بلهجة السخرية . وقام الصحافي هوراس غريلى بحملة في الصحف تلح في طلب التحرك .

امر ماك كليلان قوه صغيرة بالتقدم عبر نهر بوتوماك ، فنشبت معركة حادة وهروا لنكولن الى مقر القيادة وكان التغضن في وجهه قد ازداد وغارت وجنتاه . وقاده أحد الضباط الى مكتب البرق ، فما عم ان خرج منه منكس الرأس مضطرب الانفاس وقد انهمرت الدموع على خديه .

وخرج القائد من مكتب البرق في أثره ، واعلن ان ذلك الفصيل انهزم في المعركة وان الزعيم ادورد بيكر صديق الرئيس قتل فيها . ومرض ماك كليلان في اواخر كانون الاول ، وتوقفت الاعمال العسكرية . وقيل انه مصاب بزركام كما شاع انه مصاب بالتيفوئيد . وزاره لنكولن في بيته ليطمئن على صحته ، ولكنه لم يسمح له برؤيته . وعاد الشيوخ الثلاثة في مطلع عام ١٨٦٢ يشنون حملة شعواء ضد الادارة الحكومية . واتخذ قرار باجراء تحقيق في اسباب الهزيمتين ، مما ادى الى تعيين لجنة مشتركة تتولى سير القتال ، تألفت من : بن وين وزكريا شندلر واندراوس جنسون العصامي الذي لم يدخل مدرسة قط والذي ندد بالانشقاق وهو يصوب مسدساً محشواً الى سامعيه ، وصارت هذه اللجنة نواة لمتطري الحزب الجمهوري ، واداة للاشراف على الجهود الحربي . فكانت تستدعي القواد ليبنوا خططهم لها او يوضحوا اي خطأ او تقصير . وكانت السياسة هي التي تديرها وتوجهها . وكان يسند هذه اللجنة في مجلس الشيوخ شارلز سمنر من اشد انصار تحريم الرقيق ، ولا يمن ترمبول الذي كان يميل اكثر فاكثر الى اتخاذ سياسة صارمة تجاه الجنوب . اما في مجلس النواب فكان يظاها تاريوس ستيفنز رئيس لجنة « الطرق والوسائل » . ولم ينزعج لنكولن من اولئك الشيوخ المشاغبين ، فانهم على رغم تحزبهم الاعمى وخطائهم الشخصية كانوا يمثلون العنصر المقاوم للرقيق في الكونغرس .

قررت اللجنة في مطلع ذلك العام انه تجمّع لديها من البيّنات ضد ماك كليلان ما يكفي لعرضه على الرئيس وطلبت الاجتماع بالوزارة . وفي احدى الليالي الصافية الاديم توجه ويد وصحبه الى البيت الابيض والحوا على معرفة خطط ماك كليلان . وهاجم الشيخ ويد القائد العام بلا هوادة . لماذا لا يقاتل ؟ وهل هو ينزع سراً الى الجنوب ؟ وهل هو من مجندي الرقيق ؟ ام انه يعتزم استمالة ولايات الجنوب سلمياً ينصب نفسه رئيساً

او دكتاتوراً على اتحاد ميستبيح الرقيق ؟ واستدعى الرئيس في اليوم التالي امين الجيش الجنرال مونتغمري ماينز وخاطبه بقوله : ماذا اصنع ؟ فقد عيل صبر الشعب ، ونفدت اموال الخزينة ويقول وزيرها انه لا يستطيع ان يجبي غيرها ، والقائد العام مصاب بالتيفوئيد . فنصح له هذا بالتشاور مع رؤساء الفرق في جيش ماك كليلان . وروى أحد الذين زاروا الرئيس في تلك الفترة ، انه قال له انه يفكر في تسلم القيادة بنفسه . وكان اليأس هو الذي دفعه الى ذلك . فكان يتصفح التقارير الواردة من المباديين وعاد الى مطالعة الكتب العسكرية واستشهد باضطلاع كثيرين غيره من السياسيين بالقيادات العسكرية ، مع انهم لم يكونوا اعلم منه بالشؤون العسكرية . وقد برهن على سرعة تعلمه ، اذ ادرك قبل كثير من قواده ان امل الشمال في الانتصار انما يكمن في الانتفاع بتفوقه بالموارد البشرية والاقتصادية عن طريق هجمات منتظمة متسقة .

كان مثل هذه العمليات مستحيلا في اول الامر لان الاعتبار السياسية اقتضت نشر الجيوش في نقاط متباعدة . واعترف لنكولن بضعف سياسة ذلك الانتشار من الوجة الحربية ، ولكنه فكر في التعويض عنها باللجوء الى الهجوم كلما امكن . وكتب الى الجنرال دون كارلوس بويل قائد ولاية كنتسكي قائلاً : ان فكري العامة عن هذه الحرب هي اننا نتفوق بالعدد . وان العدو يتفوق بسهولة تركيز قوائمه في نقاط الانتحار واننا سنفضل لا محالة ما لم نجد طريقة للاستفادة من تفوقنا في العدو ، وذلك بتهديده بقوامة كبيرة في نقاط مختلفة في آن واحد ، بحيث يمكننا الهجوم على مركز او اكثر اذا لم يبدل العدو موقفه . اما اذا ضعف احد المراكز لتقوية الآخر ، فنتجنب مهاجمة المركز المعزز ، فنكسب الكثير باقتحام المركز الضعيف .

اخذ لنكولن يراقب الحركات العسكرية في الغرب ، فنصح للجنرال

هنري هالك قائد سانت لويس بان يستولي على كولمبس الواقعة على نهر
المسيبي ، بينما تقدم بويل داخل تنسي الشرقية حيث كانت جيوش الاتحاد
تعاني بلاء شديداً . غير ان ماك كيلان اغفل تنسيق الاعمال بين هالك
وبويل ، فلم يقيم الاخير بشيء لاسعاف أهالي تنسي الشرقية الموالين ، ولم
يكن هالك مستعداً للهجوم . فاستولى على لنكولن بأس شديد ، وبدأ
يدرك وجوب التنسيق في الدوائر العليا من الجيش ، لئلا يجبن القواد
امام المصاعب المحلية التي كان من المستطاع تذليلها بالاتحاد والتعاون .
واصغى لنكولن الى نصيحة ما يغز ، فاستدعى الجنرال ماك داويل
والجنرال وليم فرانكلن الى البيت الابيض . وعقد اجتماع كبير من
الوزراء والقواد ، واذا بماك كيلان يدخل عليهم على غير انتظار . وكان
شديد التكتم في الكشف عن خطته امام ذلك العدد الكبير ، ولكن
تبين فيما بعد انه كان ينبغي ترك مركزه امام واشنطن ، والهجوم على
رتشموند اما عن طريق اوربانا أو عن طريق شبه الجزيرة الواقعة بين
نهر يورك وجيمز . ولم يعجب لنكولن بهذه الخطة ، اذ كانت تتطلب
المزيد من التأخر ، ولكنه امر ما يغز بالاهتمام بمسألة النقلات الى شبه الجزيرة .
كان مما زاد في هموم لنكولن تقارير اللجنة المشرفة على سير الحرب ،
تفضح ما يجري في وزارة الحرب من فساد ومحاباة وشجع المتعهدين
ورداءة ما يقدمونه من متاع كاللبسة والبطانيات وحقائب الجنود
والمأكولات . ولم يربح كهيرون من وراء ذلك ربحاً شخصياً ، الا انه
غرز مركزه السياسي ، وكان سيء التدبير لا يحسن اختيار من يتعامل
معه وارتفعت الاصوات تطالب بعزله ولكن الرئيس قدر صعوبة المهمة
التي اضطلع بها كهيرون بسبب زيادة الجيش من ١٦٠,٠٠٠ الى ٥٠٠,٠٠٠
وحاول كهيرون بدهائه ان يخطب ود متطرفي تحريم الرقيق . فأدرج في
تقريره السنوي الى الكونغرس اقتراحاً مطولاً بتحرير العبيد واستخدامهم

كجنود . وكان ذلك مخالفاً لتعليمات الرئيس ، فابرق هذا الى كميرون
يطلب منه حذف الاقتراح . ولكن النصين الاصيلي والمعدل من التقرير
وصلا المطابع ، ونقم المتطرفون على لنكولن لمعارضته اقتراح كميرون
ولم يشر الرئيس الى تلك الحادثة فيما بعد ، وظل الرجلان على وئام في
الظاهر . ولما خلت الوزارة في بطرسبرج ، عين لنكولن كميرون لها ،
معرباً عن ثقته التامة به وتقديره له . ولم يكن ذلك من قبيل الرياء اذ
يبدو ان لنكولن قد شعر بميل حقيقي الى ذلك الرجل رغم اعوجاجه بما
اثار شتى الانتقادات نحو الرئيس ، واتهامه بقصر النظر والتساهل في تقدير
الافراد ، بيد ان شؤون السياسة والحرب ارغمت لنكولن على التعامل
مع مختلف اجناس الناس ، فكان ينشد فيهم حسناتهم ويتغاضى عن سيئاتهم .
كان من اشد نقاد الرئيس ، ادوين ستانتون الذي كان النائب العام في
عهد الرئيس بكنان ، ثم اصبغ المستشار القانوني للسكرتير كميرون .
وكان في اول الامر يحمل على الرئيس وينعته بابشع الالقاب . وكان
ماك كليان يضيق ذرعاً به ويعجب من سكوت الرئيس عنه ، فيعلل ذلك
بمحااجة الرئيس الى صفاته في وزارة الحربية ، ولذلك كظم غيظه وعينه في
مركز كميرون . وكان ستانتون اشبه بالعفريت قصير الساقين بديناً ذا
شعر كث اسود وشخصية متفجرة ، شديد النشاط البدني والعقلي ، يحدق
مهدداً بنظره القصير من خلال نظارتيه السميكتين . وكان عصامياً ابن
ارملة درس الحقوق وبرع بالمحاماة . وقد فضح محاولة احتيال على الحكومة
فاكسبها ملايين الدولارات ، مقاوماً كل اغراء او رشوة . وكان ديمقراطياً
مخلصاً لحزبه مؤيداً للاتحاد وكان الى كل ذلك داهية عنيداً قوي الارادة
يوجه مرؤوسيه حيث شاء دون هوادة . فلما اصبغ سكرتيراً للحربية في
مطلع عام ١٨٦٢ ، اكتشف ان احد طلبات الجيش كان قد اهل ، فما
كان منه الا ان ذهب الى دار الاسلحة وساهم بنفسه في اخراج المدافع

الثقيلة وشحنها بالعربات . وفي اليوم التالي قال ضابط دار الاسلحة انه
ارجأ ارسال المدافع الى ذلك اليوم . فنظر اليه ستانتون شزراً وقال له
لقد وصلت المدافع ، اما انت ياسيدى فقد انتهت خدمتك في حكومة
الولايات المتحدة .

ولم يستطع أحد أن يعقد معه صفقة سرية . وكان يطلب من المراجعين
مهما سميت منزلاتهم ان يتقدموا بطلباتهم مباشرة وباختصار على مسمع من
الجميع ، فيرد بنعم اولا ويصرفهم على الفور ، وكان يقول : سنتحرك
حالما افرغ من ادارة جهاز الدائرة وتطهيره من الجرذان وسد اجوارها ،
فعلى هذا الجيش اما ان يقاتل او ينهزم ، ويجب وضع حد للشغبانيا واطايب
المأكولات على نهر بوتوماك . وكان صديقاً حميماً لملك كبلان ، الا انه
عول على ارغامه على القتال . وكان يتردد على البيت الابيض في اية ساعة
من النهار او الليل وقد نما بين الرجلين نوع من الالفة صرف كل قواهما
الى العمل الذي كانا يضطلعان به ، وقد كف ستانتون عن لهجته السابقة
في التعامل على الرئيس ، كما كان الاخير لا يتدخل في شؤونه الا عند
الاقتضاء . وكان الرجلان على رغم ما بينهما من اختلاف في الشخصية ،
يسد أحدهما ما كان ينقص الآخر من الصفات . كما ان سرعة غضب
ستانتون افادت لنكولن ومكنته من تجنب الالتزامات والتعهدات ،
اذ بدا انه يشجع الاعتقاد انه لا يستطيع معارضة السكرتير .

اختل نظام البيت الابيض بانتقال اسرة لنكولن اليه . فقد كان له
ولدان احدهما في الثامنة والآخر في الحادية عشرة لا يكفان عن الركض
والصراخ في المجرات ، واقتحام مكتب الرئيس في ابان المؤتمرات يسألان
الزائرين عما يريدونه او يجمعان منهم الاعانات للجنة البـالاد الصحية التي
تجولت فيما بعد الى الصليب الاحمر . وكانت لديها مجموعة من الحيوانات
الاليفة ، كالقطط والمعزى والارانب وكاب صغير كان يجلس في حضن

الرئيس عند الطعام . وكان الولدان يستعملان سطح البيت المنبسط كظهر سفينة ، واصبحت العلية مسرحاً لحفلاتها الموسيقية . وقد اكتشفا ملتقى اسلاك الاجراس ، فيقرعانها جميعها بما كان يربك الخدم . وكانت لديها دمية تسمى جاك ترندي زي احدي الفرق العسكرية ، فعكما عليها بالموت بتهمة النوم اثناء الوظيفة . واعدوا قبراً لجاك في الحديقة ، فجاء البستاني وقال ان الرئيس قد يعفو عنه . وفعلا جاء الامر مكتوباً على ورقة رسمية ، وفيه ان جاك قد اعفي عنه بامر من الرئيس لنكولن .

وضعت الامم مقاعد مدرسية وسبورة في طرف غرفة المائدة ، واستأجرت لهما استاذاً وموسيقياً بولندياً ليعلمها العزف على البيانو . وكان اكبرهما ذكياً محبوباً ، اما الاصغر فكان وقحاً فواراً قليل الذكاء . وفي لسانه لثغة وكان الاساتذة يباسون فلا يلبثون طويلاً . وخضع ستانتون ايضاً لعبث الولد الاصغر ، فرسمه ضابطاً في الجيش برتبة ملازم . وفي احدي الليالي جمع الخدم والحشم ، وحرف الحرس النظامي واحل الخدم محلهم . ورأى الرئيس في ذلك نكته ظريفة ، فانتظر حتى نام الملازم الصغير فحملة الى سريره ورد الامور الى نصابها ، واصيب اكبرهما بالحمى ، ووضع في سريره في الطابق الاعلى ، بينما كانت تجري في الدور الارضي حفلة استقبال راقصة . وكان الرئيس يستقبل ضيوفه بينما فكره عند الولد المريض . وقد سبق في ذلك المساء ان وقف الى جانب السرير يتفرس في طفله المحبوب ، واذا بزوجه تدخل في افخر زي مقور عند الرقبة وله ذيل طويل . فكم اضطرابه لهذه الملاحظة : ان قطتنا تجر ذيلاً طويلاً هذا المساء . ونظرت اليه الزوجة متسائلة ، فأضاف قائلاً : من رأبي ان الزي يكون افضل لو كان بعض ذلك الذنب اقرب الى الرأس . ولم يفتأ الرئيس يعود ابنه المريض ليلاً ونهاراً مدة طويلة . وفي بعد ظهر احد الايام ، دخل مكتبه حيث كان نيكولي راقداً على اريكة ، وقال بصوت مخفق

أواه لقد ذهب ولدي وانفجر باكياً . وبعد اشهر من وفاة الطفل شب
حريق في اسطبلات البيت الابيض ورأى الحارس شخصاً طويلاً القامة
يقفز من فوق السياج . ونزل الرئيس وسأل الحارس عما اذا كانت الخيل
قد اخرجت ، ثم اقتحم الاسطبلات المحترقة ، ولكن الحراس ردوه الى
داخل البيت الابيض ، فقد يمكن ان يكون الحريق خدعة لاغتياله .
ونظر الرئيس من النافذة الى النيران المحمدة ، فدمعت عينه عند ما علم
ان جواد ابنه المتوفى قد احترق . وتعذر على لنكولن ان ينفذ عنه ما
شعر به من الامنى بفقدان ولده . وكانت وفاته مضافة الى هموم الوظيفة
تجمله يشعر بالحاجة الى قوة فوق طاقتة فاخذت خطبه ومقالاته الرسمية
تشير اكثر فاكثر الى ضرورة الاتكال على تلك القوة الالهية العليا .



الفصل الخامس عشر

قيادة ماك كليلان

لما ظل ماك كليلان على تلكاؤه في مطلع عام ١٨٦٢ ، أصدر لنكولان الامر العسكري رقم ١ بان يتقدم الجيش بأسره في ٢٢ شباط او قبله .
وصدر امر عسكري خاص بعد اربعة ايام الى فرقة بوتوماك ، بالبدء في التقدم نحو ريتشموند عن طريق ملتقى خطوط منساس في الموعد المذكور .
وكان ماك كليلان يفضل خطته للهجوم عن طريق اوربانا أو شبه الجزيرة ، فطلب السماح له بالاعتراض ووافق الرئيس على اطلاق حريته في العمل اذا احسن الاجابة على بعض الاسئلة ، من مثل : هل تقتضي خطته مدة اطول ومالاً اكثر ؟ وهل تبعث الامل في تحقيق نصر حاسم ؟ واذا منيت بكارثة فهل يكون الانسحاب اشد صعوبة ؟ ووضع ماك كليلان دفاعاً مطولاً عن خطته ، بين فيها ميزاتها . ولكن الحوادث اثبتت جهله المطبق فيما يختص بالطرق وطوبوغرافية الارض .

وردت اخبار شائعة من الغرب ، فان الجنرال غرانت تحت امره القائد هالك ، قد ارغم رجال الجنوب على اخلاء قلعة هنري على نهر تينيسي ، واستولى بعد اسبوع على قلعة دونلسن مع نحو ١٤٠٠٠ اسير وكانت الحامية قد طلبت شروط الاستسلام ، فأجابهم بان لا شروط هناك الا

الاستسلام فوراً بلا قيد ولا شرط . ووجد الشمال بطوله المنشود في الجنرال غرانت . وطالع لنكولن سجل هذا الضابط ذي السوالم الطويلة والاسنان الملوثة العاضة دوماً على سيجار . وكان في التاسع والثلاثين من عمره ، وقد عمل وهو صبي في مذبغة والده ومزرعته وكان الحادي والعشرين في صفه عند ما تخرج في وست بونيت . وابلى بلاء حسنا في حرب المكسيك ثم ادمن الخمر في احدى الوظائف العسكرية القاصية ، فاستقال واقام لاسرته بيتاً متواضعاً في سانت لويس ، حيث فشل في الاشغال العقارية . فانتقل الى غالينا ليعمل في متجر اخيه . وفي بداية الحرب الاهلية عينه حاكم الولاية ضابطاً على فرقه من المتطوعين برتبة عقيد . وكافاه الرئيس على انتصاراته الباهرة ورفعته الى رتبة لواء . ويبدو انه قد عاف الخمر التي ادمنها بسبب بعده عن أسرته .

وسجل الجنرال كورتيس نصراً آخر في اركنساس . وكانت العملية برمائية . الا ان ماك كليلان لم يتحرك ضد مدفعية الجنوب القائمة على ضفة بوتوماك ، ولا حاول استخلاص سكة حديد بلتيمور - اوهايو من قبضة العدو . ولما تحرك اخيراً ، كانت المراكب التي ارسلها في تلك الحملة اعرض من القناة التي كان لابد من اجتيازها بست بوصات . فدعته لجنة الاشراف على سير الحرب ليؤدي حساباً عن اعماله . فكان عذره كالمعتاد عدم استعداد الجيش وعدم تأمين خطوط الرجعة فتارت نائرة ويد ، وتوجه الى البيت الابيض مع رفاقه ، وهدد باحداث ثورة بالكونغرس اذا لم يطرد ماك كليلان . ولكن الرئيس احتار فيمن سيخلفه لو فعل ذلك واقترح على ماك كليلان عرض خطتها على مجلس تحكيم من قواد الجيش وفازت خطة ماك كليلان باغلبية ثمانية اصوات مقابل اربعة ، على شرط تأمين سلامة العاصمة وما كاد النشاط يبدو على جيش ماك كليلان حتى ارتد الجنوبيون مع مدفعيتهم ، وامر ماك كليلان بالتقدم واحتلال تحصينات



تاد لنكولن في زي ضابط



لنكولن في زيارة لمقر قيادة ماك كيلارن

العدو وما كان اشد دهشتهم لما تبين لهم ان معظم تلك المدافع لم تكن سوى جذوع اشجار طلبت بالاسود . وكانت مهزلة يتندر بها الشاميون ساخطين على ماك كيلان ، وعلى الرئيس الذي ما فتى يعتمد عليه وثار تائرة لجنة سير الحرب ثانية وطلبت اقضاء ماك كيلان . ولم يشأ الرئيس ان يخسر تأييده اعضائها ، فاعفى ماك كيلان من منصب القيادة العامه مع الاحتفاظ بقيادة جيش بوتوماك . وتولى هو الاشراف العام على الجيش مستعيناً بستانتون وجنرال قديم لم يستفد منه كثيراً .

في صباح الاحد التاسع من آذار وصلت البيت الابيض انباء مزعجة فقد خرجت بارجة الجنوب فرجينيا من نورفوك وقصفت بوارج الاتحاد كونغرس وكمبرلند وميناسوتا . وقد بدا ان الجنوب يملك عدة جديدة للحرب وهي بارجة مصفحة لا تقوى عليها البوارج الخشبية ولا المدافع الثقيلة . وكانت هذه البارجة سابقاً تخص الولايات المتحدة وكان اسمها ماري ماك وقد غرقت لما غادرت الحامية نورفوك ، فعومها اهل الجنوب واعادوا بناءها . ودعا لنكولن وزراءه الى عقد جلسة مستعجلة . واجتمعوا في جو من القلق والفرع ، فقد تكون تلك البارجة في طريقها الى ضرب واشنطن او الموانيء الشمالية . وكان لدى ولز بارقة امل واحدة ، فقد قال بوجود بارجة جديدة اسمها مونيتور قد تكون كفؤاً للبارجة فرجينيا . واخذ يصف سطحها الواطيء وما فيها من معدات . واخذ سكرتير الحربية يرسل العديد من البرقيات الى حكام الشمال يحذرهم فيها من بارجة الجنوب ويقترح اقفال الموانيء .

وركب لنكولن عربته وتوجه الى حوض البحرية ليستشير امير البحر جون والفرن وغيره من الضباط وكان الامير يشارك ستانتون في مخاوفه فقام بعد موافقة الرئيس بالاستعداد لاغراق ٥٠ او ٦٠ زورقاً مملوءاً بالصخور في مجرى بوتوماك . واحتج ويلز على هذا الاعتداء على سلطته ،

مبيناً عدم الجدوى من سد النهر ، لكونه ضعلاً قليلاً العمق لا يحمل بارجة الجنوب الثقيلة . واضطر ستانتون مكرهاً الى سحب اقتراحه . وجاء المساء يحمل انباء معركة تاريخية ، وقعت بين مونتور وفرجينيا مدة ساعتين لم تفلح فيها احدهما في احداث ضرر كبير بالآخرى . وقد اصيب الضابط واردين بالعمى الموقت عندما انفجرت قنبلة في مركز قيادة المونتور . وعادت بارجة الجنوب ادراجها الى نورفوك ، ولم يسمح الرئيس للمونتور بالحقاق بها حرصاً عليها . وكان لتلك المعركة اهمية عالمية ، اثبتت عدم جدوى البوارخ الخشبية في مقارعة البوارج المصفحة دارت رحى الحرب كالمعتاد ، واخذ لنكولن يواجه مشاكل عويصة من الرقيق كلما لجأ العبيد الفارين الى معسكرات الشمال فجار القواد فيما يصنعون بهم . كان قانون المصادرة الذي سن في ٦ آب ١٨٦١ بمنح الحرية للعبيد المستخدمين في سبيل الثورة . ولكن ماذا يجب ان يصنع بالهاربين من اصحابهم الموالين للحكومة في الولايات الوسطى ؟ اما الجنرال بطور فكان يعاملهم كبضاعة ممنوعة مهربة تجوز مصادرتها تحت قوانين الحرب ، ولذلك استخدمهم كعمال في بناء التحصينات . وعلى رغم ادراك لنكولن لاهمية التحرير من اجل الاحتفاظ بتأييد المتطرفين واجتذاب الرأي العام الاوربي ، فانه كان قد تعهد بعدم مهاجمة الرق في الولايات . فكان لا بد من ان يبر بوعده للاحتفاظ بولايتها . واثار نقمة متطرفي التحريم عليه ، لتقيده بتنفيذ قانون العبيد الفارين ، وقد غصت بهم سجون العاصمة . وكحل لترضيتهم اقترح ان تعترف الولايات المتعدة بجمهورية هايتي وليبريا الزنجيتين . ومع ذلك لم يستطع مقاومة ضغط المتطرفين طويلاً ، واقترح ان يصدر الكونغرس قراراً مشتركاً في منح المعونة المالية لأية ولاية تتخذ الخطوات التدريجية لتحرير العبيد بعد التعويض عنهم لاسيادهم . واعد بنفسه مشروع قانون لولاية ديلاوير . فلما ظل اعضاء الكونغرس

من تلك الولايات الوسطى غير مكثرتين ، استدعاهم الى البيت الابيض ،
واوضح لهم ان اقتراحه لا يخول حكومة الاتحاد حق السلطة على الرق في
الولايات ، وانه يعتقد ان التحرير في الولايات الوسطى سيقتصر اجل
الحرب ثم كتب الى الشيخ جيمز هالك دوغال والى الصحفي هنري ريموند
في نيويورك تايمز ، يطلب منها الكف عن معارضته ، ويوضح ان مليون
دولار وهي نفقات نصف يوم من ايام الحرب تكفي لشراء جميع العبيد
في ديلاوير .

وعرض الاقتراح المشترك بالتحرير بعد التعويض على الكونغرس . ولم
تكن له سلطة القانون ، بل كان مجرد اعلان سياسة ، فلم يعترض عليه
احد واجازة المجلسان . الا ان احداً لم يؤيده من ديمقراطيي الولايات
الوسطى . وتمشيا مع روح ذلك القرار اجاز الكونغرس مشروع قانون
بالتحرير بعد التعويض في مقاطعة كولمبيا ، مع اعطاء المتحررين حق
السكنى في هايتي او ليبريا . ولما وقع الرئيس على ذلك المشروع كتب
يقول : لم اشك يوماً في سلطة الكونغرس الدستورية على الغاء الرق في
هذه المقاطعة . وكان اعظم ما اتمناه ان ارى عاصمة البلاد محررة من الرق
ويسرني ان يتضمن المشروع مبدئي التعويض وحرية الاستيطان .
واستدعى اعضاء الكونغرس من الولايات الوسطى ثانية وحاول بالحسنى
ان يجملهم على اقناع ولاياتهم بقبول ما عرضه الكونغرس من التحرير
بعد التعويض . واتضح اتجاه الرأي العام في مسألة الرقيق ، عندما نهى
الكونغرس قادة الجيش عن اعادة العبيد الفارين الى اسياهم المنشقين .
وكان هذا مخالفة للدستور كما فسرتة المحكمة العليا بقرارها في قضية الزنجي
سكوت ، بيد ان لنكولن وقع الامر دون تردد . وفي ايار ١٨٦٢
عقدت بين الولايات المتحدة وبريطانيا معاهدة للتعاون في قمع تجارة الرقيق .
جاءت من الغرب انباء تنذر بقرب وقوع كارثة . كان الجنرال غرانت

بعد انتصاراته قد تقدم على طول نهر تنسي حتى ضفة المسيسي وفي صباح
الاحد السادس من نيسان كانت الاف النيران تتأجج في المعسكرات ،
بينما جلس الجنود لتناول طعام الافطار . واذا بصرخة الثوار تزعزع هدوء
ذلك اليوم ، ويكتنفهم هجوم مفاجيء من جميع الجهات . واحتدم القتال
طيلة النهار بين وحدات عديدة مشتتة فوق منحدرات الاودية وداخل
الادغال وبين الغابات والمستنقعات . وكان القائد يتناول افطوره على
مسافة تسعة اميال فحضر على الفور وأخذ يقاتل لاكتساب الوقت ،
وكانت النجذات على الطريق فوصلت بعد الظهر واخذت مدفعيتها تقصف
العدو قصفاً شديداً حتى وجد القائد البرت جونستون مصاباً بجراح مميتة .
وتمكن غرانت في اليوم التالي من طرد العدو وقرأ لنكولن قائمة
الاصابات . كان جيشه قد فقد ٤٧.٠١٣ بين قتيل وجريح ومفقود وفقد
العدو ١٠٦٩٤ واستبد الحزن بكثير من العائلات وقصد أحد الوجهاء
البيت الابيض ليقول ان غرانت قد فقد ثقة الشعب لانه لم يحسب حساباً
للمفاجأة وانه لم يعمل بالنصيحة بحفر الخنادق عندما يكون على مقربة من
العدو وانه عاد الى ادمان الخمر . وجلس لنكولن يصغي صامتاً ، ثم قال :
لا أستطيع الاستغناء عن هذا الرجل فانه يقاتل . واشتدت الحملات على
غرانت حتى بات يفكر في اعتزال الخدمة . ودخل عليه ذات ليلة الضابط
شير من الذي كان قد لاقى في حياته من المصاعب مالاقيه رئيسه غرانت
وظل يحادثه طويلاً بغية اقناعه بالبقاء في الجيش وظل على ذلك حتى نجح في
محاويلته . وجاء اليوم التالي بنصر آخر لجيش الشمال ، إذ ان الجنرال
بوب استولى على الجزيرة رقم ١٠ في المسيسي . وبعد شهر من ذلك
قصفت سفن الاتحاد الحصون والبطاريات القائمة على مدخل المسيسي
واجتازتها في هجوم خاطف لانزال جيش الجنرال بطلر في نيواورلينز .
وانعدت في جو المدينة سحب كثيفة من الدخان بسبب الحرائق التي

اشعها الجنوبيون قبل مغادرتهم اكبر ميناء كان في حوزتهم .
بينما كانت نقلات ماك كيلان تتمرغ في طريقها الى شبه الجزيرة ، ثمي
الى لنكولن ان العاصمة اصبحت مكشوفة لاي هجوم . وتبين من البحث
انه لم يبق من الثلاثين الفاً للدفاع عن المدينة سوى تسعة عشر الفاً من غير
المدرين . وكانت حجة القائد ان الضغط الذي سيوقعه على العدو سيبقيه
مشغولاً . بحيث لا يفكر بالهجوم . ولكن ايقاع الضغط الشديد لم يكن
من مميزات ماك كيلان ، وكان في عمله ذلك مخالفة صريحة للاوامر . فأمر
لنكولن بمنع فيلق ماك داوول المؤلف من ٣٥,٠٠٠ رجل عن الانتعاق
بماك كيلان ، لتغطية العاصمة . فلما اخذ ماك كيلان يتقدم بحذر في شبه
الجزيرة ، انسحبت قوة العدو الصغيرة الى حصنها في يوركتون . وكانت
مستعدة للانسحاب عند اول بادرة من الهجوم المركز . غير ان ماك
كيلان بالغ في تقدير عددها وقوة تحصيناتها فقرر الحصار وبينما ظل يتلكأ ،
اسرع العدو في ارسال الامدادات واتخذ من ابعاد فيلق ماك داوول عنه
حجة لزيادة الحيلة والحذر وكتب الى الرئيس يقول : اراني مضطراً
الى مقاتلة جميع ما لدى الثوار من قوى ليس بعيداً عن هذا المكان .
فلا تجبرني على ذلك بقوات اقل منه عدداً . فأبرق اليه الرئيس ان الافضل
له ان يحطم خط الدفاع على الفور اذ انهم سيستفيدون من الوقت كما
يستفيد هو . وعاد فكتب اليه بعد ان ضاق ذرعاً بابطائه وتردده وقال
له ان من السخف تعريض العاصمة بتلك الصورة المكشوفة . اما عن عدد
قواته فكان القائد نفسه قد احصى ١٠٨ آلاف ، فكيف يقول بعد ذلك
ان ليس لديه سوى ٨٥ الف . ونخم بقوله : دعني اصارحك بأنه لا غنى
لك عن القيام بضربة على الفور ، وانك انت الذي اخترت هذه الخطة ولم
اكن انا مقتنع بها منذ البداية .

سالت الامطار فيحولات طرق شبه الجزيرة الى احوال ومستنقعات .

وارسل ماك كليلان يطلب نوعاً من المدافع الثقيلة من واشنطن . فرد عليه لنكولن يقول : ان طلبك هذا يزعجني لا سيما وانه يعني تأخر الاعمال الى اجل غير مسمى . واخيراً قرر ماك كليلان في ٤ ايار ان يقصف يوركتون بمدفعه ، فتبين له ان العدو كان قد اخلاها في الليلة السابقة وفي ٦ ايار قدم لنكولن وستانتون وتشايس الى قلعة منرو ، وتحدثوا الى قواد القوات البحرية وزاروا بعض الاماكن . ولم يكن ماك كليلان قد عمل شيئاً لازالة خطر البارجة المصفحة فرجينيا التي كانت لا تزال في نورفوك . فما كان من لنكولن الا ان امر بضرب بطاريات العدو بينما سارت في اثرها سفن النقلات لانزال الجيوش في نورفوك اذا كان ذلك عملياً . وبرزت فرجينيا فاحتجبت السفن الصغرى ، ولكن البارجة مونيتور ردتها على اعقابها .

واقترح لنكولن اخيراً بأنه عثر على نقطة امنية لانزال الجيوش فذهب لتفقدتها وتبعه الآخران فوجد ان النقطة التي اختارها تشايس كانت افضل منها . فنزلت الجيوش في ذلك المكان بعد يومين وسارت الى نورفوك التي استسلمت مع ٦٠٠٠ رجل ودوى في المدينة انفجار هائل اذ ان الحامية كانت قد نسفت البارجة فرجينيا . فسارت سفن الشمال بأمن في نهر جيمز . وسجل تشايس ان الفضل في ذلك الانتصار كان للرئيس لنكولن . اما ماك كليلان فتابع تقدمه البطيء الى مسافة خمسة اميال من رتشموند . وكان عليه ان يجتاز نهراً صغيراً بطيئاً ، وان يستبقي قسماً كبيراً من قواته لحماية مؤخراته ، فاشغل نفسه في بناء الجسور وارسل في طلب نجدات اخرى . وفي ١٧ ايار امر ستانتون فيلق ماك داوول باقتحام رتشموند من الشمال حالما يصل فيلق الجنرال شيلدز ، ثم يلتحم مع جناح ماك كليلان الايمن . وافاد لنكولن في ٢٤ ايار ان فيلق شيلدز قد وصل ولكنه بحاجة الى راحة وسأل ماك كليلان اذا كان يستطيع ان يضرب ظهر العدو الذي

كان يقاتل ماك داول ، وبذلك يستطيع انقاذ بعض الجسور التي قد يبلغها العدو بانسحابه .

كان لنكولن مختلف الى مكتب البرق في وزارة الحربية لتسقط الاخبار ، لا سيما اخبار القائد جا كسون من قواد الجنوب ، لمعرفة عدد قوائمه وموقعها بالضبط ، وما اذا كان ينوي فعلاً الهجوم على وشنطن وكان فريمونت قد تسلم القيادة في فرجينيا الغربية ، حيث قام جا كسون بمناوشته ، ثم اختفى ليظهر ثانية في مكان آخر ، بما عرض مؤخره فيلق بانكس للخطر واضطره الى الارتداد بسرعة . ولكن جا كسون طارده حتى ونشستر . ولم ينج من الفخ الذي نصبه الا بجهد جهيد . وكان يوم ٢٤ ايار يوما عصيباً في حياة لنكولن ، اذ كان قد تسلم القيادة العليا بنفسه فاحتار في هل يرسل ماك داول الى الوادي او الى رتشموند حيث قد يكون جونستون قد اضعف قوائمه لامداد جا كسون . واخيراً قر رآيه فأمر فريمونت بالاسراع الى هاريسنبورغ ، وابرق الى ماك داول بأرسال ٢٠ الف جندي الى الوادي لأسر جا كسون بالتعاون مع فريمونت . وكان لنكولن يعمل كالمحموم في سبيل حماية العاصمة ، فاستولى على جميع السكك الحديدية واستخدمها لنقل الجنود والمعدات والمواد . وبعد اسبوع تبين له ان الفرق لم تصل بعد الى الاماكن المعينة لها ، وان جا كسون قد ارتد عبر الوادي لينجو من طرفي الكماشة . والتعم جا كسون في مطلع حزيران بقوات كل من فريمونت وشيلنز على التوالي فهزمها ثم ولى هارباً . ولو ان فريمونت كان قد وصل الى هاريسنبورغ حسب الخطة ، لسيد سبيل الرجعة على جا كسون ، ولكنه كان ينقصه الطعام ، وكانت الامطار الغزيرة تعيق تنقلات الجنود . ولا يقصد من ذلك الانتقاص من عبقرية جا كسون كقائد سريع الحركة ، فقد كسب خمس معارك في شهر واحد وحبس الامدادات عن ماك كليلان . واذا

به يظهر الآن في شبه الجزيرة .

كانت العواصف قد اطاحت بمعظم الجسور التي بناها ماك كيلان .
وهاجم جونستون على حين غرة ناحية من قوات ماك كيلان . واعتقد
ضباطه انه سيرد بهجوم معاكس شمال النهر حيث ضعف جبهة العدو
ولكنه لم يفعل . وعلم ماك كيلان بعد ايام ان جونستون وقع جريحاً
وان الجنرال روبرت لي تولى قيادة جيش فرجينيا الشمالية فكتب الى
لنكولن يخبره بتفضيله هو لهذا القائد الجديد ، ويعدد له من مناقبه وصفاته
ما كان اكبر مثال على سوء تقديره . ولما انتهت حملة الوادي ارسل
لنكولن عشرة كتائب من قلعة مونرو مع امدادات أخرى الى ماك
كيلان . فاغتنب بذلك كثيراً وتعهد بالتقدم نحو رتشموند حالما تصل
بقية الامدادات . ولكنه ظل على عادته من انتحال اعداء جديدة ، وكان
آخرها هطول الامطار . ولما لم تعق الامطار تنقلات العدو ، قال لنكولن
متممكا ان ماك كيلان يكذب ما تقوله الكتب المقدسة من ان الله ينزل
المطر على الصالحين والطالحين على السواء .

لما كان ماك كيلان على أهبة الهجوم ، حمل عليه الجنرال لي في معركة
دامت سبعة ايام . وتمكن من صد الهجوم في اليومين الاولين فكتب
يتمدح بسالة رجاله ويتمنى لو كان لديه عشرون الفاً أخرى لتحقيق النصر
التام . وقرر ذات مساء ان يغير قاعدة جيشه . وبعد منتصف تلك الليلة
تسلم سانفورد مراقب البرقيات العسكرية في واشنطن بوقية من ماك كيلان
الى ستانتون جاء فيها انه رأى الكثيرين من الرفاق الجرحى والقتلى مما
جعله يشعر بان الحكومة لم تعاضد جيشه فاذا دامت الحال على ذلك فاللعبة
خاسرة . وانه إذا انقذ الجيش فانه ليس مديناً بالشكر لاحد في واشنطن
فالجميع هناك قد بذل جهده لتضحية ذلك الجيش . قرأ سانفورد تلك
البرقية وهو يرتجف غضباً فقال ان هذا محض تمرد وعصيان ، فعذف

الجلتين الاخيرتين من النسخة التي اعطيت الى ستانتون .

كان نقل قاعدة الجيش عملية خطيرة تتطلب نقل قطارات ضخمة ومدافع ثقيلة فوق ارض غير مأمونة . وكان الجيش ينتقل ليلا ويجارب نهـاراً ضد هجوم الجنرال لي العنيد ، فاضطر الى إحراق الكثير من المخزونات وقد انقطعت المواصلات مع واشنطن وانتشرت اخبار هذه الممارك المريرة ، وعلم الناس بالاصابات الجسيمة . فتجددت الحملات على ماك كليلان لا سيما من قبل المتطرفين . فهدد أحد الحكام بطرد الحزب الجمهوري من الحكم إذا لم تتحسن نتائج الحرب . وقال أحد الشيوخ عن ماك كليلان انه جبان أدبياً ومادياً . ودخل الشيخ براوننغ على الرئيس ذات ليلة فوجده يكتب وعلى محياه سياء الاعباء والهم . فاشار الشيخ الى حالة الرئيس الصحية والى حاجته الى الراحة . فاجابه على الفور : يا براوننغ لا بد من الموت في أحد الايام . وخشي لتكولن ان يطلب من الامة المزيد من المتطوعين ولذلك أوفد سيورد للتفاوض سرأ مع حكام الشمال ، مؤكداً لهم انه سيثبت على النضال حتى الفوز ، او حتى يموت او حتى ينهزم او حتى تنتهي مدة رئاسته او حتى يتخلى عنه الكونغرس او الامة . وتبين من اتصالات سيورد ان لا خوف من الفشل فطلب الرئيس تجنيد ٣٠٠ الف متطوع . وعاد ماك كليلان في اول تموز يطلب ٥٠ الف مقاتل . فرد عليه الرئيس بان لا جنود لديه وانه يكفيه ان يكون القائد وضباطه وجنوده قد بذلوا ما في وسعهم وانه يشكره على ذلك الف شكر .

واشتد عليه الضغط ليحدث تغييراً في القيادة ، فزار قاعدة ماك كليلان لتعدد الوضع بنفسه . فوجد معنويات الجنود حسنة ، حتى ان أحدهم كتب يقول : انه لم ير في حياته امسوخة مضحكة كما كنا الاكبر المحترم وهو على جواده بالامس ، اذ كانت ساقاه الطويلتان تشتبكان تقريباً بقوائم الحصان . ثم يتهمك على ذراعيه وركبته ومحاولته التحية برفع

القبة والجواد مسرع . ولكنه يقول في النهاية : بيد ان الجنود احبوه كثيراً وقد تحدث الكراهية بين حكامنا وقوادنا ، ولكنهم جميعاً يشقون بلنكولن ، ان ابتسامته اللطيفة عندما مربنا كانت انعكاساً لقلبه الكريم ، وان وجهه المدمم الوسامة يخفي وراءه علامات القلق والاضطراب . فليبارك الله وليستجيب الى صلواته التي يضرع بها اليه . واستجوب لنكولن ماك كليلان وضباطه كما يستجوب قاضي التحقيق سائلا عن مواقع العدو وحجم قوات الاتحاد وصحة الجنود وما الى ذلك . وبينما هو يركب زورقاً بخارياً ليعود الى واشنطن ، سلمه ماك كليلان كتاباً طويلاً يتضمن اراءه حول السياسة العامة ولا شك في انه استغرب تفرغ ماك كليلان لبحث الشؤون السياسية في الوقت الذي كان يضلع فيه باعباء عسكرية ثقيلة . واحترار لنكولن في امره . كان قد جعل الجنرال بوب قائداً للقوات في واشنطن وما حولها . وشعر بضرورة المشورة العسكرية ، فذهب الى وست بونيت لاستشارة الجنرال سكوت . وفي ١١ تموز عين الجنرال هالك قائداً عاماً لقوات الولايات المتحدة . وكان هذا يدخن كثيراً ولكنه خبير في الامور الفنية والنظرية ، وكان في مكتبه افضل منه في المعسكر . وزار هالك جيش ماك كليلان ، فرأى بعينه ما كان يكتب عنه طبيب الجيش عن صحة الجنود وكونهم حفاة ، صفر الوجوه رثي الثياب مصابين بالاسهال والزحار وهم يفتشون الأرض في الوحل . فأمر ماك كليلان بنقل المرضى والجرحى اولاً ثم بنقل جميع قواته الى اكويلا كريك قرب واشنطن . واحتج ماك كليلان بان الدفاع عن واشنطن يجب ان يكون حيث هو بعيداً . فابرق اليه هالك بجثه على الاسراع بالانتقال ، فان جيش بوب بحاجة الى المدد ، وان حملة شبه الجزيرة يجب ان تنتهي .

نقول انصافاً لماك كليلان انه قابل جيوش العدو وهي في عنفوانها ،

وان هزائمه لم تكن كوارث ، بل تركت العدو مشغولاً بالجراح . وكان هو يدعي دائماً ان مصاعبه كانت ناجمة عن تدخل وشنطن ، ويورد امثلة على ذلك . ولكن يجب ان لا ننسى ان تدخل لنكولن كان دائماً لاعتبارات سياسية لم يفهمها ماك كليلان . وكان ماك كليلان لا يستمري القتال امام اللوم في افعال مكاتب تجنيد المتطوعين منذ شهر نيسان ، فيقع على لنكولن وستانتون ، اذ تناقص جنود الشمال بينما اخذ عدد جنود الجنوب في التزايد . وضع ذلك لم تتفوق قوات العدو في العدد كما ادعى ماك كليلان . ومع ما لا قاه لنكولن من عنف في التعامل مع ماك كليلان ، فقد اكتسب دروساً قيمة للمستقبل ، وادرك من فوره انه لا يسعه شن حرب دفاعية كما يفعل الجنوب وكما كان يفضل ماك كليلان كان عليه ان يشن حرب فتوح وغزو على كره منه . فالنصر على ذلك العدو المستميت لن يتحقق الا بافناء جيشه وانلاف جميع موارده الاقتصادية وكسر معنوياته . كما اقتنع ان ليس باستطاعة قائد واحد مهما بلغت مقدرته ، ان يدير الحركات من الاطلسي الى نهر المسيسيبي وان يكون في نفس الوقت قائداً لاحد الجيوش وكانت القيادة العامة من واجبات الرئيس بموجب الدستور ، ولكنه وجد ان قلة الوقت والتدريب الفني تحول دون تقلده تلك القيادة ، فانه لا بد من مساعد عسكري خبير ، وقد تبين وفيما بعد ان هالك لم يدرك حقيقة واجباته ولم يشأ تحمل المسؤولية وتعلم لنكولن من مساوي هالك وغيره من القواد انه بحاجة الى رجل ذي غريزة فائقة ، لا يفكر في كسب المعارك بل في افناء العدو ، واذا اقتضى الامر يضرب بالكتب العسكرية عرض الحائط ويلجأ الى المناورات المبتكرة ، كما يجب ان يكون ذلك الرجل بدون مطامع سياسية ، يعرف ان واجب الجيش في حكومة ديمقراطية انما هو تنفيذ سياسة تلك الحكومة ولم يجد ضالته المنشودة ، بل اتضح له اخيراً ان آراءه في الشؤون العسكرية

كثيراً ما كانت تفضل آراء الكثير من القواد . وقد اجبرته الظروف الى وضع الخطط العامة بنفسه ، حتى يجد يوماً ذلك القائد الذي يركن اليه ، وكانت خطته سليمة حكيمة ، ان يتسرب اليها الفشل الا بسبب سوء التنفيذ من قبل القواد .

كان لنكولن قد توصل الى قرار حاسم لم يعرف احد به خارج الوزارة لقد كيف سياساته لاكتساب تأييد الجمهوريين والديمقراطيين وأسياد العبيد في الولايات الوسطى الموالية . ولكنه لم يستطع المضي في مقاومة الجمهوريين من انصار تحرير الرق ، لئلا يفقد بعض التأييد اللازم لكسب الحرب . فكانت تلك الفئة اكبر الفئات عدداً وقد انحاز الرأي العام الى جانبها . وقد انتظر طويلاً على الولايات الوسطى لكي تقرر قبولها لتحرير العبيد مع التعويض عنهم . وعليه ان بحسب حساباً لرأي الاحرار في اوربا وعلى رغم مقتته الشخصي للرق ، فقد كان مقيداً بتعهدات حملته الانتخابية وقسمه بالمحافظة على الدستور . ولكن قسمه اوجب عليه المحافظة على الدستور وعلى الحكومة وعلى الامة بكل ما في يده من وسيلة . فيجب ان لا يوقع الامة في خطر عن طريق الولاء الاعمى للشكليات الحكومية . وكان يقول ان القانون يوجب حماية الحياة واعضاء الجسم . ولكن كثيراً ما يجب بتر العضو لانقاذ الحياة ، ولا يضحى بالحياة من اجل انقاذ عضو . وكذلك الاجراءات غير الدستورية ، قد تصبح قانونية إذا كانت الامة في خطر . وفي ٢٢ تموز قرأ على الوزراء بلاغاً بتحرير جميع العبيد في الولايات الثائرة . وقال انه في غنى عن أي نصح أو مشورة حول النقطة الرئيسية ، فقد عقد العزم على ذلك ، ولكن لا بأس من تقديم بعض الاقتراحات حول تفاصيل المشروع . وجلس الوزراء مشدوهين ، ما عدا سيورد وولز اللذين كانا على علم بذلك . وقال سيورد انه لا يعارض في تلك

السياسة ولكنه يعتقد ان الوقت غير مناسب لاعلانها بسبب الوضع الحربي
السيء . ووافق الجميع على كلام سيورد ، ورد لنكولن الوثيقة الى
جيبه ، على امل تنقيحها وتعديلها واعلانها في الوقت المناسب .



الفصل السادس عشر

الموقف زاخراً بالمصاعب

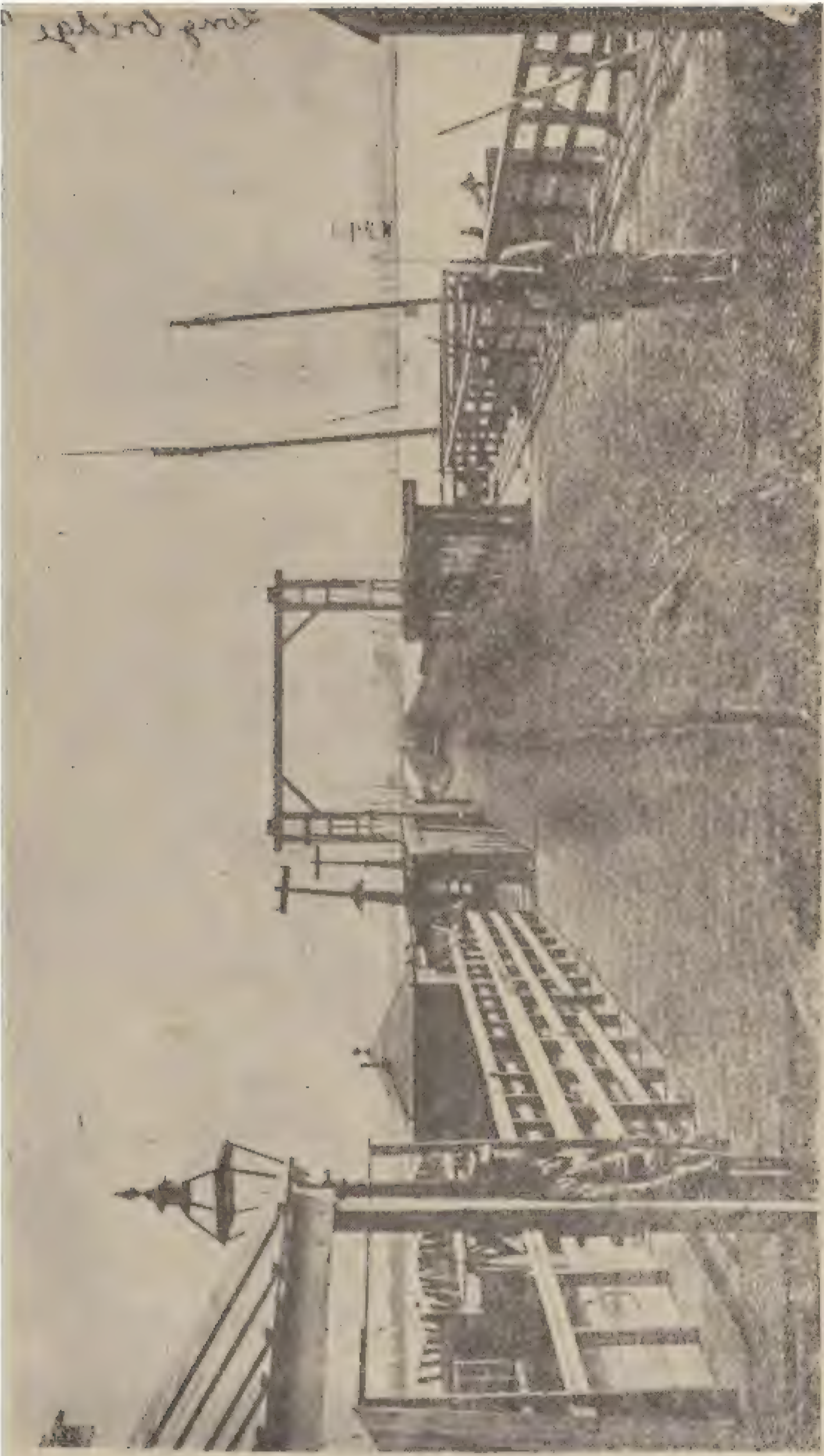
استحوذ القلق على انكولن لما كانت جيوش ماك كليلان تنسحب من شبه الجزيرة لان الجنرال لي توقع مثل هذه الحركة فاسرع الى ضرب قوات بوب باعداد متفوقة قبل انضمام الجيشين . الا ان مناورات بوب أحبطت جهود لي المتكررة لعبور النهر . كان هذا القائد يملك ما كان ينقص ماك كليلان من روح المبادرة والاقدام . فما ان تسلم قيادة جيش فرجينيا حتى اذاع بلاغاً بأنه سيتخذ دوماً خطة الهجوم لا الدفاع ، وان مقره سيكون ظهر جواده . وقد تمك على سياسة ماك كليلان في الحرب الانسانية . وبدلاً من استثارة حماس الجنود اثار البلاغ عداً الضباط الموالين لماك كليلان . واءتزم لي القيام بحركة جريئة ، فقسم جيشه الى قسمين وأرسل نصفه مع جا كسون لمهاجمة جناح بوب اليمين . فقام جا كسون بحركة سريعة فشطرت مواصلات بوب واستولى على مستوعاداته ، حيث نعم جنود الجنوب بأطايب المأكولات والخمور وملأوا جمعهم قبل احراق الباقي . وحلت الفوضى في صفوف جيش الاتحاد . واشتد القلق على الرئيس ، وأخذ يطير البرقية تلو الاخرى يسأل عن مصير بوب وجيشه اما جا كسون فانسحب إلى الشمال الغربي ينتظر الاجتماع بجيش لي . وقام بوب بهجمات جريئة على مرتفعات الخط الحديدي حيث كان يأوي

جيش جاكسون ، بدلا من ان يفتش عن مكان يحتمي فيه ، واذا بقائد آخر من الجنوب يحيط بجيشه فيعمل في جناحه الايسر ، وقد تأخر ماك كليلان عن ارسال النجدة اليه ، وبعث الى الرئيس بنصح له اما بالتوفر على الاتصال مع بوب بكل ما لديه من قوات واما تركه يتخلص من الورطة بنفسه . واشتدت نعمة ستانتون على ماك كليلان واتهمه بالخيانة بيد ان انكولن ترك اتخاذ القرار النهائي في يد هالك للتشاور مع ماك كليلان . وبينما كان الجيش المهزوم يعود فرادى الى العاصمة ، ذهب هالك لاستشارة ماك كليلان الذي قال ان جيش بوب هزم شر هزيمة ، ويجب سحب الجيش بأسره الى التحصينات المحيطة بالعاصمة . ووردت برقية من بوب يشكو فيها سوء تصرف بعض الوحدات والعداء الذي يبديه نحوه الضباط الذين خدموا تحت امرة ماك كليلان .

نقل ٣٠٠٠ من الجنود في دور النقاهاة في العاصمة الى فيلادلفيا ، لافساح المجال لهصابين الجدد واكتظت دار البرلمان باسرة الجرحى والمرضى وارسل في طلب المزيد من الاضمة والجراحين والمرضين . وعادت الى مخيلة الرئيس صور الهزيمة الاولى ، واصبحت العاصمة مهددة بالخطر ولم يعتب الرئيس كثيراً على بوب ، فان اعماله لم تكن اسوأ من تصرفات ماك كليلان وغيره من القواد . ولكنه قرر ابعاد بوب ان عدلا وان ظلماً ، فان همه الاول رفع معنويات الجيش . ولذلك قصد يرافقه هالك الى حيث كان ماك كليلان ، واستحلفه بان يقنع اصدقاءه بان يضعوا مصلحة الامة فوق الحزازات الشخصية ثم عين ماك كليلان قائداً خامية وشنطن ولفلول جيش بوب . وامتعضت الوزارة عند ما اطلمها الرئيس على ما صنع ولم يؤيده في قراره الا بليز . وكان الرئيس في حالة ارتباك شديد ولكنه جازف بتحمل غضب الوزارة وسما فوق المشاعر الشخصية ليسلك آمن طريق في ذلك المأزق . وكان يؤمن في قرارة نفسه ان ماك كليلان

تعهد ذلك المسلك لكي يفشل بوب ، ولكن لا احد غير ماك كليلان يستطيع اعادة معنويات الجيش . اما ستانتون فقد رفض تحمل أية مسؤولية تنتج عن اعادة ماك كليلان الى القيادة . وسلم تشيس بأنه لم يكن للنكولان مناص من سلوك تلك الحطة مدفوعاً بغيرته على الامة والوطن .

لم يشأ لي اقتحام العاصمة المحصنة فنقل جنوده الى ماريلند . وكانت الغلال اذ ذاك ناضجة للحصاد . وكان يأمل في ايجاد بعض الاحذية لجنوده ، وانه قد يشجع شعب الولاية على طرح النير الاجنبي . وتحرك لي شمالاً ، بينما كان جيش بوتوماك يراقبه وهو يحرس العاصمة . وسر لنكولان من نشاط ماك كليلان الذي أخذ يجدد روح الجيش ويصدر معدات جديدة ، ويتتبع حركات لي بدقة لمعرفة نواياه . ووجد الرئيس وهو ينتظر بفارغ صبر متسعاً من الوقت للتفكير . وكان يشعر بقوة خارجه عنه تكيف مصير الامة . فكتب يقول : « ان مشيئة الله هي التي تتفوق ففي المبارك الكبرى يدعي كل غريق انه يعمل وفقاً لمشيئة الله وقد يكون كلاهما مخطيء ، ولا بد من ان يكون احدهما كذلك . فالله لا يمكن ان يكون مع نفس الشيء وضده في آن واحد . وفي هذه الحرب الأهلية قد تكون غاية الله غير غاية كل من الطرفين ، ومع ذلك فالامكانيات البشرية هي افضل ما يستخدم في سبيل غايته . وارانى مستعداً ان اقول ان الله قد يكون يريد هذه الحرب ، ولا يريد ان تنتهي الآن وقد كان في وسعه ان ينقذ الاتحاد او يقضي عليه دون حرب ولكن الحرب قد بدأت ، وهو في وسعه ان يمنح الغلبة الاخيرة لاي من الطرفين في احد الايام . » وقد وعد الرئيس نفسه كما وعد خالقه انه اذا طرد لي من ماريلند سيصدر بلاغ التحرير الذي احتجزه منذ شهر تموز ، وفي ١٣ ايلول وقعت خطة حركات لي بين يدي ماك كليلان ، وذلك عندما وجد أحد الجنود نسخة من امر عسكري ملفوفة حول ثلاث سيكار وكان لي بموجب تلك



Long bridge

الجسر الطويل المؤدي الى فرجينيا



الموكب الى مقبرة جتسبرغ يوم تدشين المقبرة

الخطة سيقسم قواته فيرسل نصفها مع جاكسون لحماية مواصلاته ، ويتحرك النصف الآخر في اتجاه هاريسبورغ وسواها من مدن بنسلفانيا . ووجد ماك كليلان فرصته الذهبية ، فتحرك باقصى سرعة ، ولكن بحذر شديد متصوراً كالعادة ان جيش لي يتفوق عليه عدداً مع انه في الحقيقة لم يبلغ ٥٠ الف بينما كان عنده ١٠٠ الف . وجاء ١٤ ايلول بأنباء عن قتال مرير بين ماك كليلان ولي . وكتب ماك كليلان الى الرئيس يقول انه تقابل مع العدو وجهاً لوجه ، وانه ينتظر انتشار ضباب كثيف . فتأخر الرئيس في دار البرق لتسقط آخر الاخبار واذا بماك كليلان يؤجل المعركة الى اليوم الثاني . وأخذت البرقيات تترى عن اشتداد المعركة . قال بعضها ان ماك كليلان اصطاد العدو في موقع كذا وانه منح العدو مهلة ٢٤ ساعة وخيره بين الاستسلام والفناء . وأبرق ماك كليلان بعد يومين ان النصر كان تاماً وان العدو رد الى فرجينيا وطهرت منه ولايتا ماريلند وبنسلفانيا وجلس لنكولن يدرس تفاصيل المعركة ، فتبين له ان تردد ماك كليلان المعتاد وعدم اتساق هجماته وتأخره في استخدام جيشه الاحتياطي ، قد فوتت عليه فرصة افناء العدو . وقال لاحد اصدقائه : لعل هذا الانتصار سيكفر عن ذنبه في اعادة تعيين ماك كليلان للقيادة وظل يأمل في نصر ساحق فابرق الى ماك كليلان يقول بـارك الله فيك ، اقض على جيش النوار إذا امكن .

ظل لنكولن طيلة الصيف يتوقع نصراً حاسماً لكي يصدر بلاغ التحرير الذي ظل سراً بينه وبين وزرائه . فلما زاره وفد من زعماء الكنيسة يحمل مذكرة بالتحرير اتخذت في اجتماع عام في شيكاغو ، سأل الرئيس عن فائدة اعلان التحرير في مثل ذلك الوقت ، وكيف يمكنه تحرير العبيد في مناطق لا يستطيع تنفيذ الدستور فيها وقال أخيراً للوفود لا تسبئوا فهمي ، فانا لم اقرر منع التحرير عن العبيد واؤكد لكم ان المسألة قيد

النظر وانها لا تبرح ذهني ليلاً ولا نهاراً . وكتب هـ - و راس غريبي الصحافي الشهير ينعي علي لنكولن محاولة اخراج الثورة ، بينما هو يساند الشر الذي سببها . فرد عليه الرئيس يقول : « ان غايتي الاولى من هذا الكفاح هي انقاذ الاتحاد ، لا إنقاذ الرق ولا القضاء عليه . ولو استطعت انقاذ الاتحاد دون تحرير عبد واحد لفعلت ذلك ، ولو استطعت انقاذه بتحرير جميع العبيد لفعلت ذلك ايضاً . وما انا فاعله الآن فيما يختص بالعبيد ، فانما افعله لاعتقادي بانه يساعد علي انقاذ الاتحاد ، وسأفعل أقل من ذلك كلما اعتقدت ان فيه ضرراً لقضية الاتحاد ؛ وسأفعل اكثر من ذلك كلما اعتقدت ان في ذلك خدمة لقضية الاتحاد . وسأحاول إصلاح اخطائي حالما تبدو اخطاء وسأبدل من ارائي كلما بدت افضلية الاراء الجديدة ، وأخيراً لا أنوي إجراء اي تعديل في رغبتى الشخصية التي كررتها مراراً وهي ان يكون جميع الناس احراراً اينما كانوا .

لقد ادى انسحاب لي من ماريلند الى تحقيق رغبة الرئيس في نشر بلاغ التحرير . ودعا الوزراء الى اجتماع في ٢١ ايلول ، فلما انعقدت الجلسة افتتحها الرئيس بتلاوة فصل من مؤلفات الكاتب الهزلي ارتيموس وارد ، ثم اخذ يقهقه . ودهش الاعضاء لهذا التصرف الغريب . فذكرهم بالقرار الذي اتخذته قبل شهرين ، وقال : انه كان يفضل انتصاراً اكبر كمناسبة لنشر البلاغ ، ولكن الحالة العسكرية قد تحسنت . ونشرت جرائد الصباح في اليوم التالي مايلي : انه بعد مئة يوم أي في ١ كانون الثاني من عام ١٨٦٣ ستعلن حرية جميع العبيد في اية ولاية لا تزال تارة وفي أي جزء من اية ولاية يسميها الرئيس ، وان القوات العسكرية للولايات المتحدة ستستخدم لتأمين تلك الحرية . وقال الرئيس ان غاية الحرب الى ذلك الحين كانت اعادة الاتحاد ، وانه في جلسة الكونغرس التي اصابه سيوشي بالاعانات المالية لاية ولاية تتخذ الخطوات اللازمة لالغاء الرق فوراً او

بصورة تدريجية . وقد ظهر رد فعل هذه السياسة في الرأي العام في انتخابات تشرين الاول والثاني . وكانت النتائج شؤماً عليه ، فالجمهوريون المتطرفون استاؤا من تساهله مع ماك كليلان ومن ضيق بلاغ التحرير ، ولم يتحمسوا للانتخابات . اما الديمقراطيون فضربوا على وتر بلاغ التحرير وعدم حكيمته وعدم دستوريته . واكتسح الديمقراطيون ولايات نيويورك وبنسلفانيا واهوايو وانديانا وايلنوي ، وكانت كلها مع لنكولن عام ١٨٦٠ . وزاد عددهم في الكونغرس من ٤٤ الى ٧٥ وحاول لنكولن تحليل مغزى هذه الصدمة ، فشر كما يشعر صبي اصيبت اصابع قدمه بكدمة ، فقال انه اكبر من ان يبكي ، وكان الالم اشد من ان يضحكه .

مرت ايام من الهدوء ، فذهب لنكولن ليستحث ماك كليلان على الهجوم . فلما لاحظ انتظام الجنود وارتفاع معنوياتهم ، عاتبه على الافراط في الحذر ، ولم يقتنع بمختلف الاعذار التي قدمها . ولما عاد الى واشنطن كرر اليه الامر بعبور البوتوماك ودحر العدو . ولم يصدع ماك كليلان بالامر ، فكتب اليه الرئيس كتاباً رقيقاً مطولاً سأله فيه لماذا لا يقدم على ما يقدم عليه العدو وقال انه اذا لم يمكن قهر العدو وهو في ذلك المكان ، فيستحيل ذلك عندما يتحصن في ريتشموند . وشاعت في الجيش شائعة سمع بها لنكولن ، وكان مفادها ان العبرة ليست في تحطيم جيش الثوار . وانما الوصول الى حل وسط يؤمن دوام الرق . وبحث الرئيس فوجد ان مصدرها هو العقيد جون كيجي فطرده من الخدمة . وقرر بينه وبين نفسه ان يتعن ماك كليلان للمرة الاخيرة ، فاذا سمح للجنرال لي ان يعبر الجبال الزرق ويمر كز جيشه بين جيش بوتوماك وريتشموند ، فانه سيعزل ماك كليلان نهائياً . واخيراً تحرك ماك كليلان ، واستغرق تسعة ايام في عبور نهر بوتوماك . ولكنه ظل يشكو من قلة المؤن ، مع ان وكيه عليها شهد بان جيشاً مالم يزود بمثل ما زود به ذلك الجيش . وانتقل

لي يجيشه فتمر كز بين جيش الاتحاد وريتشموند ، وعندها وقع لنكوان على امر فصل ماك كليلان عن القيادة . وفي يوم تساقط فيه الثلج ركب احد مساعدي وزير الحربية قطاراً خاصاً من واشنطن الى مقر الجيش ، ليعهد بالقيادة الى الجنرال بيرنسايد . وامتعض بعض اصدقاء ماك كليلان ولكن الرئيس لم يخش شراً ، إذ ان اخطاء ذلك القائد كانت بادية للعيان ولم يكن يسع الرئيس ان يسلم بان جيوشه كانت دون جيوش الجنوب ، وقد احزنه ان يكون الجنود الشجعان تنقصهم القيادة القوية . اثبتت الحوادث فيما بعد ان الجنرال بيرنسايد لم يكن ذلك القائد المنشود ، ولكن الرئيس لم يجد افضل منه . كان من خريجي وست بونت وعمره ٣٨ سنة وله شخصية جذابة مهيبة . وقد تأخر في دخول الجيش النظامي ولم يتمرس في حرب المكسيك ، ثم استقال ليعمل في صنع الاسلحة الصغيرة كما مارس اعمالاً اخرى . وعاد الى الجيش عند نشوب الحرب الاهلية فقاد عملية ناجحة برمائية ثم عمل تحت قيادة ماك كليلان ، وكان ياتي بعده في المرتبة وقد رفض مرتين تسلم قيادة جيش بوتوماك ولكنه قبل هذه المرة كواجب . وكان جندياً اميناً يدرك امكانياته وكثيراً ما يشكو من الزحار ، وقد قال لبعض الضباط انه ليس كفوئاً لذلك المنصب . واقترح هذا القائد ضرب العدو مباشرة والاتجاه الى ريتشموند . ووافق الرئيس على خطته شرط سرعة الحركة . ولكن العوامات لعبور النهر لم تصل في حينها وبينما هو ينتظر بفارغ الصبر ، جمع لي قواته على مرتفعات فريدير كبورغ . وكان عنده ٧٢ الف مقاتل مقابل ١١٣ عند بيرنسايد ، وتمكن من احتلال مركز حصين وجناحه الايسر على النهر . وكان على الجيش المهاجم ان يعبر النهر ويتقدم على سفوح مكشوفة ، فاذا انهزم كان النهر من ورائه . واشتد القلق على الرئيس فابرق الى بيرنسايد يطلب مقابلته في مكان معين . ولم تنشر تفاصيل تلك المقابلة ، الا ان هناك ما يثبت ما

جاء في كتاب هالك من ان الرئيس وافق على الهجوم على شرط ان ترافقه
حركات ومناورات جانبية لصرف انتباه العدو . وبدأ بيونسايدي بيني
الجسور العائمة على رغم مضايقه قناصة العدو . ثم حاول اخلاء المدينة من
العدو بقصفها بالمدافع ، وبعث بجنود المناوشات في العوامات وكان الضباب
يغطي النهر فلما انقشع رأي العدو فرقتين من جيش الاتحاد على سهل تحته .
ولم يسمع الرئيس شيئاً عن المناورات الجانبية التي امر بها . ولم يفهم من
البرقيات سوى نشوب معركة ثقيلة بالمدافع بين الطرفين وان اصواتها تصم
الآذان . ثم قالت البرقية ان القصف قد توقف وبعث بيونسايدي في صباح
اليوم التالي برسالة لم يشير فيها الى مامني به من خسائر الاتليجها . ولكن
تبين للرئيس في اليوم التالي ان المعركة كانت اشبه بمذبحة ، اذ القى بيونسايدي
بجيوشه على مواقع العدو الحصينة مباشرة ، وان الاصابات تبلغ عشرة
آلاف بينها لم تبلغ اصابات العدو خمس ذلك الرقم وانسحب الجيش عبر
النهر وحزن الرئيس حزناً شديداً وتقدم بالتعزية الى الجنود وقال لهم :
« ان البسالة التي اظهرتموها وانتم في حقل مكشوف ضد عدو متحصن ،
والنجاح الذي حققتموه في عبور النهر ذهاباً واياباً امام العدو ، يشهدان
انكم حائزون على جميع مزايا الجيش العظيم الذي سينصر الوطن وحكومته
الشعبية . وكان الجيش بحاجة الى تشجيع ، فقد اصابته الكارثة في الصميم .
وكان لوم بيونسايدي لتضعيته بالارواح دون جدوى يدور على كل لسان
وكثر الفرار من الجيش واستقالة الضباط ، وكانت بعض الفرق توشك
على الفتنة والتمرد . ويئس بعض ضعاف القلوب من احراز النصر وطالبوا
بالسلم بأي ثمن وساد الامة شعور بالملل من الحرب .

في تلك المحن والظروف العصيبة وجد لنكولن عزاء في صحبة سيورد .
فان وزير الخارجية المرشح بعد هزيمته عام ١٨٦٠ ، بدأ يقدر ذكاء لنكولن
وفطنته ، فتخلى عن مطامحه اخلاصاً لرئيسه . وقد وحد ضغط الحرب بين

ارائها ، بيد ان متطرفي الحزب الجمهوري اعتبروا سيورد مسؤولاً عن تقييد سياسة الرئيس الخاصة بالرق التي لو اطلقت لها الحرية لأنت الحرب بسرعة . وهذا العداء لسيورد كان يغذيه سرّاً وزير المالية تشايس ، ذلك الداهية الذي استطاع جباية المال اللازم للحرب . وقد اعتبر نفسه اقدر عضو في الوزارة فكان يتمتع لثمة استشارته حول الامور السياسية . وكان يسمع انتقاد الرئيس وقلما يدافع عنه ، ويقول هو انه ليس مسؤولاً عن ادارة الحرب ، ملمعاً بذلك الى ان الامور كانت تسير افضل لو كان هو المسؤول . وزينت له مطامحه ان يخاطب ود متطرفي الجمهوريين ، فيعير اذنأ صاغية الى كل ما يقال عن تأثير سيورد على الرئيس ، بما يشجع بل يوحى بالشكوى من ذلك . وكان يبيت ازاحت سيورد من الوزارة فيلحق به بقية الاعضاء المتحفظين ، فيخلو الجو لتشايس مع الاعضاء الجدد . وكان لنكولن يعلم بنوايا تشايس ، بيد انه كان يحترم الاثنين لان وجودهما معاً كان يوازن الوزارة ولا غنى له عن احدهما . وكانت الهزيمة في معركة فريدريكسبورغ قد اثارت المشاعر حتى ان صديق لنكولن وهو جوزيف مديل كتب بالصحف يقول : يجب اخراج سيورد من الوزارة فانه شؤم على الرئيس ، بل انه الرئيس الفعلي يضع اسفنجة مشبعة بالكلوروفورم على انف لنكولن . اما سميت فهو صفر على اليسار وبيتس احفورة متعجزة كان يجب ان تبقى في صخرتها . ان هؤلاء الثلاثة يجب ان يخرجوا من الوزارة .

وعقد الشيوخ من الحزب الجمهوري اجتماعات صاخبة حملوا فيها على سيورد ولحقوا الى وجوب استقالة الرئيس . وبعد اخذ ورد تقرر ان يطلب من الرئيس اعادة تشكيل الوزارة ، وانتخبوا لجنة من تسعة اعضاء لمقابلة الرئيس . وعلم سيورد بما دار في الاجتماع ، فقدم استقالته تسهيلاً لمهمة الرئيس . ولم يكن الرئيس يعبأ بنفسه ، وكان على استعداد للتخلي عن

منصبه لو وجد من يفوز بثقة الامة اكثر منه . وما دام ذلك الرجل غير موجود ، فعليه ان يستمر في الخدمة ، وان يمارس القيادة الصحيحة دون اذعان للمتطرفين . واصفى انكولان في الجلسة التالية الى الناطق بلسان الشيوخ وهو يتهم سيورد بالفتور وعدم الحزم في مقاومة الرق وبالتاثير غير المرغوب على الرئيس ، وطالب باحداث تغيير بالسياسة وزيادة اجتماعات الوزارة . وكلف الرئيس اللجنة ان تعود في مساء اليوم التالي . ودعا وزارته الى عقد جلسة في الصباح فلم يحضر سيورد . وشرح شكوى الشيوخ وامتعاضه منها وفند اقوالهم . ولم يكن هو في الحقيقة مديراً قديراً بحسب مفهوم ذلك التعبير ، إذ كانت يكرة الاجراءات الرسمية فيختصرها . ولما عادت لجنة الشيوخ الى البيت الابيض ذلك المساء ، فوجئت بحضور جميع اعضاء الوزارة ما عدا سيورد . فقد شاء الرئيس ان تبحث الامور على المكشوف . واكد ان الوزارة كانت تعمل دائماً في وفاق ووثام ، وان سيورد لم يستأثر بالقرارات دون موافقته . وتضايق تشايس من تطور الامور ، ولم يكن في وسعه ان ينكر صدق تصريحات الرئيس . فاخذ الشيوخ يصوبون الية انظارهم مستفهمين ولكن سكونه اوقع في نفوسهم الارتياب . وقاد انكولان الجلسة بحذق وحزم ، موحياً بذلك انه يعتبر الوزارة من شؤونه الخاصة وانـه ليس مستعداً للخضوع الى ما ي عليه عليه الشيوخ . وبعد خمس ساعات هدأت تاثير الشيوخ ، فلما سألهم الرئيس عن لا يزال مصرأ على تغيير سيورد لم يجب بالاجاب سوى أربعة . ولم يكن الرئيس قد قبل استقالة سيورد . وقال تشايس لستانتون عند ما زار البيت الابيض انه قد استاء من حوادث الليلة السابقة الى حد انه أعد استقالته فسأله الرئيس أين هي . فأجاب ها هي ذي ومد يده بالمغلف فقال الرئيس هاها ، فلما تباطأ اختطفها منه ونشرها وهو يتنسم ويقول هذا حل لعقدة العقد ، وقدم ستانتون استقالته أيضاً ولكن

الرئيس رفضها . ثم ارسل الى كل من تشايس وسيورد كتاباً مماثلاً قال فيه ان المصلحة العامة تمنعه عن قبول الاستقالة ، ويطلب عودة كل منها الى وظيفته . واذعن سيورد على الفور ، اما تشايس فشعر بان شرفه قد اهين عند ما تذكر سرور الرئيس عند تقديمه الاستقالة ، فطلب مهلة للتفكير ، ولكنه ما عثم ان سحب استقالته حالما علم بعودة سيورد . وسر الرئيس بالطريقة التي اتبعها في حل تلك الازمة . ولم يجر في الوزارة سوى تغيير واحد لا علاقة له بالازمة ، إذ عين الرئيس كالب سميث قاضياً في انديانا ، وانتخب جون آشر خلفاً له كوزير للداخلية .

اقرب اليوم الاول من عام ١٨٦٣ ، فأخذ الناس يتساءلون عما إذا كان الرئيس سيبر بوعده بتحرير العبيد . اما هو فلم تبرح من ذهنه مسألة التحرير بعد التعويض ، وكان قد اوصى في رسالته الى الكونغرس باتخاذ تعديل دستوري ينص على أولاً : مكافأة جميع الولايات التي تلغي الرق قبل عام ١٩٠٠ بصورة سندات حكومية . ثانياً : ضمان حرية جميع العبيد الذين تحرروهم الحرب ، مع التعويض على اميادهم الموالين وثالثاً : تحويل الكونغرس سلطة اعداد مشروع لاجداد أرض يستعمرها العبيد المحررون . وكان لا يزال يؤمن بان التحرير في الولايات الوسطى سيعجل في انهاء الحرب . وقد توصل الى الكونغرس ان يؤيد تعديله المقترح ، قائلاً ان قواعد الماضي الهاديء لا تنفع في الحاضر المضطرب ، وان الموقف زاخر بالمصاعب ، وانه مادامت القضية في شكل جديد ، فيجب تجديد طريقة التفكير والعمل . ثم قال بالحرف الواحد : « ايها المواطنين ، لا يمكن التهرب من التاريخ . فنحن في هذا الكونغرس وفي هذه الادارة ستذكرنا الاجيال رغم انفسنا . ان التجربة المحرقة التي نجتازها ستضفي علينا اما الشرف واما العار . نقول اننا الى جانب الاتحاد ولن ينسى العالم ما نقول . ونعرف كيف ننقذ الاتحاد ، إذ نحن الذين هنا نملك زمام السلطة

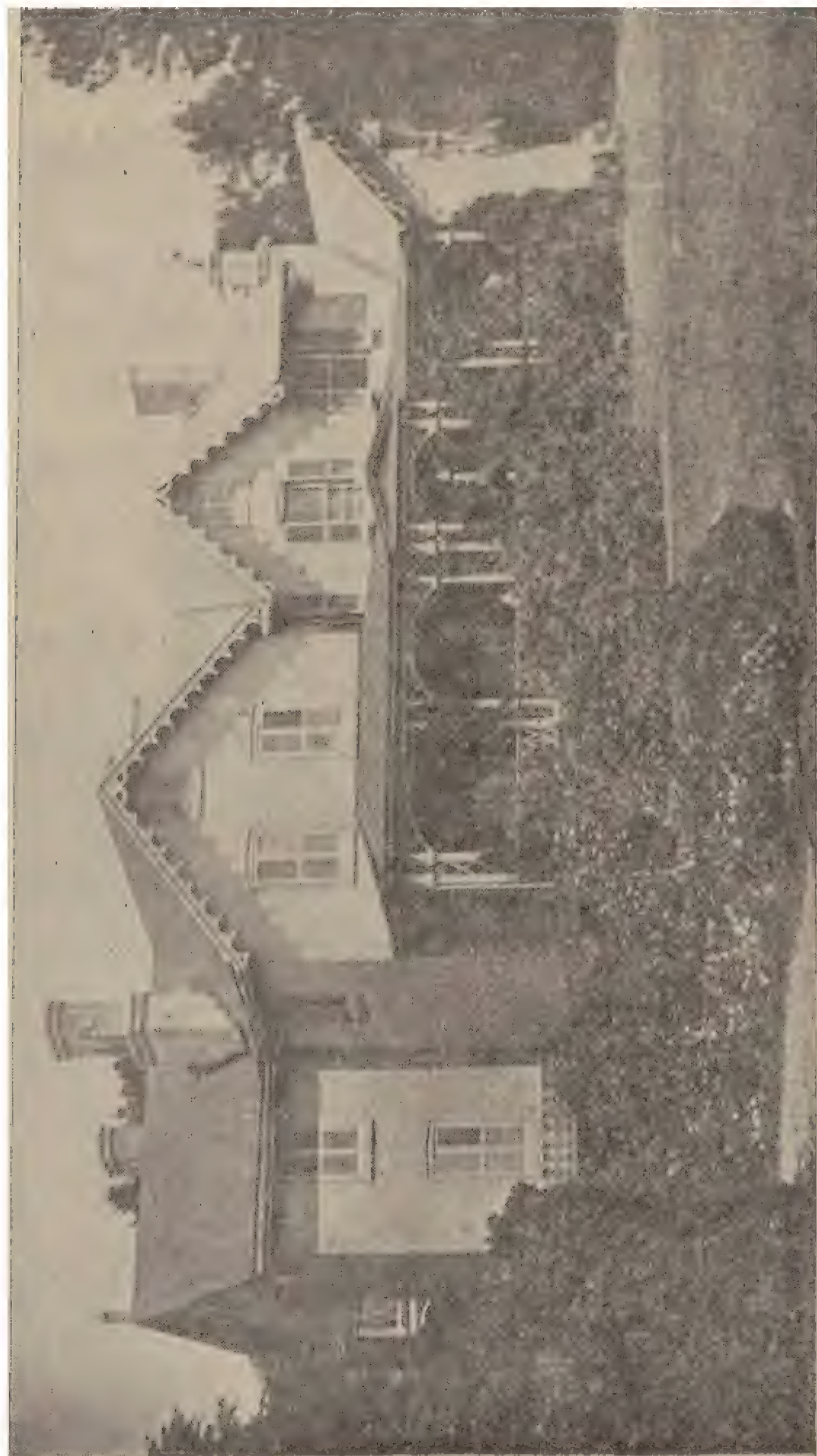
وتتحمل المسؤولية . وفي اعطاء الحرية الى العبد . تؤمن الحرية للحر .
وسننقد بالكرامة اعظم امل في العالم ، او نخسره بالهوان . وقد تنجح
وسائل أخرى ، ولكن هذه الوسيلة لن تفشل ، لانها بسيطة وسليمة .
وكريمة وعادلة ، فاذا اتبعناها استحسن العالم عملنا وبارك الله .

لم يستثن لنكولن الولايات الثائرة من فوائد التعديل المقترح ، فهو لم
يعتبرها قط الا داخل الاتحاد . أضف إلى ذلك ان تصديق التعديل يقتضي
موافقة ثلاثة أرباع الولايات وكان قد ذكر في بلاغ التحرير الاول ان
التمثيل في الكونغرس سيعتبر برهاناً على تجديد الولاء للاتحاد واطهر
استعداده لمساعدة الجنوب وتسهيل عودة الولايات المنشقة . وجاء الى
البيت الابيض جون بوليني من نيواورلينز وهو الممثل الوحيد من اقصى
الجنوب الذي ظل في الكونغرس . وكان مريضاً ولكنه جاء يطلب من
الرئيس تشجيع روح الولاء للاتحاد التي انبثقت من جديد في لويزيانا .
وأرسل لنكولن بواسطته كتباً مكتومة الى الجنرال بطار والجنرال شبلي
حاكم لويزيانا العسكري يطلب منها مساعدة بوليني وغيره في انتخاب
ممثلين للكونغرس ، وتشجيع الشعب على الاشتراك في الانتخاب . وأرسل
كتباً مماثلة الى الجنرال غرانت وسواه من القواد وسمع لنكولن بان
بعض ضباط جيش الاتحاد يحاولون ترشيح انفسهم لعضوية الكونغرس
مع انهم ليسوا من مواطني تلك الولاية فكتب ينهي عن ذلك ولكن غيره
من زعماء الحزب الجمهوري كانوا يفقدون روح التسامح التي كانت فيه ،
ويؤثرون عقاب الولايات الثائرة وضمن سيادة الحزب الجمهوري الى عدة
سنوات . بيد ان الحاكم شبلي اتبع تعليمات لنكولن فاجرى انتخابات
منظمة في ولاية لويزيانا .

صدر بلاغ التحرير يوم رأس السنة ، يرسم بتحرير جميع العبيد في المناطق
الثائرة ، وتساهل الرئيس بقدر المستطاع ، فأعفى من احكام المرسوم

اقضية لويزيانا التي انتخبت اعضاء للكونغرس ، وكذلك تنسي حيث
اعاد الحاكم الحكومة المدنية ، وقضائين في ولاية فرجينيا . ولم يسمح
بقيام العبيد بثورة بالجنوب ، على رغم ان ذلك قد يشل حركته ويعجل
في انتهاء الحرب ، بل طلب من السود تجنب اعمال العنف . وقبل في
خدمة الجيش كل من رغب في ذلك منهم . وكان رد الفعل في الرأي العام
متبايناً ، فبينما ابتهج الكثيرون ، ابدى متطرفو التحريم عدم رضاهم عن
انصاف الحلول . اما الديمقراطيون في الشمال فانهم اتهموا لنكولان بالخيانة ،
اذ بعد ان غرر بهم لتأييد حرب في سبيل الاتحاد ، حول الحرب ضد
الرق . وقال زعماء الانفصال انه لم يعد للصلح مجال . وكتب ادمز من
لندن يقول ان البلاغ كان عظيم الاثر في انكسار لاسيا بين طبقات العمال ،
فاخذوا يعقدون اجتماعات عامة ويتخذون من المقررات ما يشي على عمل
الرئيس وكان الرئيس يرد عليهم باجمل عبارات التقدير والشكر .
لم يصل لنكولان بسهولة الى قرار استخدام العبيد في الجيش ومع ان
القانون خوله صلاحية واسعة في استخدامهم فانه احجم عن استخدام
السود لقتل البيض . وكان منذ ان فكر بالتحريرو ، قد أدرك صعوبة
مشكلة العلاقات العنصرية التي لا بد ان تنجم عن التحريرو . وكلها امعن في
التفكير اقتنع بان الافضل للطرفين البيض والسود ان يعيشا منفصلين ،
او بالحري ابعاد السود عن البلاد لو امكن ولكنه لم يفكر قط في ابعادهم
بالاكراه بل بحض ارادتهم وعندما كان يستعد لاصدار مرسوم التحريرو
الاول ، دعا اليه بعض احرار الملونين للتفاوض معهم وكانت اول مرة
يدخل فيها الزوج البيت الابيض وقد خاطبهم بصراحة قائلاً بوجود بعض
الفوارق التي لا تمحي بين العنصرين ، وان الحرية قد تحسن احوال الزوج
ولكنها لا تضمن لهم المساواة ، ولولا وجودهم في الولايات المتحدة لما
وقعت الحرب ثم اهاب بهم الى التضحية من اجل انفسهم والبشرية واسرار

الى وجود مناجم غنية بالفحم في اميركا الوسطى قرب بوزخ بناما ، والى
امكانية عمل الزنوج هناك وانشاء وطن لهم ، وواعد بالاهتمام بحسن معاملة
المهاجرين منهم . ولكنه تخلى عن ذلك المشروع لما ثبت بالتجارب العلمية
عدم قيمة تلك المناجم ، وتبنى مشروعاً آخر هو استعمار الزنوج لجزيرة
قاش وكانت من ممتلكات جمهورية هايتي الزنجية . وكان أحد التجار قد
حصل على امتياز في الجزيرة ، ووافق على نقل ٥٠٠٠ زنجي باجرة ٥٠
دولا للرأس الواحد على ان يزودهم بالمسكن والمطعم والعلاج والكنايس
والمدارس والاستخدام . وقد نقل فعلاً اكثر من ٤٠٠ زنجي على نفقة
الحكومة ، قبل ان يفشل المشروع لاسباب عديدة . واضطرت سفن
الحكومة عام ١٨٦٤ الى اعادة من بقي منهم على قيد الحياة . وكان قد
استقر في نفس الرئيس ان مشروع الاستعمار غير عملي ، وان عليه ان
يبتدع برنامجاً يعيش بموجبه العنصران بانسجام داخل الولايات المتحدة .
وكان مما ساعد الرئيس على الوصول الى تلك النتيجة ، اقتناعه المطرد بانه
لم يبق لديه من وسيلة لترجيح كفة الحرب سوى استعمال الزنجي كجندي
فيساهم الزنجي في كسب الحرب وحرية ، كما يبرهن على ذكائه وبسالته
ولكنه كان يصطنع الحذر الشديد في تنفيذ خطته لئلا يثير نقمة الجمهور
عليه ، فلم يذكر في المرسوم الاول شيئاً عن استخدام الزنجي كجندي
اما المرسوم الاخير فعرض على الزنوج فرصة القتال . وكان بعض قواد
الاتحاد في الجنوب قد بدأوا يعلمون السود استعمال الاسلحة . وفي آذار من
عام ١٨٦٣ انتظم أمر تجنيدهم . وقد رأى الشاعر لونغفلو اول فصل من
الجنود الملونين انشيء في الشمال ، وهو يسير في شوارع بوسطن الى ميادين
القتال . فكتب يقول : كان منظرأ مؤثراً فيه شيء من الطرافة والغرابة
كالحم . وأخيراً وافق الشمال على ان يقاتل الزنجي في سبيل الحرية . وكان
في جيش الشمال عند انتهاء الحرب من الجنود الملونين نحو ١٨٦٠٠٠



المنزل الذي كان يقضي لنيكولان فيه فصل الصيف

لم يسترح الرئيس من هوموه الحربية باعلان مرسوم التحرير . ففي نفس اليوم عقد مؤتمراً حربياً مع القائد بيرنسايد . ووردت أخبار عن تهقر بعض قواته ودامت المعركة يومين آخرين فبلغت خسائر الاتحاد ما يقرب من ١٣٠٠٠ بينما خسر الجنوب اكثر من ١١٠٠٠ . وأسفر المؤتمر عن إزدياد حيرة الرئيس فقد حصل على قائد نشيط بعد ما عانى ما عاناه من ماك كليان ، بيد ان قرارات بورنسايد كانت هوجاء عديمة الروية ، وبعد كارثة فرد ريكسبورغ عاد القائد فاقترح إعادة الهجوم رغم احتجاج قواده . فجاء الى الرئيس من حذره من سوء العاقبة فيما لو شن هجوم آخر . فكتب اليه يقول ان لديه من الاسباب ما يمنعه من اتيان أية حركة عامة قبل اطلاعه عليها . وكانت حجة بيرنسايد ان من الافضل اشغال الجيش في فصل الشتاء بدلاً من تركه يتضجر في أما كنه . وطلب الرئيس من هالك ان يبت في الامر وإلا فما الفائدة منه في ذلك المنصب . وامتعض هالك من ذلك النقد المستتر فقدم استقالته واضطر الرئيس الى استرداد كتابه اليه لترضيته . والح بيرنسايد في السماح له بالهجوم وسمح له الرئيس بذلك مع الحذر الشديد . وتحرك الجيش في يوم بارد مطر لعبور النهر وتحولت الطرق الى اوحال غاص فيها الرجال والحيل والمركبات وأخيراً اضطر الجيش الى العودة الى مكانه اذ لم يقو على مغالبة الطبيعة . وقصد بورنسايد ليلا الى واشنطن واقترح على الرئيس تسريح بعض قواده المتذمرين ، والا فانه يستقبل ، وعاد الى مقره تاركاً الرئيس يدرس انداره . ولم يكن القرار بشأن القائد عسيراً اذ كان قد فقد ثقة الجيش به . واختار الرئيس الجنرال هوكر خلفاً لبيرنسايد . ولم يكن الرئيس مجهل نقاط الضعف فيه من مثل حب الثروة وادمان الخمر وكره السلطة العليا . ولكنه كان ذا مزايا عسكرية ممتازة ، وقد تخرج في وست بونيت وابلى في حرب المكسيك ، وساهم في جميع المعارك الهامة في الجهة

الشرقية ، وقد أحبه الجنود لبسالته .

قضى لنكولن مع بعض الاصدقاء اسبوعاً في مقر جيش بوتوماك في مطلع شهر نيسان . وتطلع بالمنظار فرأى انقاض بلدة فردريكسبورغ . ولاحظ ان هو كر كان قد أعاد معنويات الجيش . وقد قال هذا انه يقود ابدع جيش على وجه الارض ، وانه مشتاق الى مقارعة العدو ، وكان لديه ١٠٠ الف مقابل ٦٠ الف كانت لدى الجنرال لي . وكتب أحد الذين كانوا يرافقون الرئيس يقول لزوجته : عاد الامل يراودنا اكثر من ذي قبل ، فالقائد هو كر يحترم رأي الرئيس ورجاحة عقله ، وسيعمل وفقاً لاقتراحاته بحسن نية وهو مالم يحدث قبلا اذ كان ماك كليلان دائماً يعارض الرئيس ، وكانت الخطة التي اتفقا عليها هي نفس الخطة التي اقترحها الرئيس على بورنسايد ، وهي ارسال الجنرال ستونمان مع فرسانه لتخريب موصلات الجنوب وتهديد رتشموند ، وترك الجنرال سدجويك مع ٤٠٠٠٠ لعبور النهر عند فردريكسبورغ ، بعد ان يكون قد قطع النهر ببقية الجيش لطرد الجنرال لي من استحكاماته . وعبر هو كر النهر ، ولكنه اصطدم في اليوم التالي بتحصينات جديدة فاخذ يعود ادراجه . وقبض لي على زمام المبادرة فارسل جاكسون كعادته ليضرب جناح هو كر اليمين المكشوف . وخيل الى هو كر ان لي كان يتقهقر . ولما هاجم جاكسون هجومه المفاجيء كان جنود الاتحاد يستعدون للعشاء . ودارت رحى المعركة بين الغابات والادغال الكثيفة ، الى ان اوقفت المدفعية تقدم جاكسون ، وخيم الظلام فحال دون اتمام هزيمة هو كر . وكان سدجويك قد عبر النهر ليضرب لي في المؤخرة فصدده لي وضيق الخناق على هو كر . ووردت برقية الى وشنتطن تفيد ان الحرب كانت ضاربة والحسائر جسيمة من الطرفين . وان الجنرال هو كر جرح جرحاً خفيفاً ثم وردت برقية من هو كر نفسه قال فيها ان المعركة لم تسفر عن نجاح اذ

خسروا موقعاً حصيناً للدفاع ، ولكنه لا ييأس من النجاح وبما ان سدويك تأخر عن الوصول فهو لا يستطيع التكهن بالنتيجة وتبين للرئيس بعد أيام ما توقعه من هزيمة هو كر لانه لم ينسق هجومه مع سدجويك ، ولم يستخدم جميع الجيش في المعركة . ثم جاءت الاخبار باندحار جيش بوتوماك وتقهقره عبر النهر . وقد لاحظ من كان في البيت الابيض شدة انفعال الرئيس وقد طأطأ رأسه وأمسك بيديه وراء ظهره . وأخذ يزرع الغرفة وهو يكرر متأوهاً يا الهي يا الهي !! ماذا تقول البلاد الآن ؟ وهرع الرئيس الى مر كبته فقصد مكتب هالك ثم توجه الى مقر هو كر وما عثم ان عاد ، اذ هطلت امطار غزيرة رفعت منسوب مياه النهر فحالت دون أي هجوم على جيش الاتحاد . ونشرت صحف رتشموند ما اصاب الجنوب من خسائر جسيمة لا سيما بين كبار القواد ، فقد اصيب جاكسون اصابة خطيرة وتبين فيما بعد ان جاكسون كان عائداً من دورية ليلية فقتل خطأ من قبل بعض رجاله .

تحسنت الاوضاع في الغرب بعد زوال بعض العراقيين . فقد رقي هالك الى منصب القيادة العامة ، وغرانت الى قيادة تنسي ، وأصبح الاتحاديون يسيطرون على نهر مسيسيبي الا اقله أي نحو ٢٥٠ ميلا ظلت في جـوزة الجنوب كام طريق لاستيراد المعدات والمواشي والاطعمة وكانت بلدة فكسبرج مفتاح هذا القسم من النهر وحصنه الطبيعي القائم على مرتفع فوق مياه النهر وقد حصنها الجنوب بالمدافع والمتاريس ، بحيث اصبحت منبعية لم يقو الجنرال غرانت على اقتحامها ، وعول على محاولة ذلك من جهة الجنوب ، ولكنه خشي من نقل جنوده امام المدافع الثقيلة ، فقطع صلته بقاعدته وعبر الى الضفة الغربية من المسيسيبي . وهناك حاول اجتياز البلدة بحفر قناة تقتصر عطفة النهر وقد تضايق في اثناء تلك العملية من شدة

الوحوول وكثرة البعوض والحميات، أضف إلى ذلك مدفعية العدو وقرر غرانت بعد ثلاثة أشهر من المصاعب ان يجازف باجتياز البطاريات المنصوبة فوق النهر . فسار بجيشه عبر عدد من المجاري والجداول غربي المسيسي الى مسافة نحو ٥٠ ميلاً من فكسبرغ ، حيث أمر قائد سفنه النهرية ان يجتاز من امام البلدة . وفي ظلمة ليلة ١٦ نيسان الحالكه رفع الاسطول مراسيه وسار مع النهر وأنواره مطفأة وانطلقت مدافع الجنوب تقصف عند ما افاقت على حركة الشمال وردت عليها مدافع الاسطول النهري الى ان اجتازت البلدة بأقل ما يمكن من الضرر وانزلت جنود غرانت على الضفة الشرقية وبعد أيام كانت على استعداد للهجوم وكان جيش غرانت يفوق جيش الجنوب عدداً في تلك المنطقة ، ولكن مواصلاته مع الشمال كانت قد انقطعت ، ومن ورائه النهر العريض يتحكم فيه العدو ، والانهمام إذ ذاك معناه اما فناء الجيش كله واما استسلامه وأبرق غرانت الى هالك يقول قد لا تسمع شيئاً مني طيلة بضعة أيام . ولم يعلم الرئيس شيئاً عن غرانت الا ما ذكرته صحف الجنوب عنه أو ما استطاع جيش الشمال فهمه من الشارات المتبادلة بين الجنوبيين وقد كان الشماليون قد استولوا على مفتاح فك رموزها . وأخيراً ورد ما يفيد الرئيس ان الجنرال ربح خمس معارك خلال ثلاثة اسابيع واستولى على بلدة جاكسون وطارده القائد الى ما وراء تحصينات فكسبرغ . ثم أبرق امير الاسطول يقول : لم يسبق طيلة هذه الحرب ان انكسر الثوار مثل هذا الانكسار ، ففي بضع ساعات وباستثناء ميناء هدسون الذي سيلحق فكسبرغ ، سيصبح نهر المسيسي مفتوحاً على طول مجراه . ولم تستسلم فكسبورغ بسهولة رغم هجمتين عنيفتين ، فقرر غرانت محاصرتها ، وظل يقصفها ليلاً نهاراً بينما قصفها مدافع الاسطول من النهر وأخذ شبح الجوع يتلصص في البلدة

وكانت فكسبرغ في قبضة الجنرال غرانت ، الا إذا استطاع الجنرال
جونستون امدادها بالجيش لرفع الحصار عنها . كان غرانت هذا كأنما
يبعث عن نخالب الموت ، فاذا نجا من أحدها اندفع الى الآخر .



الفصل السابع عشر دلائل التحسن

أخذت سياسة لنكولن في ترضية الحزبين تنذر بالانهيار . فلقـد ميز الديمقراطيةين الموالين منذ البداية باعظائهم مناصب وقيادات هامة ، لانه كان يرحب بخدمات الاكفاء دون تمييز . وقد افادت هذه السياسة في صيانة الولايات الوسطى والتي اكانت ذات ميول جنوبية . وقد أصبح بعض الديمقراطيين امثال مستانتون وبطار ولوغان من صميم الجمهوريين . ولكن ذوي المطامع منهم رأوا اغتنام تلك الفرصة لاحتراز مكاسب شخصية وجاء اول ارتداد كبير عن لنكولن من قبل الديمقراطيين عند ما اعلن مرسوم التحرير الاول . وقد كان الكثيرون منهم يؤيدون حرباً لانقاذ الاتحاد ، فأخذوا يبدون نعتهم علناً . وتآلفت جمعيات سرية كجمعية فرسان الدائرة الذهبية وجمعية فرسان اميركا وجمعية ابناء الحرية ، واخذ أعضاؤها يشهرون تأييدهم للجنوب ويقومون باعمال عدوانية ضد الحكومة وساد الارهاب في الاماكن النائبة ، وجاءت تقارير عن مؤامرات للاستيلاء على السجون وتسليح السجناء الجنوبيين . ولم يحجم الرئيس عن أخذ هؤلاء الاعداء بشدة . وفي عام ١٨٦١ خول الجنرال سكوت او اي قائد اعلى سواه حق تعليق أمر احضار المسجونين بلا محاكمة عند الاقتضاء على طول الخط الحديدي بين واشنطن وفيلادلفيا . واعترض

قاضي القضاة بأن حق تعليق ذلك الامر انما هو من اختصاص الكونغرس
وحذر الرئيس من مخالفة القوانين التي أقسم على صيانتها . فأجاب الرئيس
أيجوز ان تمضي جميع القوانين دون تنفيذ ما عدا واحد منها ، وتتم اار
الحكومة في سبيل المحافظة على ذلك القانون الواحد؟ و اردف قائلاً ان
لا مخالفة هناك ، فالدستور لا يعين من له الحق في الحكم بضرورة تعليق
ذلك الامر ، أهو الكونغرس ام الرئيس . وظل القاء القبض يجري على
المشبهين ، وفي خريف ١٨٦٢ حرم الرئيس جميع المسجونين بأمر
عسكري من حق احضارهم للمحاكمة . وفي العام التالي بناء على السلطة
التي خوله اياها الكونغرس ، جعل ذلك الامر يشمل جميع البلاد .
لما أصبح ستانتون وزيراً للحربية ، انتقلت صلاحية محاكمة السجناء
السياسيين من وزارة الخارجية الى وزارة الحربية . ومارس ستانتون
سلطته دون هوادة ، فالقى القبض على اكثر من ١٣٠.٠٠٠ شخص ،
وكان معظمهم من الديمقراطيين سجنوا احتياطاً لا لذنب اقترفوه ، مما جعل
أخصام لنكولن يتهمون به باجراء حركة تطهير سياسي واغتصاب سلطات لا
يلبأ اليها الا الطغاة وواجه لنكولن ما تواجه عادة حكومة ديمقراطية
ابان الحرب ، اي تضيق الحريات المدنية في سبيل صيانتها . بيد ان سياسة
القاء القبض دون محاكمة ، و اعلان مرسوم التحرير ، واطالة الحرب مع
تفاقم الاصابات ، وشعور الامة بالملل من الحرب ، كانت كلها اهدافاً للنقمة
الديمقراطيين . ولم يتورع هؤلاء عن التصريح علناً بان الجنوب لا يقهر
وطلبوا المفاوضة لاجل الصلح بأي ثمن ، مما أشاع روح الانهزامية في الشمال
وجيشه . وكان افزع هؤلاء الديمقراطيين رجلا يدعى فالانديفام من
اعضاء الكونغرس ، أخذ يخطب في اجتماعات اوهايو مندداً بالحرب
وبطغيان حكومة لنكولن ، قائلاً ان غايتها هي تحرير العبيد واستعباد
البيض . كما حمل على سياسة التجنيد الاجباري المقترحة وبينما كان هذا

ينفث سمومه وفضائنه ، جاء ضابط بلباس مدني من قبل بيرنسايد ، واخذ يدون نهاذج من شتائه . وبعد ثلاثة ايام اقتحم الجنود داره واستاقوه الى سجن عسكري في سنسناني ، حيث حكم عليه بالسجن طيلة الحرب وصادق بيرنسايد علي الحكم . وفوجي لنكولن بالخبر ، ولم يشأ ان يستغل الديمقراطيون الحادث ويجعلوا من فالانديغام شهيداً ، فخفف الحكم عليه من السجن الى النفي داخل حدود حكومة الجنوب ونقلته فعلا ثلة من الجنود الى الحدود . ومع ذلك لم ينجح من حملات صحف الديمقراطيين وخطبائهم ورد الرئيس على القرارات المعادية التي اتخذت في مؤتمر ديمقراطي في اوهايو ، قائلاً انه كان من الممكن تبرير هذه الضجة لو ان الحكومة فعلت ما فعلت لمصلحتها الشخصية . الا ان فالانديغام كان يعيق التجنيد ويشجع الفرار من الجيش الذي هو عماد الامة . فهل يجوز اعدام شاب ساذج يفر من الجيش ، وان لا تمس شعرة من المحرض الذي دفعه الى الفرار ، ألا ان اسكات المحرض وانقاذ الشاب لمن الامور الدستورية ، بل اكثر من ذلك . انها نعمة ورحمة .

ظل الجيشان متقابلين عبر النهر طيلة فصل الربيع وفي ٥ حزيران ١٨٦٣ أبرق هوكر الى لنكولن بان جيش الجنوب قد ازمع التحرك ، واقترح ان يتوجه الى ريتشموند مباشرة . فحذره الرئيس من ذلك قائلاً ان هدفه يجب ان يكون جيش لي لا ريتشموند . ودب الفرع في العاصمة عند ما شاع . ان لي يتحرك شمالاً . وذهب الوزير ولز الى وزارة الحربية فوجد لنكولن يتحدث الى هالك وستانتون . فسألهم عن هوكر ، وكان ذلك السؤال هو ما يدور في رأس الرئيس ، وقد أبرق الى هوكر يحثه على استغلال الفرصة السانحة من انتشار جيوش لي فيضرب ضربته . فلم يكن أحد يعرف وجهة لي بالضبط وشاع ان جيش الجنوب قد وصل شمالاً الى ماريلند وبنسلفانيا . واقترب هوكر من فريدريك في ماريلند

وطلب ان تلحق به الحامية الموجودة في المرتفعات هناك . ولكن هالك
رفض اعتقاداً منه بوجوب حماية جسر سكة الحديد الهام فقدم هو كر
استقالته . وكان لا بد من الاستغناء اما عن هو كر واما عن هالك . وعلى
رغم ما بدا من هو كر من بلاء حسن ، فان الرئيس لم يتوسم خيراً في
قائد يستقبل قبيل احد المعارك ولذلك قرر الاحتفاظ بهالك . وقد وردته
عدة برفيات تتوسل اليه ان يعيد ماك كيلان الى القيادة ، ولكنه ابلغ
الوزارة انه اختار الجنرال جورج ميد خلفاً لهو كر . وكان معظم الاعضاء
يجهل ذلك القائد المتواضع الحاد الخلق ، وهو الخامس الذي يعين لقيادة
جيش الشرق في بحر عام واحد . وكان ميد من خريجي وست بونت
ومن قدماء المحاربين في جيش بوتوماك ، ولا تزال على جسمه ندوب
جرحين ، وكان رزيناً محجـداً لم يتحيز لأي فريق من تحزبات الجيش
وكان الجنود يعرفونه كمقاتل عنيد ، ولو انهم لم يتعلموا ان يجبهوه ، فانهم
كانوا يحترمونه ويثقون به .

وصلت جنود الجنوب اراضي بنسلفانيا الحصبة ذات البيوت الحجرية
والغنية بالحيول والابقار . وكانت غاية لي نقل ميدان الحرب من اصقاع
فرجينيا المحرقة الى بقعة غنية خصبة . فاقترب الجيشان من بلدة غتيسبورغ
يتلمس أحدهما الآخر وجاء اول تموز بانباء معركة ضارية اصيب فيها الطرفان
بجسائر فادحة . وعند الاصيل تراجع جيش الاتحاد عبر البلدة وتمر كز بين
قبور المقبرة . وجاءت النجدات الى الطرفين ليلا ونصبت المدافع ونظمت
الصفوف . واصبح الصباح وخيل الى جيش الاتحاد ان اليوم قديم دون
معركة . ولكن سرعان ما قصفت مدافع العدو وتجدد القتال . واستولت
الكآبه على الرئيس ثانية ، وهرع الى وزارة الحربية ، واذا بهرفيه ارسلت
ليلا ولكنها وصلت متأخرة تقول ان المعركة دائرة بضراوة والجسائر فادحة
من كلا الطرفين . ولا تزال قواتنا جميعها مشتبكة ومنضطر الى القتال

حتى النهاية . وكان الجنرال ميد قد قرر اتخاذ خطة الدفاع في مراكزه
وآثر الجنرال لي خطة الهجوم على التقهقر ، وركز جهوده لضرب قلب
جيش العدو ، ومهد للهجوم بقصف شديد من المدافع . فردت عليه مدافع
ميد ، وانبطح رجاله على الأرض يطلقون بنادقهم فلم يصابوا بمثل ما أصيب
به رجال المدفعية . فما كان يسمع سوى لعلعة المدافع وفرقة الأشجار
وصهيل الخيول المصابة ، طيلة ساعتين و كأنها تفتحت أبواب جهنم . ثم
هدأ القصف واستعد جنود الاتحاد حالما رأوا أشباح المشاة والفرسان تطل
من وراء الغابة ، فقد قذف لي بخمسة عشر ألف من جنوده . ولعلعت
مدافع الاتحاد ثانية تقذف مختلف القذائف الصغيرة كلها اقتراب العدو .
وتشتت صفوف العدو ثم تجمعت ثانية وواصلت الهجوم حتى باتت على
بعد مئتي متر أو أدنى ، ثم اختلط الحابل بالنابل واشتبك الطرفان بالسلاح
الابيض . وكانت قوة الجنوب قد وهنت ، فتبعثر أفرادها وتقهقروا
عبر الوادي .

وردت في اليوم التالي انباء تقهقر لي ، وقد بلغت خسائر الاتحاد
٢٣٠.٠٠٠ من ٩٣.٠٠٠ اشتبكوا في المعركة ، بينما خسرت العدو نحو ٣٠.٠٠٠
من ٧٠.٠٠٠ ، بينهم عدد كبير من الضباط . وارسلت وزارة الحربية
٢.٠٠٠ اخرى الى ميد ، مع التعليمات باحراز نصر آخر قبل ان يجتاز
لي نهر بوتوماك . ولكن لم يحدث شيء سوى مناوشات خفيفة . وفي
نفس اليوم سلمت الى وزير البحرية بوقية رقص لها طرباً ، فقد استسلمت
فكسبورغ للجنرال غرانت فحملها الى البيت الابيض ليطلع الرئيس الذي
عانقه من شدة ابتهاجه . وأوعز الى هالك يبرق الى ميد يخبره باستسلام
فكسبورغ للجنرال غرانت ، ويطلب منه ان يتوج اعماله المجيدة بافناء
جيش لي وبذلك يتم القضاء على الثورة . وطار الشمال فرحاً بذنيك
الانتصارين فقرعت الاجراس واطلقت المدافع وحل التفاؤل محل التشاؤم

ظل لنكولان وهالك يلحان على ميد بوجوب الهجوم . ولكن تبين يوم ١٣ تموز ان لي كان قد اجتاز النهر وامتعض الرئيس عند ما سمع بان ميد هنا جيشه « علي طرد العدو من اراضيها » ، وتساءل متى يقلع قوادنا عن هذا الخطأ ، فان جميع البلاد هي ارضنا . وابق هالك الى ميد يقول : لعله لا حاجة الى القول ان فرار لي دون معركة اخرى لم يرق للرئيس . فطلب القائد اعفاءه من القيادة . فكتب اليه الرئيس مطولاً يشرح له اغتباطه بنجاحه ، وان يسؤه ان يؤلمه ، بيد انه لم يسهه الا التنفيس عما يشعر به من كرب . فان الفيضان اعاق تقهقر لي ، ولم تصله اية نجدات ، بينما وصلت النجدات الى ميد ، ومع ذلك انتظر حتى رجع المد فاقام لي الجسور وانسحب على مهله . واستطرد قائلاً : لعلك يا عزيزي لا تقدر عظم الكارثة التي نجمت عن فرار لي . لقد كان في متناول يدك ، ولو انك اطبقت عليه لانتهت الحرب . وما دمت لم تستطع الهجوم عليه في الاسبوع الماضي ، فكيف تستطيع ذلك جنوبي النهر حيث لا يمكنك ان تستخدم اكثر من ثلثي جيشك . لقد اضعت فرصتك الذهبية واني شديد الاسف على ذلك . وارجو ان لا تعتبر هذا في بمثابة محاكمة او اضطهاد . فما دمت قد اطلعت على عدم رضاي ، فقد رأيت ان الافضل ان اعلمك عن السبب . ولكن الرئيس تذكر ما قام به ميد من بلاء حسن في معركة غتيسبورغ ، ولعله ايضاً تذكر ان ليس في الحرب اشياء اكيدة ، وان كتابه هذا قد يفقده خدمات قائد مخلص ، فطواه ووضعها في ظرف كتب عليه : الى الجنرال ميد لم يرسل ولم يوقع . ولم تغب عن الرئيس العبرة من معركة كتي غتيسبورغ وفكسبورغ لقد قاتل ميد قتالاً ممتازاً في معركة ارغم عليها ، اما الجنرال غرانت فقد احتفظ بزمام المبادرة في وجه مشبطات عظيمة ، ولم يرض باقل من افناء العدو . كما كان يتعملى بميزة ضرورية للقادة ، وهي اعترافه بوجوب اذعان الجيش للحكومة المدنية .

فلما أمر بالمساعدة في تجنيد الزنوج ، أجاب : ثقوا بأني سأساعد بكل قواي وبقطع النظر عن رأيي الخاص في صواب سياسة تسليح الزنوج ام لا ، فقد صدر الامر الي وما علي إلا الطاعة ، وأشعر بان ليس من حقي ان اتدخل في سياسة الحكومة . ذلك هو القائد الذي كان الرئيس ينشده للقيادة العليا ، ولكنه لم يستطع الاستغناء عنه في الميدان الغربي .

كان نصر الشمال في تنيك المعركتين نقطة التحول في الحرب . فلن يستطيع الجنوب غزو الشمال بقوات كافية أو فرض سلم بواسطة انتصار حربي . واشتد حصار الشمال على المواني ، وفصل استيلاؤه على المسيسيبي ولايات تكساس واركنساس ولويزيانا الغربية ، فسد على الجنوب طرق التجارة عبر المكسيك . ولكن الجنوب لم يندحر ، وظلت قواته غربي المسيسيبي تقوم بحرب العصابات ، فتشغل عدداً كبيراً من قوات الاتحاد وشعر لي بنخسارة عدد كبير من الضباط المدربين ، ولكن الجنوب كان لا يزال محتفظاً باحتياطي كبير من الرجال والمؤن . وكان باستطاعته احراز بعض الانتصارات حتى ولو اتبع طريقة الدفاع . ولذلك كان هم لنكولن اقناع الشمال بضرورة المثابرة على التضحية . وكان أهم ما ينقصه ، الرجال للخدمة العسكرية . فلما عجزت بعض الولايات عن ايجاد المتطوعين ، لجأت الى التجنيد الاجباري . وأصبح ذلك قانوناً شاملاً عام ١٨٦٣ وكان في القانون عدة اخطاء ، منها استئجار شخص آخر ينوب عن المجند ، او دفع بدل عسكري قيمته ٣٠٠ دولار . وطلب لنكولن الغاء البدل العسكري ، ولكن الكونغرس لم يفعل شيئاً ولم يسفر التجنيد الاجباري الا عن نحو ٤٦٠٠٠٠ جندي و ١١٨٠٠٠٠ نائب . وفي الوقت الذي كانت فيه قوانين التجنيد الاجباري نافذة المفعول ، تطوع اكثر من مليون شخص وقد حدثت اضطرابات واعتراضات عندما فرض التجنيد الاجباري في اول الامر . وأخذ معظم تلك الاضطرابات بسرعة ، ولكن حدث

في نيويورك ان اقتحم الرعاع مكتب التجنيد واحرقوا البناية وساروا
 صاخبين في الشوارع ينهبون المتاجر . ونشطت الكراهية العنصرية فكان
 الزنوج يحاكمون ويعاقبون بلا قانون . وظل الرعاع يسيطرون على المدينة
 طيلة اربعة ايام . وتراوح تقدير القتلى بين ٥٠٠ و ١٢٠٠ ، وقد اُتلف
 من الاملاك والبضائع ما تزيد قيمته على مليون دولار ، وهرع الجيوش
 والبحارة لمساعدة البوليس لاعادة النظام . ولم يكن الرئيس مسؤولاً عن
 نقائص قانون التجنيد ، بل كان مضطراً الى تنفيذه كما وضعه الكونغرس .
 وبعد شهر تقريباً استؤنف العمل بقانون التجنيد في مدينة نيويورك .
 بينما ظل الجنرال غرانت يحاصر فكسبورغ مدة ستة شهور ، كان
 الرئيس يلح على القائد روز كرتز للتقدم في تنسي الشرقية ليمنع جونستون
 من نجدة فكسبورغ ، ولكنه كان ينتحل شتى الاعذار . وأخيراً تسلل
 عبر الجبال وأجبر العدو على اخلاء شتانوغا ، وهي مدخل جورجيا وملتقى
 هام للخطوط الحديدية . ثم وردت أخبار ماثيرة عن وصول نجدات كثيرة
 الى جيش العدو ؛ ولذلك أمر الرئيس القائد بيرنسايد بان يرسل النجدات
 الى روز كرتز . وفي ٢٠ ايلول استدعي الرئيس ليلاً لحضور مؤتمر دعا
 اليه ستانتون . واستولى عليه القلق لانها كانت المرة الاولى التي ينبه فيها
 من نومه ، وإذا في وزارة الحربية رسائل عن معركة ضارية هزم فيها جيش
 الشمال هزيمة منكرة . ثم جاء اليوم التالي بتقارير اقل افزاعاً ، فالجنرال
 توماس بجيشه المؤلف من ٢٥٠,٠٠٠ مقاتل صد هجمات متكررة . ولما
 نفذت الذخيرة من أحد فيالقه ، هجم على العدو بالحرايب . وقد انسحب
 جيش الاتحاد الى شتانوغا وهو غير واثق بالاحتفاظ بذلك المركز إلا إذا
 انجده بيرنسايد على الفور . وقد تبين فيما بعد ان بيرنسايد كان مشغولاً
 بمكافحة حرب العصابات ، فكتب اليه الرئيس يعنفه على تأخره في انجاده
 روز كرتز ولكنه لم يرسل الكتاب ، وانما امره بنجدة روز كرتز على

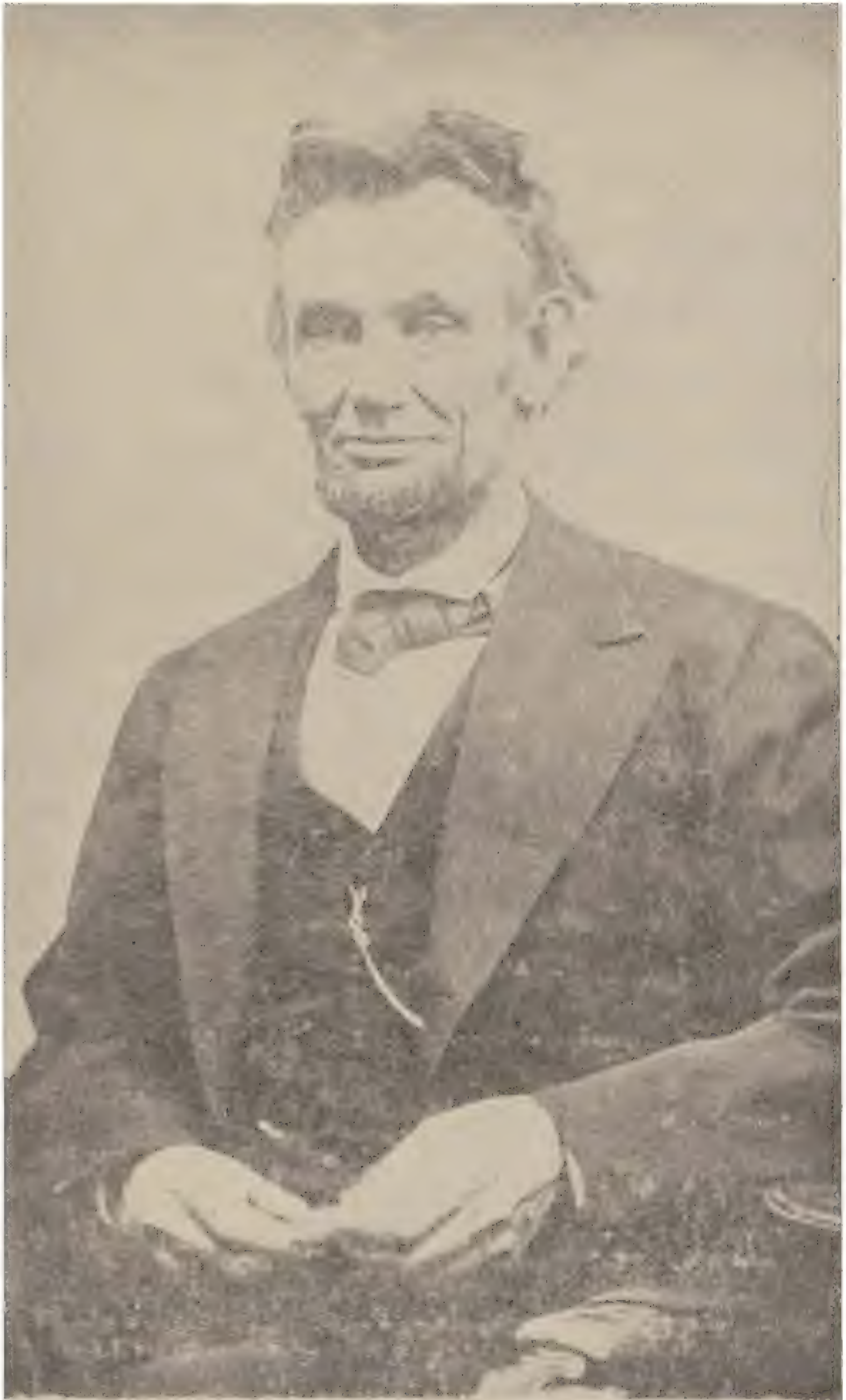
الفور . وفصل هو كره عن جيش بوتوماك وارسل الى شتانوغا مع
٣٠٠٠ مقاتل . وكان العدو قد تحصن ونصب مدافعه على نهر تنسي .
وابرق الرئيس الى روز كرتز ان يثبت في مكانه ريثما تأتيه النجدة ، لان
شتانوغا كانت نقطة استراتيجية هامة . وكان من حسن حظ روز كرتز
ان ديفس رئيس حكومة الجنوب تدخل في ذلك الوقت فاقترح ارسال
بعض القوات للقضاء على بيرنسايد . وعلم لنكولن بذلك فأرسل بطمئن
روز كرتز ويشجعه بقرب وصول النجدة من شير من وهو كره .

وفي ١٧ تشرين الاول تسلم الجنرال غرانت امراً بالتوجه الى لويزفيل
في كنتكي ، حيث يجد موظفاً من وزارة الحربية يحمل بعض التعليمات
اليه وكان الموفد ستانتون وزير الحربية بالذات ، ولكن الرجلين لم يلتقيا
من قبل . وسلم الوزير الى القائد امرين من الرئيس لكي يختار احدهما
ومع الفارق الطفيف بين الامرين فانها كانا ينصان على انشاء منطقة عسكرية
على المسيسيبي تحت قيادة الجنرال غرانت . واختار غرانت الامر الثاني
الذي يعين توماس قائداً محل روز كرتز . فلما اعلن هذا الاخير عن
عزمه على التقهقر ، ابرق غرانت الى توماس يعينه عوضاً عنه ويأمره
بالاحتفاظ بشتانوغا بأي ثمن وأجاب توماس بالاجاب . ووصل غرانت
الى آخر محطة على السكة الحديدية ، وكان عليه ان يقطع الباقي على ظهور
الحيل وهو مسافة ٥٥ ميلا . وسقط عن جواده واصيب بأذى ، واضطروا
الى حمله في الاقسام الوعرة من الطريق . ووصل بعد ستة ايام الى شتانوغا
وتسلم القيادة وفي بجر اسبوع كان قد سيطر على نهر تنسي ، وامن طرق
مواصلاته وتموين جنوده تمويناً تاماً .

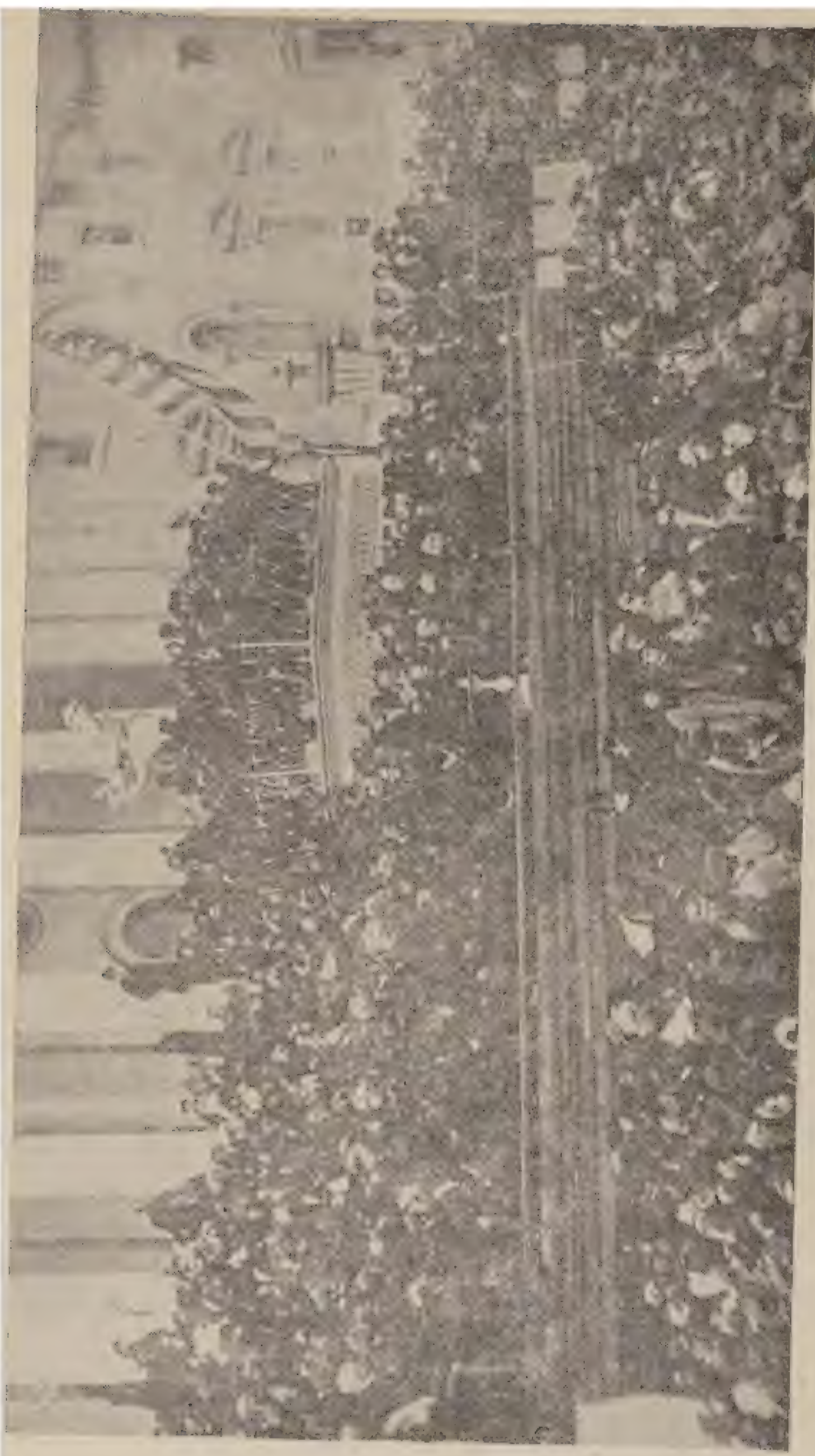
انهمك الديمقراطيون في الاستعداد للانتخابات السنوية المقبلة . وكان
الرئيس يراقب تطورات الموقف ، وكان اشد المناطق خطراً منطقة الغرب
الاطلس حيث اشتد نفور الامة بسبب القبض على فالانديغام ونشاط

الجمعيات السرية . ولم يرض ذلك المحرض عن الاستقبال الذي لاقاه في الجنوب ، فانتقل الى كندا حيث اصدر خطابات مثيرة الى الناخبين . والتمس الجمهوريون من الديمقراطيين الموالين ان ينضموا اليهم في حملة الانتخاب باسم حرب الاتحاد القومي . وعقدوا اجتماعاً في سبرينغفيلد دعوا اليه كل مخلص للاتحاد كما دعوا الرئيس للخطابة . ومنعته اشغاله عن الحضور ولكنه اغتم تلك الفرصة ليعرض اراءه على الامة في كتاب مستفيض ارسله باسم رئيس لجنة الاجتماع . وقد اعرب فيه عن شكره لجميع الذين ايدوه في صيانة الاتحاد . وقال ان من الناس من كان مستاء منه لانه لم يحقق لهم السلام الذي كانوا يريدونه ، ولكن السلام لا ينال الا عن احدى ثلاث طرق ، اولاً باخماد الثورة وهو ما كان يسمى اليه جاهداً ، ثانياً بالتخلي عن الاتحاد ، وهو ما لا يستطعمه مطلقاً ، وثالثاً بنوع من الترضية والحل الوسط ، وهو ما يعتقد انه مستحيل الا على شرط استقلال الجنوب . ولو ان الجنوب تقدم بمقترحات من اجل السلام في سبيل صيانة الاتحاد ، فلا يسهه رفضها او ابقاؤها سرية . ومن الناس من لم يرض عن حلوله الخاصة بالزواج ، وقد قالوا انهم ان يقاتلوا من اجل العبيد . وهو لم يطلب منهم ذلك وانما القتال في سبيل الاتحاد . وقال ان الامة بحاجة الى معونة الزنوج ، ولكن يجب حفزهم لكي يسدوا تلك المعونة . وكيف ننتظر منهم ان يفعلوا لنا شيئاً ، إذا نحن لم نفعل شيئاً من اجلهم ، وإذا اردنا ان يضحوا بارواحهم ، فيجب ان ندفعهم الى ذلك باقوى الحوافز اي بوعدهم بالحربة . وإذا اعطي هذا الوعد فيجب البر به . وليس السلام بعيداً كما كان يبدو سابقاً . واملني كبير في انه آت عن قريب ليبقى ويدوم . ونكون قد اثبتنا إذ ذاك ان لا نجاح بين الاحرار لتحكيم رصاص البنادق عوضاً عن اوراق الاقتراع . وسيبقى من السود من يتذكر انهم قد ساهموا في اىصال البشرية الى هذا المستوى الرفيع ،

واخشى ان يكون هناك من البيض من لا يستطيع ان ينسى انه حاول
بضعفينة القلب وخداع اللسان ان يعيق ذلك التقدم . ومع ذلك يجب ان
لا يستخفنا الفرح بالنصر العاجل وما علينا الا الاجتهاد في تطبيق الوسائل
اللازمة ، واثقين من ان الاله العادل سيمنحنا النتيجة المستحقة في حينها .
وكان لنكولان اديباً في كتاباته وخطبه ، وقد كشف كتابه هذا عن
رجل هذبته المسؤولية ، يثق بالله وبفطنه الشعب . وقد اعتبره النيويورك
تايمز قطعة ادبية رائعة بليغة في معانيها بسيطة في مبادئها . وقالت ان الرئيس
على رغم ما تعرض له من شديد المحن وقوارص الكلام ، قد اصبحت اليوم
احب رجل الى قلوب الشعب . ولا تستطيع اذليل المفسدين وافتراءاتهم
ان تظلم الشعب عن ثقته به . « وجرى الاقتراع في اوهايو وبنسلفانيا
يوم ١٤ تشرين الاول واسر لنكولان الى ويلز بأنه اكثر اضطراباً منه
يوم رشح نفسه للرئاسة عام ١٨٦٠ . وما كان اعظم اغتباطه عند ما علم
بفوز جون بروغ المرشح لمنصب حاكم اوهايو على خصمه فالانديغام .
بعد معركة غينتسبورغ ، اجتمع حكام ١٨ ولاية شمالية وعينوا لجنة
امناء تتولى انشاء مقبرة جديدة لاعادة دفن الجنود القتلى . وعين يوم ١٩
تشرين الثاني موعداً لتدشينها ، وطلب رئيس اللجنة من الرئيس ان يلقي
كلمة في الحفلة . وكانت مهامه الكثيرة تضطره الى رفض اكثر الدعوات
فدهش اعضاء الوزارة عند ما اعلنهم بعزمه على الذهاب . ولم يكن له
متسع من الوقت لاعداد الخطبة ، ولكنه تمكن من كتابة مسودة لها
على صفحتين الاولى بالحبر والثانية بقلم الرصاص وكانت في لغته البسيطة
وتعابيره الحماسية ما ينم على شدة انفعالاته النفسية . ولعله تخيل وهو يكتب
مناظر المعركة التي التحم فيها الجيشان ثلاثة ايام ، والوادي الذي كان يفصل
بينهما ، والشجاعة التي اوحى الثبات الى كل من الطرفين ، وآلاف الصليبان
الخشبية المنصوبة على سفوح الوادي حيث سقط القتلى ودفنوا موقتاً .



لنكولن في عام ١٨٦٤



الخطاب التنصبي الثاني للرئيس لشكولن

ونفض لنكولن ووضع نظارتيه على عينيه ونشر المخطوطة امامه ، فلم يقرأها حرفياً ، بل كان ينظر اليها بين حين وآخر . قال : « منذ ٨٧ عاما اوجد اباؤنا على هذه القارة امة جديدة ، ولدت في الحرية وكرست نفسها للمبدأ القائل بان جميع الناس يخلقون متساوين . وها نحن اليوم منهمكون في حرب اهلية عظمى ، تمتحن إذا كانت هذه الامة ستثبت طويلاً . ونحن نتلاقى في ميدان كبير في تلك الحرب ، ولقد اتينا لتكريس قسم منه ليكون مقراً لأولئك الذين ضحوا بارواحهم في سبيل احياء الامة . ومن الجدير بنا ان نفعل هذا . ولكننا بالمعنى الاوسع والاعم لا نستطيع التكريس ولا التدشين ولا تقديس هذه البقعة . فلقد سبقنا الى تكريسها اولئك البواسل الاحياء والاموات الذين جاهدوا عليها . ولن يحفل العالم كثيراً ولن يتذكر طويلاً ما نقوله هنا ، ولكنه لن ينسى ما عملوه هم . ويجدر بنا نحن الاحياء ان نكرس انفسنا هنا لانجاز العمل الكريم الذي بدأوا به . والاجدر بنا ان نكرس انفسنا للمهمة العظيمة الباقية امامنا ، وان نتعلم من اولئك الاموات الكرام حقيقة الاخلاص لذلك المبدأ الذي تفانوا في سبيل الاخلاص له ، وان نعقد العزم على ان لا يكون موت اولئك الابطال قد ذهب سدى ، وان تثبتق لهذه الامة حرية جديدة باذن الله ، وان لا تزول عن وجه الارض حكومة هي من الشعب وبواسطة الشعب ومن اجل الشعب ، . لقد خلدت الايام ما سماه لنكولن بخطبته القصيرة . ففي ٢٦٨ كلمة منتقاة ، اعطى لاميركا خريطة السلوك للسنين المقبلة . لقد بين فيها ان قوة امتنا انما تكمن في اعادة تكريس انفسنا لتلك المبادي التي تعهدت بها عند ولادتها ، ودعا الى الثبات على المبادي ، الديمقراطية كفضل وسيلة للسلام والازدهار والسعادة بين البشر ، فجاء نداؤه كدعوة قوية الى جميع الاجيال الاميركية المتعاقبة .

مرض لنكولن بعد عودته من غيتسبورغ بأسبوع وقد شخص
الاطباء مرضه بالجذري المائي الخفيف ، وهذا البيت الابيض إذ ابتعد عنه
طلاب الوظائف ، حتى قال لنكولن متهاكماً ان لديه شيئاً يمكن ان يوزعه
على الجميع . وكان يقرأ البرقيات الواردة من شتانوغا حيث انضم شير من
اخيراً الى غرانت الذي استعد للهجوم . ووردت برفقة من غرانت بعد
العشاء ، وفيها انه استولى على مركز في الوادي بين المرتفعات وان المعركة
وشبكة الوقوع . وكانت اخبار اليوم التالي مشجعة ، فقد استولى شير من
على موقع جديد وكانت اصابات جيش غرانت طفيفة . ووردت برفقة
اخرى من غرانت قال فيها ان المعركة دامت من الفجر حتى الغسق ، وانه
لا يتسرع اذ يعلن انتصاراً تاماً على العدو . ووصلت تفاصيل المعركة في
صباح اليوم التالي ، وجاء فيها : ان استيلاء جيشنا على المرتفع كان من
اعاجيب للتاريخ الحربي ، ولا يستطيع الا من شاهد بام عينه ان يتصور
كيف صعد ١٨,٠٠٠ رجل الى ذلك المرتقى الوعر الشاهق . ولم يكن
احد من القواد قد امر بذلك ، اذ اقتضت الاوامر على الاستيلاء على
مواقع البنادق في اسفل الصخرة ، بيد ان الجنود بعد ان استولوا على
هذا الخط الاول من التحصينات ، امعنوا في صعود الجبل في اعقاب العدو ،
للاستيلاء على مدافع القمة وتصويبها ضد العدو . ولاول مرة في هذه الحرب
ينهزم العدو في ذعر وفرع . وجاءت برفقة من غرانت في صباح اليوم
التالي يقول فيها ان هزيمة العدو كانت تامة ، وانه سيلاحقه دون توقف .
وارسل الرئيس الى غرانت الجواب التالي : « ما دمتم قد امنتم موقفكم في
شانوغا وغيرها ، اود ان اقدم اليكم والى من تحت امرتكم اكثر من
مجرد الشكر ، بل الاعتراف القلبي بجميلكم وبالحدق والشجاعة والثبات
الذي ابديتهنوه جميعاً في سبيل تحقيق تلك الغاية الهامة فليبارككم الله .
كان لنكولن ينوي تحقيق سلم دائم لا يحمل بين ثناياه اثاره حرب

جديدة . وادرك قيمة التصميم الدقيق في وضع شروط السلام وتطبيقها حتى في اثناء الحرب . وقد حاول منذ البداية اعادة كل ما يمكن من الاشخاص والاماكن الى خطيرة الاتحاد . ولم تكن شروطه قاسية ، وكان يكفيه من الثوار ان يعلنوا توبتهم ، وفي النصف الاول من عام ١٨٦٢ انشأ حكومات عسكرية في لوزيانا واركنساس وتنسي ، لا من اجل القمع بل لاعادة النظام وتنظيم الحكومات الموالية . وكان اشد ما يعاينه الرئيس في برنامج اقناع زعماء الشعب بشروطه . وقد كان الزعماء المتطرفون في حزبه هم الذين يعرفون خطته لكي يفرضوا عقوبات صارمة على الجنوب المغلوب . ولما انعقد الكونغرس في اواخر عام ١٨٦٣ ، رأى لنكولن ان الوقت قد حان لعرض خطة عامة بشأن مصالحة الجنوب . فذيل رسالته السنوية ببلاغ يضمن العفو التام لكل من تورط في الثورة باستثناء كبار المجرمين ، وذلك اذا اقسم بين الولاة للدستور وتأييد مرسوم التحرير وجميع ما اصدره الكونغرس من قوانين متعلقة بالعبودية . وتعهد البلاغ ايضاً بالاعتراف بحكومة الولاية النائرة وحمايتها اذا اتفق فيها عدد من المواطنين مساوي عشر الناخبين في انتخابات عام ١٨٦٠ على تأسيس حكومة ديمقراطية وفقاً ليمين الولاة . ولم يتوعد ولايات الجنوب التي ترفض مقترحاته ، ولم يفكر بالانتقام ولا في تعليق الحوثة على المشانق بالجملة ، ولا في تحويل الجنوب الى قاع صفصف ، ولا في فرض حكم عسكري عليه تشفياً وانتقاماً . وقد سبق له ان كتب الى الجنرال بنكس في لوزيانا يعرب عن امله في ان يبتدع الشعب نظاماً عملياً يمكن البيض والسود من العيش معاً في علاقات افضل من السابق ، ويقترح تربية ابناء السود ولما كان الرئيس ينحدر من سلالة جنوبية ، فقد ادرك ان التسوية العنصرية تتطلب وقتاً طويلاً وتصميماً دقيقاً ، وانه يجب الاعتراف بالحزازات الموروثة ومعالجتها . والمهم ان يبدأ العمل في هذا الصدد ، فاذا اعترفت حكومة

الولاية الجديدة بحرية الزوج واتخذت الاجراءات اللازمة لاعدادهم للوضع الجديد، فانه لا يعارض في بقاء بعض القيود الموقفة التي املتها ظروفيهم الحاضرة بصفهم طبقه مشردة عاملة لا وطن لها . فلما استعدت لوزيا عام ١٨٦٤ لوضع دستور جديد وفقاً لحظة لنكولن ، كتب الى حاكمها الجديد يقول: أهنيك على تسجيل اسمك في التاريخ كأول حاكم لولاية لوزيانا الحرة . وانت على وشك عقد مؤتمر ، فانا اقترح عليك شخصياً قبول بعض الملونين في المؤتمر لاسيما الاذكيا منهم والذين ابوبلاء حسنا في صفوفنا . فلعلمهم سيساعدون في المستقبل على صيانة جوهرة الحرية . وليس هذا الا مجرد اقتراح لا للعموم ولكن لكم شخصياً .

كان لنكولن يعلم ان في يدي مجلسي الكونغرس السيطرة على مشروع الانشاء والتعمير ، فان حق الاعضاء في تقرير الصفات اللازمة للعضوية ، يمكنهم من رفض ممثلي ولايات الجنوب . وعند ما وضع خطة المصالحة ، لم يقصد تعديل نخطه الاخرى ، كبلاغ التحرير وغيره وفي منح العفو العام ، لم يكن يفتصب حقوق الكونغرس ولا امتيازاته ، لان قانون ١٧ تموز عام ١٨٦٢ خوله ذلك الحق . ووفد كبار زعماء حزبه على البيت الابيض لتهنئته على خطته والاعراب عن موافقتهم عليها . وقد رضي عنها الديمقراطيون ايضاً . وانتهى عام ١٨٦٣ وقد شاع الامل في قرب الوصول الى نتائج مشيرة . وقد خرج لنكولن من متاعب الحرب كقائد ثابت قوي ، وبعد ان كان يتعثر في البداية بشتى المشاكل التي اعاقت السلام المنشود ، اخذ يتكشف عن مقدرة فائقة على النمو عقلياً وخلقياً . وقد اسعفته مزايا الصبر والتساهل والتسامح التي اكتسبها من طول المران والاختبار وشتى المحن وصار من العسير ان يخذعه او يتفوق عليه احد ، وذلك من جراء تدرجه العملي في السياسة بحيث اطلع على جميع اساليب وحيل السياسيين . اما معرفته للشعب فقد اكسبته الثقة بفضائله الاساسية ،

وبصرته بالوقت المناسب للشدة واللين والامر والتسامح والقيادة والانتظار
وقد تصور اقدم لسكران جالساً كجوبتر اله الالهة ، يقذف بصواعق
الحرب ويدير آلة الحكومة بيد ثابتة . وكانت سلطاته تتسع بأطراد . كان
يدبر الحرب والتجنيد والعلاقات الخارجية ، ويضع التصميم لاعادة تنظيم
الاتحاد ، جميعاً في آن واحد و كأن الله هبأه لذلك المنصب .



الفصل الثامن عشر

لارجال من طراز لنكولن

اصبح غرانت بطل الشمال بفضل انتصاراته في شتانو غا، وقد وجدت فيه الامة الرجل المناسب للقيادة العليا . وقدم احد الشيوخ مشروع قانون بأعادة رتبة اللواء في الجيش . وأجيز القانون وخول الرئيس بعد موافقة مجلس الشيوخ صلاحية تعيين لواء من بين الضباط الذين امتازوا بالبسالة والبراعة والمقدرة . فعين الرئيس الجنرال غرانت برتبة لواء وطالب منه القدوم الى العاصمة . ووصل اللواء الجديد مساء ٨ اذار ، ولو علم بان ذلك المساء كان موعد الحفلة الاسبوعية في البيت الابيض ، لتجنب الذهاب اليه . ولما دخل في الساعة التاسعة والنصف ، كان المكان غاصاً بالحضور من علية القوم وشعر غرانت بالانزعاج عندما انحنى عليه الرئيس يرحب به ويصافحه ، وتزايد انزعاجه لما تجمهر الحضور حوله . واسرع سيورد فقاده ليقدمه الى زوجة الرئيس وكان يمشي متعثراً وكأانه على وشك السقوط على وجهه . وانتبذ ناحية ينجو من الزحام ، ولكن الهتافات ظلت تتوالى وصعد بعضهم على المقاعد والكراسي لرؤيته ، حتى اضطر اخيراً الى الوقوف بجانب الرئيس . ثم جلس الاثنان يتحادثان وكان كلامهما من اهل الغرب البسطاء الكادحين ، ويمتازان بصفات الجرأة والثبات والتواضع . وقال له الرئيس ان الانعام عليه بالرتبة الجديدة سيتم بصورة رسمية في

اليوم التالي وعاد غرانت الى مقره في الغرب بعد يومين ، وهو يفكر في متابعة قيادة الجيش هناك . ومع ان وظيفته الجديدة تحتم عليه الاقامة في العاصمة ، الا انه جعل مقره الرئيسي خارجها . وقد عدل خطته الحربية لتتفق مع رأي لنكولن ، وكان همه الاول القضاء على قوة جيش لي ، فبدون ذلك لن تنتهي الحرب حتى ولو استولى على ريتشموند . ووزع الاعمال على ضباطه ، وابقى ميده قائداً لجيش بوتوماك ، وهالك رئيساً لاركان الحرب في واشنطن .

يستدل من المذكرات التي كتبها غرانت بعد الحرب ومن تواضع لنكولن ، ان الرئيس كان لا يزال ماذجاً في الشؤون العسكرية . ومع ذلك فان الخطه النهائية يجب ان تنسب اليه بقدر ما تنسب الى غرانت . ولما اطمان الى التوافق بينه وبين قائده الجديد ، أخذ يكف عن التدخل ويطلق يد غرانت بحرية ، مع الاستمرار على مراقبة الحركات العسكرية والتاثير عليها في الازمات والمآزق . ولم يكن هو ولا غرانت يتوقع نصراً هيناً ، لكن احداً منهما لم يكن يتخيل الايام الطويلة الدموية المقبلة وتحرك جيش بوتوماك بعد منتصف ليلة ٤ ايار . وكان لدى غرانت ١٢٣,٠٠٠ مقاتل مقابل ٦٢,٠٠٠ لدى الجنرال لي وكان جيشه ينال كفايته من الطعام واللباس والذخيرة ، بعكس جيش لي . وكانت خطة لي صد هجمات غرانت وتكبيده من الحسائر ما يجعل الشمال ييأس من النصر ، ففضل مقاتلته بين الغابات الكثيفة التي تتخللها طرق متعرجة وجداول ومستنقعات ، حيث التفوق في العدد لا يجدي فتيلاً وابتدأت المعركة الطاحنة في اليوم التالي ، ولم تنفع فيها المدفعية ، فأخذ كل فصيل يقاتل منفصلاً عن الآخر . واندفعت جيوش غرانت بجهاش ، حتى اضطر لي ان يذهب بنفسه لجمع شتات صفوفه . ودامت المعركة يومين اصيب فيها الطرفان بجسائر فادحة وظلت النجدات تمر بالعاصمة الى الميدان طيلة اسبوعين

والرئيس في قلق واضطراب ينتظر الاخبار وهو على احـر من الجمر ،
ووصلت شائعات بتجدد القتال المريـر واعلن ستانتون احراز نصر على اثر
ما ورد من البرقيات من غرانت . فتجمعـر الناس حول البيت الابيض
واخذوا يهتفون والقي الرئيس عليهم كلمة موجزة راعى فيها الحذر الشديد.
وقد سره ان يعلم ان جيش الاتحاد لم ينتظر الهجوم عليه هذه المرة بل اخذ
زمام المبادرة . ولم يستطع غرانت مواجهة لي مباشرة فمال الى جهة اليسار
ولكن لي ادرك نيته فسبـقه الى هناك واقام تحصينات مستعجلة وكانت
مدافعه تسيطر على الاراضي التي يجب ان يمر بها غرانت . واندفعت جنود
الشمال خلال الضباب الكثيف والامطار الغزيرة تتدفق كالسيل العرم .
واضطـر لي ثانية الى تجميع رجاله بنفسه . وثبت الجنوبيون في اماكنهم
وردوا جيش الاتحاد على اعقابـه . وعاد الجيشان فالتعـها بالحرب والسلاح
الابيض ، حتى تكـدست الجثث طبقات على جانبي المتاريس . ووقعت
فترة من الهدوء بعد اليوم الثامن . وكان اهل الشمال يصبحون اليوم بعد
الآخـر على نفس العناوين في الصحف ، - قتال يائس عنيف وخسائر فادحة .
كان غرانت قد فقد ثلث جيشه ، ومع ذلك ابرق يقول انه ينوي متابعة
القتال حتى ولو استغرق طيلة فصل الصيف . وقرأ لنكولان تلك البرقية
على جمهور من الناس ، وتردد صداها في اقاصي البلاد . غير ان الخسائر
كانت هائلة . وكنت تسمع طيلة النهار صفير البواخر في مرفأ وشنطن
وهي تنقل آلاف الجرحى ، ويستمر العمل ليلانـحت اضواء المصابيح .
واصبحت المدينة اشبه بمسـشفى مكـتظ ، وامتلات ارضها بالقبور الجديدة .
واتفق ذات مساء ان كان الرئيس مارأ في عربته ، فشاهد صفاً طويلاً من
الجرحى ، فحبس انفاسه وأخذ يتمتم بالمساكين . . . لا استطيع احتمال
ذلك . ما افـظع هذه الآلام وضباب الارواح .

توقف تقدم غرانت وتشوش انساق حركاته العسكرية ، فقد حوصـر

احد ضباطه وشلت حركة الآخريين . وكانت مواقع لي حصينة جداً ، فتحرك غرانت الى ناحية اليسار ، ولكنه صد هناك ايضاً . والتقى الجيشان وجهاً لوجه في اول حزيران ، فقرر غرانت القيام بمحاولة اخيرة . فلما بدأ الهجوم في موجات متعاقبة ، بلغت خسائره مبلغاً هائلاً فظيماً ، اذ كان جيش العدو المتعصن يحصدهم حصداً . وقد فقد غرانت عشرة آلاف هم زهرة شباب الامة ، وغطت جثثهم المكدسة مساحة خمسة افدنة . وانتشرت الروائح الكريهة اذ رفض القائد طلب هدنة لدفنها . وانحسرت موجة التفاؤل في الشمال . وكتب ولز يقول : « هناك قلق شديد فيما يتعلق بجيش بوتوماك ان المجزرة التي ذبح فيها رجالنا البواسل تدمي افئدتنا ، والمستشفيات تغص بالآلاف المشوهين والاموات من الابطال الذين سفكوا دماؤهم في سبيل الاتحاد » . وبعد مضي شهر على تلك الملحمة لم يكن غرانت اقرب الى رتشموند مما كان ماك كيلان عام ١٨٦٢ . وتركزت النقمة على لنكولن لتسليمه القيادة الى جزار احق . وكانت مؤتمر الحزب الجمهوري سيلتئم بعد بضعة ايام .

بدت معارضة قوية لإعادة انتخاب لنكولن للرئاسة ، ولكن المتطرفين لم يجدوا مرشحاً افضل منه . وكان الدا خصامه هم الالمان المعارضين للرق في ميسوري وانصار تحريم الرق في نيو انغلند . وكان مرشح هؤلاء هو جون فريمونت الذي اعتبروه مغبوناً . وقام انصار ترشيح فريمونت لعقد اجتماع في نيويورك ، ولما لم يقووا على السيطرة على مؤتمر الحزب الجمهوري العام ، دعوا الى عقد مؤتمر آخر خاص بهم في كليفلند قبل موعد المؤتمر العام بأسبوع . وكان اصدقاء لنكولن يعتبرون فريمونت دمية يختفي وراءها تشايس ، وان الحملة الانتخابية تدار باسم ذلك المسكين الذي لا يدرك انه انما كان وسيلة لتنفيذ آرب منافسه الحبيث ، وان الخطة انما هي مجرد عقد مؤتمر من متطرفي الحزب يقولون للمؤتمر العام في بلتيمور

انهم سبر شعون فريمونت كمرشح مستقل اذا اصر المؤتمر على تسمية لنكولن فاذا امكن تخويف بعض المصوتين الى جانب لنكولن او شراء ذمهم بالمال ، فمن المنتظر ان يقدم اسم تشايس كمرشح على سبيل الترضية والحل الوسط . وقد اسفر مؤتمر كليفلند عن فشل ذريع ، فقد قاطعه ذوو النفوذ من السياسيين ، وحضره نحو ٢٠٠ من المتعهدين الفاشلين والحكام المنشقين وجاء في برنامج ذلك المؤتمر ادخال تعديل دستوري يحرم الرق ، والمطالبة بحرية الكلام وحرية الصحافة ، ومصادرة املاك الثوار وتوزيعها على قدماء المحاربين من جيش الاتحاد . وسمى الحزب نفسه « الحزب الديمقراطي المتطرف » ورشح فريمونت بالأجماع . وحاولت بعض صحف الديمقراطيين التحويل حول انشقاق الحزب الجمهوري . ولكن لنكولن ادرك فشل الحركة ، فلما اخبره أحد الاصدقاء بانه لم يحضر مؤتمر كليفلند الا نحو ٤٠٠ شخص ، وقع ذلك العدد من نفسه ، فتناول التوراة وفتح الاصحاح الثاني والعشرين من سفر صموئيل الاول فقرأ ما يلي : وكل من كان في ضيق وكل من كان مديوناً وكل من كان مستاء ، انضموا جميعاً اليه ، فصار رئيساً عليهم وكان لديه نحو ٤٠٠ رجل .

عرجت الوفود الذاهبة الى المؤتمر العام على لنكولن لاستطلاع رأيه . وكان قد اقترح سابقاً ان برنامج الحزب يجب ان يتضمن التعديل الثالث عشر للدستور الذي يحرم الرق ، مما يضمن سلامة اجراءات التحرير من عيب المحكمة العليا كما يضمن اضمحلال الرق في الولايات الوسطى ، والا فانه سينفض يده من المؤتمر . وقد اتضحت ارادة الشعب في ترشيحه ثانية للرئاسة ، ولم يجسر احد من اخصامه على مناوآته علناً . بيد انهم خاضوا في التهجم على اعضاء وزارته ، لاسيما مونتغمري بلير . فان تهجم فرنك بلير على تشايس في الكونغرس عند ما كان تشايس يعمل ضد لنكولن ومعارضته الشديدة للمتطرفين في ميسوري لم يسدل عليها اللسيان .

وكانت عائلة بليز بأسرها مفضوباً عليها . فلما انعقد المؤتمر أنذر الرئيس بعدم احتمال اي واحد من تلك الاسرة . ووافق المؤتمر على اقتراح الرئيس بادخال التعديل الثالث عشر على الدستور ، وجعل من برنامجه الاستمرار في الحرب حتى النهاية ، واثني على حكمة ووطنية الرئيس ، واكزن المتطرفين وضعوا في نفس الوقت قراراً بان ينال الثوار والخونة العقاب الذي تستحقه جرائمهم .

كانت المنافسة حول تسمية نائب الرئيس اكثر حماساً . وحاول الجمهوريون اجتذاب الديمقراطيين الموالين للعمل معاً تحت اسم حزب الاتحاد ، واعتقدوا بالنجاح فيما لو رشعوا احد الديمقراطيين نائباً للرئيس لا سيما من الشخصيات البارزة مثل دانيال وكنسون والجنرال جون دكس والقاضي جوزيف هولت وحاكم تنسي المسكري اندراوس جونسون . وكان من بين المرشحين أيضاً هانيبال هملمن الذي انشق عن الحزب الديمقراطي عند الغاء اتفاق ميسوري . ورشح أحد اصدقاء لنيكولان الجنرال هولت لنيابة الرئاسة . فكتب احد المراقبين يسأل عما إذا كان ترشيح هولت في محله ، وإذا كان ذلك متفقاً مع رغبات الرئيس وإذا كان الرئيس يفضل مرشحاً آخر او إذا كان يؤثر عدم التدخل في الامر . فرد لنيكولان بقوله لا شك في صواب الذي رشح هولت فهو رجل طيب ، ولكني لم افكر فيه كنياب للرئيس ، ولا أريد التدخل في امر نيابة الرئاسة ولا في برنامج الحزب فعلى المؤتمر ان يتدبر الامر بنفسه . وكان قرار اعادة تنظيم الوزارة موجهاً ضد سيورد وبليز معاً . وأخذ اخصام الاول يتشيعون لدكنسون ويرددون « يدخل دكنسون ويخرج سيورد » . وسقط هولت ودكس في الاقتراعات الاولى . وحول انصار سيورد اصواتهم لتأييد جونسون بعد فشلهم في تأييد هملمن ، واكتسب جونسون اغلبية الاصوات في الاقتراع الاخير ، فتم ترشيحه لنيابة الرئاسة بالاجماع

ولم يكن للرئيس يد في كل ذلك ، ولم يفخر بإعادة ترشيحه ، بل قال لبعض من جاء لتهنئته ان المؤتمر رأى من غير المناسب استبدال الخيول وهي تعبر النهر . وتذمر بيتس من أن المؤتمر اعاد ترشيح الرئيس دون حماس . وقدم مونتهغومري بليز استقالته عقب ارفض المؤتمر . ورفضها لنكولان اذ لم يشأ ان يملى عليه احد فيما يتعلق باختيار مستشاريه . ولكن بليز ادرك ان اقالته انما هي مسألة وقت ، فوضع في يد الرئيس كتاب استقالة غير مؤرخ ، واوصاه باستعماله حالما يشتد ضغط المتطرفين .

تأزمت الامور بين لنكولان وتشايس بعد انعقاد المؤتمر . فقد كان وزير المالية يتجاهل رغبات الرئيس فيما يتعلق بالتعيينات في تلك الوزارة اذ كان الرئيس يصر على احترام العرف المتبع حرصاً على وحدة الحزب ، وهو ان الموظفين يجب ان ينالوا موافقة الشيوخ والنواب من ذات الولاية . وكان تشايس قد قدم استقالته مرتين احتجاجاً على ما زعمه من تدخل الرئيس ، وكان هذا كل مرة يدعه يفعل ما يشاء . فلما رشح تشايس السيد فيلد كمساعد لمدير الحزب في نيويورك ، كتب اليه لنكولان معترضاً ونصح له ان يختار واحداً من ثلاثة رشحهم بعض شيوخ تلك الولاية . فلما طلب تشايس مقابله بهذا الخصوص ، رفض قائلاً ان المسألة اصعب من ان تحمل في حديث بينهما ، وانه لا يعتبر السيد فيلد الرجل المناسب لذلك المنصب . فقدم تشايس استقالته في ٣٠ حزيران ، ورد عليه الرئيس بقبولها ، واضاف انه لن يسترد ما سبق ان قاله في امتداح مقدرته وامانته . ودهش تشايس واسقط في يده ، إذ كان يتوقع اذعان الرئيس كالسابق . وعين الرئيس في مكانه ولیم فسندن رئيس لجنة مالية مجلس الشيوخ .

استمرت المعارك في فرجينيا اذ كان غرانت يحاول انهاء لي ، واستمر سبل القتلى والجرحى يفد على العاصمة . وكتب غرانت الى هالك يقول : « اني ارى بعد مضي ثلاثين يوماً من التجارب ، ان العدو يعول على عدم

المجازفة بقواته ، فلا يحاول الا الدفاع وراء تحصيناته او الهجوم القصير امامها مباشرة . كما ارى ان الخطط التي رسمتها لا يمكن تحقيقها دون توضيحات في الارواح اعظم مما ابيحه لنفسه . واعتزم غرانت عبور نهر جيمس والالتفاف جنوباً حول رتشموند لضرب خطوط مواصلات لي . فخسر عشرة الاف رجل في تلك المحاولة في برهة اربعة ايام ، ولذلك عول على ضرب الحصار . وكانت رتشموند محصنة بالقلاع والمتاريس والخنادق من الشرق والجنوب . فتحول الى الغرب واخذ يناوش خطوط المواصلات دون التخفيف من ضغطه على جيش العدو . وكان لنكولن بعد مؤتمر بلتيمور قد لمح الى حاجته الى المزيد من الرجال . وفيما كان يخطب في سوق خيرية في فيلادلفيا القى هذا السؤال : اذا اكتشفت ان الجنرال غرانت ومن معه من الضباط والجنود البواسل يمكن اغاثتهم بسبل آخر من الرجال ، فهل تسمحون لي بهم ؟ فتعالت الاصوات مجيبة بنعم . فقال اذن فاستعدوا بينما انا اراقب الحالة . وزار ميدان القتال بعد بضعة ايام ، فأيقن من ضرورة دعوة قرعة اخرى . ونصح له اصدقائه بالعدول عن ذلك ، لان الشمال يكاد يفرق في حمأة اليأس ، وان تجنيد قرعة اخرى سيثير المعارضة ويعرض مصالح الحزب الجمهوري للخطر . بيد انه دعا الى تجنيد ٥٠٠,٠٠٠ رجل في مدة لا تتجاوز ٥ ايلول . وعندها انفجرت النقمة المكبوتة صاحبة مدوية واتهمه الجمهوريون المتطرفون بسوء ادارة الحرب ، واستنكر الديمقراطيون امر التجنيد الجديد وعدوه عملاً من اعمال الطاغية العديم الاحساس . ونشرت احدي صحفهم ما يلي : لقد دعا لنكولن الى تجنيد ٥٠٠,٠٠٠ ضحية اخرى . فلتشتري النساء ثياب الحداد منذ الآن . . . لا اكثر من نصف مليون فقط ، وهو رقم زهيد ! ونحن مرغمون اما على تحرير العبيد واما على الموت واذا دامت هذه

الحكومة فسندهب جميعاً الى الحرب او الى كندا او الى جهنم قبل عام
١٨٦٨ .

عين الجنرال هنتر محل سيفل في وادي شندواه ، فعهد الى التخریب
دون رحمة ، اذ احرق المصانع والمطاحن ومخازن الحبوب ومعهد فرجينيا
العسكري وكلية وشنطن في لكسنتن ، ثم تحرك الى لنشبورغ مفتاح
مواصلات لي مع الغرب . فارسل اليه لي ١٧٠٠٠٠ مقاتل لمهاجمة مؤخرته
وتهديد العاصمة . وكتب الى رئيس حكومة الجنوب يقول : لا ازال
اعتقد ان من سياستنا ان نلفت انتباه العدو الى مناطق ارضه . وكان
يأمل من حركته ضد العاصمة استثارة غرانت الى شن هجـوم جنوبي .
ووردت اخبار بتحريك العدو في الوادي ، فراجع هنتر تاركا الطريق الى
العاصمة مكشوفة ، وقد قطعت خطوط البرق . وروى اصحاب الزوارق
ان العدو شوهد في مخاضات نهر بوتوماك على بعد اقل من ثلاثين ميلاً
فوق العاصمة . وقيل ان العدو فرض على بلدة فرديريك ٢٠٠٠٠٠ دولار
مقابل عدم تخریبها وقلت هذه الشائعات الرعب في قلب العاصمة التي انخفضت
حاميتها اذ ارسلت الجيوش الممكنة الى غرانت . وتوقف سير البريد ،
واحتجبت عنها الصحف وقطعت خطوط البرق وخطوط السكك الحديدية
الى الشمال . واخذ موظفو الحكومة في التمرن على الدفاع . وكتب
ستانتون الى لنكولن يروي اليه ما شاهده حارس وزارة الحربية ، وهو
ان عربته لحق بها فارس ليس من حرس الرئيس الخاص ويلبس زياً غير
زي جنود الشمال ، وهو لذلك ينصحه بأن يزيد حرسه من انتباهه .

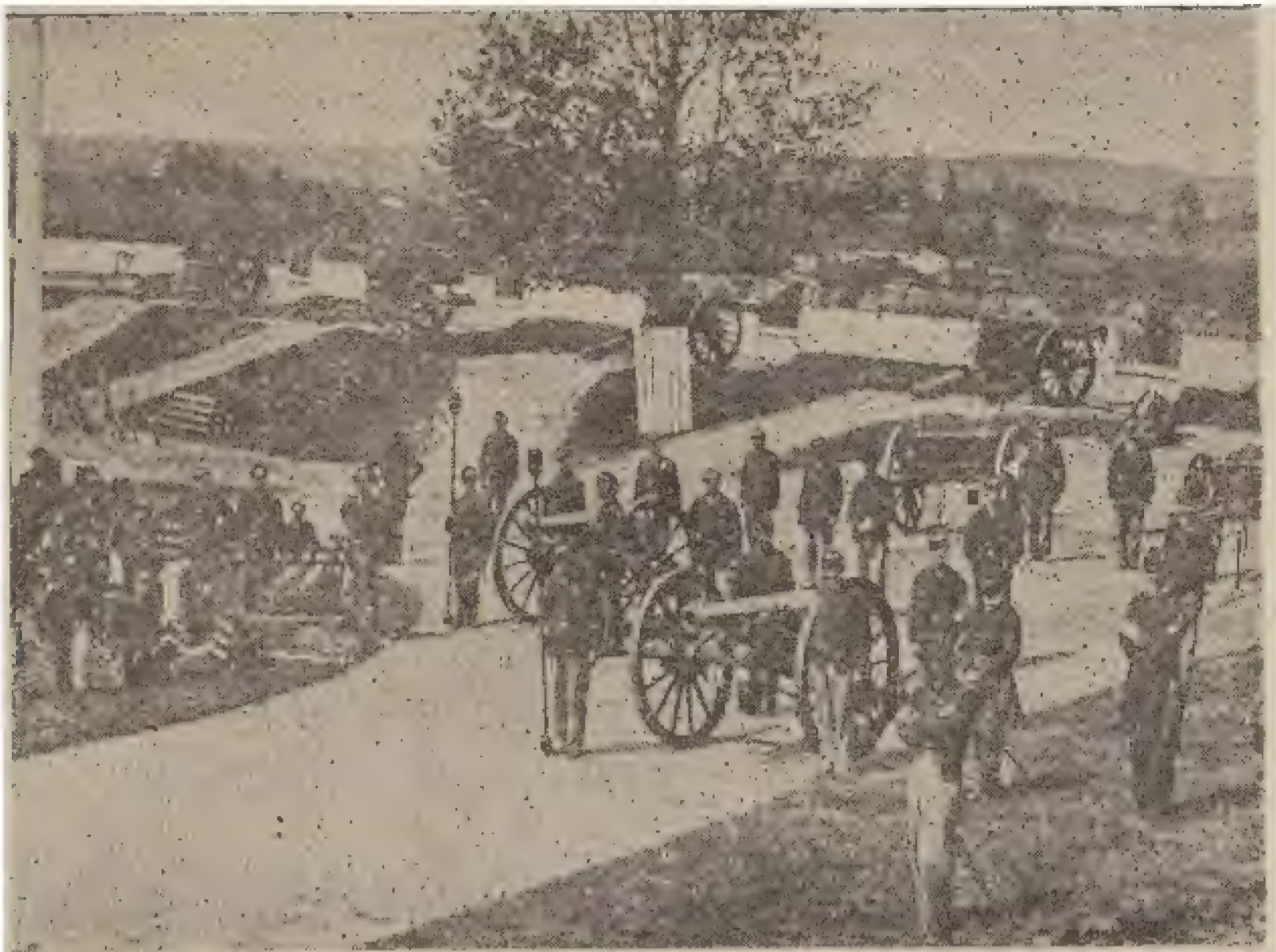
كانت اصوات المدافع تسمع من العاصمة ، وورد نبأ بان العدو قد
احرق منزل منتفومري بلير في سلفر سبرنغ . ووصلت امدادات الى
العاصمة من جيش غرانت فخفف قلق اهلها . وذهب سكرتير الرئيس
الخاص ان معنويات الرئيس كانت عالية ولم يكن يوجس خيفة على العاصمة ،

بل حصر همه في امكان القضاء على جيش العدو . وخرج الرئيس مع بعض المدنيين الى قلعة ستيفنز التي اقترب منها العدو . وفيما هو واقف يراقب دفاع جنوده ، سقط احد الضباط على مقربة منه . ورأى الضابط اوليفر هولمز رجلا طويلا مديد القامة يطل من فوق المتراس ، فصاح به انزل ايها الاحمق قبل ان تصاب بالرصاص . اما الجنرال رايت فعرف انه الرئيس والتمس اليه بأدب ان يجتوس .

لم يتبدل الموقف الحربي في الشمال طيلة اشهر الصيف ، وقال غرانت لشيرمن انه ينوي نقله لتشتيت جيش جونستون والتوغل داخل اراضي العدو الى ابعد ما يمكن لتخريب موارده الحربية . فجعل شيرمن وجهته مدينة اتلنتا وهي مركز للسكة الحديدية تبعد ١٢٠ ميلا عن ستانوغا ، وكانت نقطة استراتيجية هامة فيها المصانع والمصاهر وكل ما يلزم لآلة الحرب . وكان كل من شيرمن وجونستون واسع الحيلة في فنون القتال ، فكلما احرز شيرمن مركزاً متفوقاً ، انسحب جونستون والعكس بالعكس . وحفر كلا الجيشين الخنادق للتحصن فيها وهاجم شيرمن مرتين فصدته العدو وعند ما توغل في جورجيا ، ترك وراءه فصيلين لحماية خط مواصلاته الوحيد وتضاهل عدد قواته الذي كان في البداية ٩٨,٠٠٠ ، بينما انضمت قوات جديدة الى جونستون فارتفع عددها من ٥٠,٠٠٠ الى ٦٢,٠٠٠ . وبعد عشرة اسابيع من المناوشات ، اقترب شيرمن من اتلنتا بحيث صار يرمى ابراجها العالية . ولم يرض رئيس حكومة الجنوب عن عمليات جونستون فاستبدله بقائد آخر اسمه جون هود ، وكان هذا مقاتلاً متهوراً فاندفع في الهجوم حتى رده شيرمن الى استحكاماته .

بعد ان اصدر الرئيس بلاغ العفو العام ببضعة اسابيع ، بعث بالجنرال دانيال سيكاز في رحلة استطلاع الى الجنوب . وكانت مهمته ان يتبين مدى تأثير بلاغ العفو العام ، وماذا فيه من عيوب تمنع تطبيقه عملياً ،

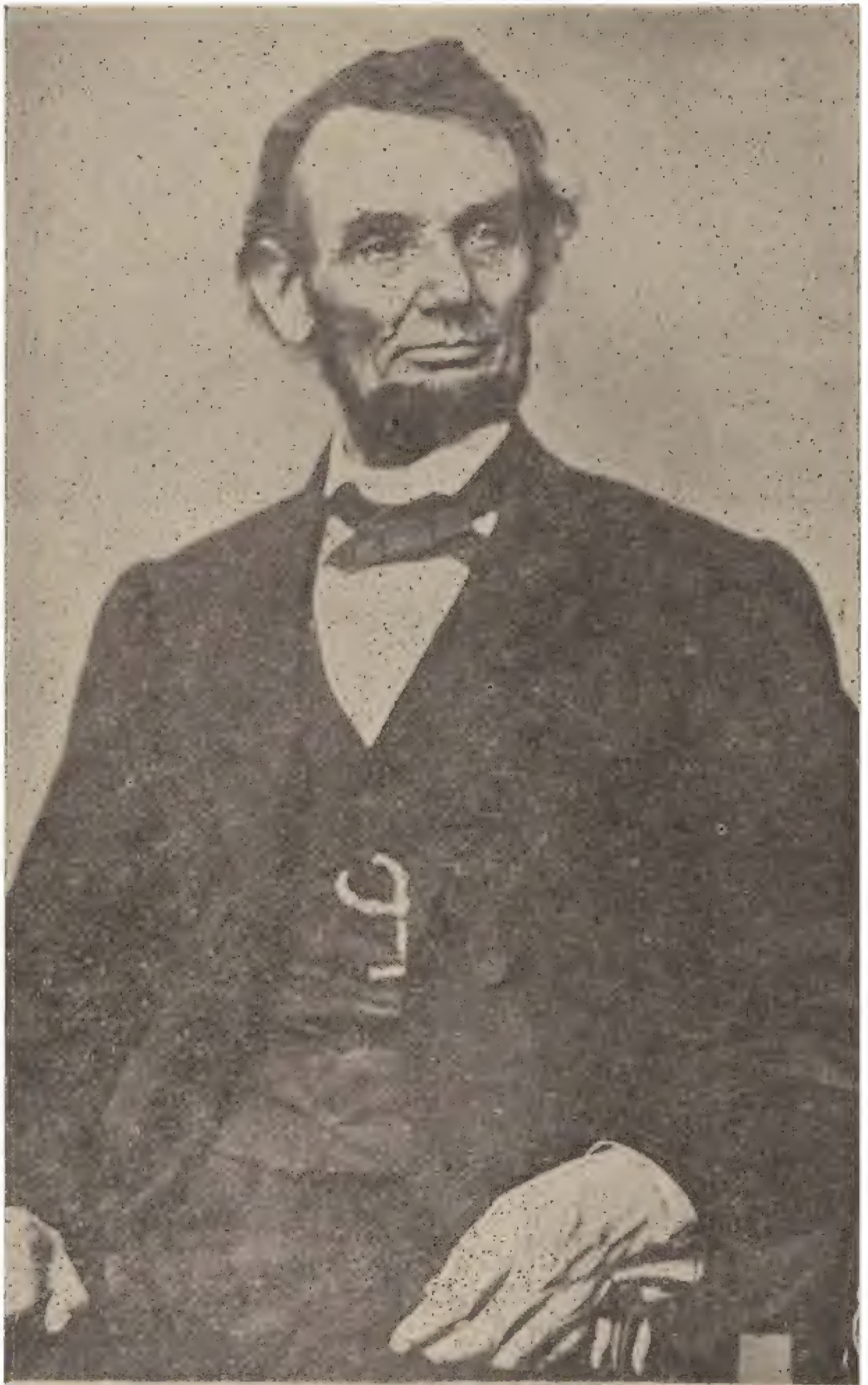
وإذا كان الناس يفرون من العدو منذ اعلان العفو العام ، وإذا كانت نسبة الفرار قد ازدادت عن ذي قبل ، وماذا عند الفارين من تقارير ، وإذا كان العفو العام معروفا بين صفوف الثوار ، وكانت ولايتا لويزيانا واركansas قد باشرتا تنظيم الحكومات الجديدة ، وكانت ولاية تنسي في سبيل ذلك ، فعن المتطرفين ان يقوموا بحركة مضادة . وتزعم بن ويد حركة مقاومة الرئيس في مجلس الشيوخ ، كما تزعمها هنري ديفس منافس مونتهغمري بليير في مجلس النواب . وقد حرضها اناس آخرون في المجلسين ، حتى تقدموا بمشروع قانون على طرفي نقبض مع خطة الرئيس الانشائية . وعرف المشروع باسم مشروع قانون ويد - ديفس ، وكان يقضي بالتعهد بالولاء من قبل اغلبية سكان الولاية ، لا من قبل عشر الناخبين فقط ، ويجرم من حق الاقتراع على وفود المؤتمرات وحق العضوية في تلك الوفود ، جميع الاشخاص الذين توظفوا في حكومة الجنوب او حملوا السلاح بمحض ارادتهم ضد الولايات المتحدة ، ويحظر الرق في الولايات المستردة . ولم يكن مشروع القانون هذا يمثل جميع نوايا المتطرفين الانتقامية . واجيز المشروع في ٢ تموز وهو آخر يوم من ايام دورة الكونغرس . وقبل الرفض بساعة جلس لنكولان يوقع مشاريع القوانين المجازة ، فوضع احدهم ذلك المشروع امامه . فازاحه جانبا ووضى يوقع المشاريع الاخرى ، وقد وقف حوله بعض الشيوخ المتطرفين يراقبونه . وسأله احدهم عما اذا كان ينوي تصديقه . فأجاب انه من الاهمية بحيث لا يمكن التسرع فيه وانه يحتاج الى دراسة . فقال السائل انه اذا نقض المشروع فان ذلك سيكون وبالا على اهل الشمال الغربي ، وان اهم ما فيه تلك الفقرة التي تحرم الرق . فأجاب الرئيس ان تلك النقطة هي التي يرتاب في صلاحية الكونغرس في معالجتها . فان لنكولان لم يجد عن اقتناعه بان لاسلطة للكونغرس على الرق في الولايات ،



فورت ستيفنز حيث تعرض لنكولن لرصاص الاعداء



قاعدة غرانت في سيتي بوينت . وقد ركب لنكولن وراء
خطوط غرانت في العربة الظاهرة



الرئيس المتعب ابراهام لنكولن . آخر صورة له التقطت عام ١٨٦٥

وانه بصفته رئيسا ما كان ليتدخل في المسألة لولا ضرورة الحرب . وهو لم ينقض مشروع القانون وانما اكتفى برفض الموافقة عليه ، وعـول على نشر بلاغ يستفتي فيه الشعب . فلما فعل ذلك ثارت نائرة المتطرفين وقالوا تبا له من منشور مهين ، وتبا لها من فكرة ، فكرة احتجاز المشروع واصدار منشور لمعرفة الى اي حد يمكن الموافقة عليه . ووضع المتطرفون جوابهم في شكل بيان نشرته جميع الصحف ، وكان اشرس هجوم ضد رئيس صدر من قبل رجال حزبه . وجاء فيه ان الجمهوريين الطيبين مدينون بالولاء لمبدأ لا لرجل يغتصب السلطة . وان لنكون ان يصر على الاعتراف بتلك الاشباح من الحكومات في لوزبانا واركنساس طمعاً في اكتساب اصواتهم لاعادة انتخابه ، وان منشور الرئيس كان افظع اعتداء على سلطة الشعب التشريعية . ورفض الرئيس قراءة البيان واكتفى بما سمع عنه ، وعلق بقوله اعل افظع نكبة تحمل بالراء هي ان يجرح في بيت اصدقائه .

يذكر انصار الاتحاد ان تموز وآب من عام ١٨٦٤ كانا من احلك ايام الحرب . فال فشل الذي مني به الشمال آنذاك كان اشد وقعاً على النفوس بسبب تحطم الامان الكبار وبدا السلام كحلم بعيد المنال فقد اخفق غرانت في التقدم شمال نهر جيمس . وانتعش بعض الامل عند ما شاع خبر حفر نفق طويل تحت خطوط العدو ، ينفذ منه غرانت الى بطرسبرغ غير ان بيرنسايد لم يتقن تنفيذ الخطة ، فلم تجتز جنود الاتحاد الى ابعدهم الفوهة حيث تكبدت خسائر جسيمة . وكان جيش العدو بعد الارتداد عن واشنطن قد اكتسح ماريلند وبنسلفانيا واحرق احدي المدن . فارسل غرانت القائد شريدان الى الوادي وامره بملاحقة العدو حتى الموت . ولكن هذا كان يحتاج الى قوة اعظم للقيام بالمهمة . وكان بوده ان يسعف شريدان بامدادات يقودها بنفسه ، الا انه لم يشأ تخفيف الضغط عن لي .

قامت حركة لاجبار لنكولن على سحب ترشيحه خشية الاخفاق في الانتخابات . وقد تبنى هذه الحركة بعض اليائسين من سياسة الحزب الجمهوري ورجال الصحافة . وقد ايدهم تشايس في حذر ، وكذلك الداهية بن بطار الذي كان يطمع في ان يخلف لنكولن كمرشح للحزب الجمهوري واسفر التشاور عن الدعوة الى مؤتمر يعقد في سنسنتاتي في ٢٨ ايلول ، لدراسة وضع الامة وتر كيز قوة الاتحاد في مرشح يجوز على ثقة البلاد ، حتى ولو اقتضى الامر تسمية مرشح جديد . وكتب الصحافي غريبي يقول : « ان لنكولن قد انهزم ولا يمكن انتخابه ، ويجب علينا اختيار آخر لئلا نفقد الحكم . وحبذا لو استطعنا تسمية غرانت او بطار او شير من للرئاسة وفرغوت لنيابة الرئاسة ، اذن لاستطعنا متابعة القتال وعلينا ان نتدبر الامر في مؤتمر او بدونه » . وقد يؤس من فوز لنكولن حتى اخلص مؤيديه فان هنري ريموند محرر صحيفة نيويورك تايمز كتب اليه يقول : « اراني مضطراً ان ابعث اليك بكلمة حول الوضع السياسي في البلاد كما يبدو لي . فاني اتواصل دائماً مع اخلص اصدقائك في جميع الولايات ، وكلهم مجمعون على ان التيار قوي ضدنا . ولن ينقذ البلاد من الوقوع في ايدي معادية سوى العمل الحازم من قبل الحكومة وانصارها » . وقد عزا هذا المحرر نقمة الجمهور الى امرين ، اولهما الاخفاق الحربي ، وثانيهما التخوف من ان الحكومة لن تنظر في شروط السلم الا بعد الغاء الرق ويقترح المحرر اخيراً تعيين بعثة للسلام تتفاوض مع رئيس حكومة الجنوب حول مسألة واحدة هي الاعتراف بسيادة الدستور ، ثم تقـرر المسائل الاخرى في مؤتمر يعقد بين الطرفين .

اجتمع الديمقراطيون في ٢٩ آب ١٨٦٤ في نفس القاعة في شيكاغو حيث فاز لنكولن بنجاح باهر عام ١٨٦٠ . وكان بعضهم يخشى فقدان الحقوق المدنية فيما لو بقي لنكولن في الرئاسة اربع سنين اخرى . وكان

منهم من يدعي الولاء للاتحاد ، ومنهم من يميل بمشاعره الى الجنوب .
ولكن الجميع كان ينشد السلام ، ومنهم من كان ينشده بأي ثمن . وحضر
المؤتمر نوح بروكس بايعاز من لنكولن لينقل اليه ما يجري فيه ، فاخبره
هذا ان ترشيح ماك كيلان كان محققاً منذ البداية ، وقد اشهره حزبه
كضحية لاضطهاد الجمهوريين ، وكرجل حقق اعمالا باهرة وكان في وسعه
المزيد منها لولا الحزبيات . ولكن ماك كيلان تضايق من برنامج الحزب
الذي وضعه فلانديغام واعلن فيه فشل الحرب وطالب بصلح سريع .
وقال انه لا يستطيع اذ ذاك ان يتطلع في وجوه زملائه في الجيش
والبحرية الذين جاهدوا وضحوا في سبيل الاتحاد ، وان لا سلام دائم
بدون الاتحاد . بيد ان ترشيح ماك كيلان وبرنامج الحزب الديمقراطي
بعثا املاً جديداً في الجنوب . وكان زعماءه قد يئسوا من النصر ،
واكنهم ظلوا يأملون في الاستقلال اما عن طريق التدخل الاجنبي او
عن طريق اسقاط حكومة لنكولن . وما كادت وفود الديمقراطيين
تعود الى منازلها ، حتى تغير الموقف تغيراً مفاجئاً . فقد وردت برفقة من
شير من تقول : « لقد اصبحت اتلنتا في ايدينا » . وابتهج الشمال بذلك ،
ودعا الرئيس الى الاحتفال بيوم للشكر لله على النجاح الباهر الذي تحقق
في اتلنتا وموبيل . وامر غرانت بأطلاق المدافع تحية وابتهاجاً .
ابرق لنكولن الى غرانت في ١٢ ايلول يقول ان شريدان يواجهه
العدو وهو في مأزق ، ويسأل عما اذا كان بالامكان انجاده بعشرة آلاف
مقاتل . واستطاع ذلك القائد بعد اسبوع ان يقوم بحملة كاسحة في وادي
شندوه ، فارتد العدو جنوباً . وصمم غرانت على ان لا يدع لي يستعمل
ذلك الوادي كمر الى الشمال او كمخزن للمؤن . فأمر شريدان بان
لا يترك في الوادي شيئاً يدعو العدو الى العودة اليه ، وبأن يأخذ ما
يلزمه مما فيه من مؤن وعلف وما شبة وان يتلف الباقي . وفيما كان

شريدان يصدع باوامر غرانت ، ارسل لي النجدات ليتمكن قائده هناك من اتخاذ خطة الهجوم . وكانت بصيرة لنكولان الثاقبة توجس خيفة من امكان قيام لي بما قام به ، فابرق الى غرانت يقول : انه يخشى ان يرسل لي النجدات لمقاومة شريدان . وقد حدث فعلا ما تخوف منه الرئيس ، وهاجم العدو جيش شريدان وكان هذا متغيبا في مؤتمر في واشنطن . وفيما هو عائد سمع اصوات المعمة ورأى جيشه منهزما مبعثراً فلم شعته وحول الهزيمة الى نصر ، فعلت رتبته في الجيش واصبح من ابطال الشمال .

جاء تحسن الاوضاع الحربية في مصلحة لنكولان ، فزار تشايس البيت الابيض ، واخذ على عاتقه الدعوة الى اعادة انتخاب الرئيس . وكف الصحافي غريبي عن المطالبة بمفاوضات الصلح واعلن ان خير المفاوضين انما هم غرانت وشيرمن وشريدان وفراغوت ، ووعد ببذل جهده في حملة الانتخابات . وانقلب المطالبون بانسحاب لنكولان ، الى مؤيدين . ومع ذلك لم تخل البلاد من المتدمرين ، بعضهم من الوزارة وبعضهم من امر أو آخر . أما الحكومة فانها التفت حول لنكولان ، واخذت توزع الوعود والتهديدات في سبيل كسب الاصوات . ورفض لنكولان تعديل أمر التجنيد الاجباري ، رغم توسلات الساسة المتخوفين ، قائلا : ماذا تجديني الرئاسة اذا فقدت الوطن . ولكنـه اذعن أخيراً الى الصيحات الموجهة ضد مونتغمري بلير ، اذ زخر بريده بالنقمة على تلك الاسرة . وكان ابقاء بلير في الوزارة بعد خروج تشايس منها ، قد اخل بتوازنها واحنق اصدقاء تشايس ، كما ان مؤتمر الحزب الجمهوري ندد بمدير البريد العام بلير . فقد كان هذا حاد الطباع ، وقد وجد الوزراء وزعماء الحزب صعوبة في التعامل معه . ولما احرق ثوار الجنوب منزله في سلفر سبرنغ ، القى التبعة على من سماهم بالجبناء في وزارة الحربية . وعندها طلب ستانتون وهالك من الرئيس اخراجه من الوزارة ، فاجاب بان كلمة قيلت في ساعة غضب

على اثر خسارة جسيمة ، ليست . بهرراً كافيّاً لاتخاذ مثل تلك الخطوة .
واعتم الرئيس تلك الفرصة للتحذير من الوشاية والنميمة ، وللتوكيد بانه
هو الحكم الفصل ولكنه اضطر في النهاية الى الاذعان تحت الضغط
الشديد ، فقد كان تشاندلر قد ساوم فريمونت على الانسحاب من الترشيح
للرئاسة مقابل اخراج بليز من الوزارة . ولم تتضح تفاصيل المفاوضات
التي جرت بين تشاندلر وفريمونت الا ان هذا الاخير تخلى عن ترشيح
نفسه ، وقبل الرئيس استقالة بليز في اليوم التالي . ولم يكن البيان الذي
اذاعه فريمونت إذ ذاك ينم عن روح كريمة ، فقد جاء فيه انه توصل الى
ذلك القرار لا لانه يجبذ سياسة لنكولان ، بل لان ماك كليلان كان قد
صرح باعادة الاتحاد مع الرق ، ولذلك وجبت هزيمته . فلنكولان هو
أخف الشرين ، وهو يعتبر ان الحكومة قد فشلت سياسياً وعسكرياً
واقصادياً ، وان بقاءها شر ضروري تأسف له البلاد . وعين الرئيس
مكان بليز رجلاً حسن الاخلاق اسمه وليم دانيسون حاكم اوهايو السابق
وقال أحد أعضاء الحزب الرئيس على اثر ذلك ان انتصار شريدان كان
عظيماً ، ولكن اقضاء بليز كان اعظم . وايقن الوزير ولز من فوز لنكولان
في الانتخابات ، ولكنه خشي من مطامع المتطرفين بعد ان نالوا ما
أرادوه من اقضاء بليز .

جرت انتخابات محلية في ولايات اوهايو وبنسلفانيا وانديانا . وسمحت
الولايتان الاوليان للجنود بالاقتراع في الميدان . فكتب الرئيس الى
شيرمن يقترح عليه السماح لجنود انديانا بالذهاب الى ولايتهم الاشتراك في
الاقتراع فصدع بالأمر . وكانت أصوات الجنود قد ضخمت أرقام
الأصوات التي نالها الحزب الجمهوري في الولايات بما القى ضوءاً على نتيجة
الانتخابات العامة في تشرين الثاني وفوز لنكولان بالرئاسة وجونسون
بنيابة الرئاسة .

وراعى كل من لنكوان وماك كليان العرف المتبع ، فامتنعنا عن
الخطب الرسمية في اثناء الحملة . ولكن الرئيس لم يضيع فرصة مرور
الجنود بالعاصمة . فكان يخاطبهم بصورة غير رسمية ، ليؤكد لهم أهمية
النجاح في ذلك الكفاح ، لا سيما أهمية النتائج البعيدة المدى التي ستجنيها
الاجيال المقبلة . وقد قال مرة : أرجو أن تتذكروا ذلك لا من اجلي
بل من أجلكم . فقد قبض لي ان احتل البيت الابيض في هذه الفترة ،
واعل احد ابنائكم او احفادكم سيتطلع الى احتلاله في المستقبل كما فعل
ابن أبي . ومن الحق ان تتيسر لكل منكم سبل الاجتهاد والفلاح والتقدم
عن طريق هذه الحكومة الحرة ، وان تحظوا بحقوق وامتيازات متساوية
في سباق الحياة وما فيه من مطامح واماني . فلهذا السبب يجب الاستمرار
في الجهاد ، فان الامة لجديرة بالدفاع عنها صيانة لهذه الجوهرة الكريمة .
خيم الهدوء على العاصمة يوم الانتخاب في ٨ تشرين الثاني ، فقد سافر
الكثيرون الى مسقط رأسهم للاقتراع . وكان يوماً ماطرأ عاصفاً حبس
الناس في بيوتهم . وبقي الرئيس في البيت الابيض ينتظر نتيجة ارادة
الشعب وقال في معرض حديثه مع سكرتيه الخاص ، انه يستغرب ،
وهو الرجل المسالم غير الحقود ، ان يتميز ترشيحه دائماً سوى مرة واحدة
بكثير من الضجة والنقمة والضعيفة . وقصد في المساء مع سكرتيه الى
وزاره الحربية ، حيث أخذت البرقيات ترد بنتائج الاقتراع . وكانت كلها
تنبئ بفوز الرئيس ، فأرسلها الى زوجته قائلاً انها اكثر تشوقاً اليها منه .
وأظهر غوستاف فوكس اغتباطه بهزيمة هنري ديفس في ماريلند . فأنبه
الرئيس على ذلك الشعور قائلاً انه شعور بالتشفي لاجدوى منه ، فالانسان
يجب ان يرضن بوقته من ان ينفقه في المنازعات الشخصية . فاذا كف انسان
عن مهاجمتي ، فاني لا احمل ضغينة له في قلبي وانسى الماضي . وتعشى الرئيس
حوالي منتصف الليل ، وعزفت جوقة موسيقية تحت النافذة حوالي الساعة

الثانية صباحاً . وكان في اثناء السهرة كثير التفكير يستعيد ذكريات الماضي . فروى انه بعد انتخابات عام ١٨٦٥ عاد الى بيته منهوك القوى فاستلقى على اريكة . وكانت قبالة مرآة كبيرة ؛ عكست صورته كاملة ، ولكنه لاحظ ان لوجهه صورتين مختلفتين متراكبتين الواحدة فوق الاخرى . فادهشه ذلك ونهض يتفحص وجهه في المرآة ، الا ان الصورة الوهمية إضيمت . فلما اضطجع ثانية ، عادت الى الظهور أوضح من السابق ولاحظ أن أحد الوجهين بدا شاحباً اكثر من الآخر . فنهض ثانية ولكن الرؤيا اختفت . وأزعجته هذه الظاهرة فرواها لزوجته ، وفسرتها هذه بأنها علامة إنذار ، فزوجها سينتخب لدورتين ، ولكن الوجه الشاحب يعني انه لن يعيش الى نهاية الدورة الثانية . وجاءت نتيجة الانتخابات النهائية بعد بضعة أيام ، فاذا بلكولان يحرز ٨٣١،٢٠٢ صوتاً مقابل ١٩٠،٧٩٧ صوتاً لأحرزها ماك كبلان . وكانت أصوات الجنود عاملاً هاماً في فوزه .

في الليلة التي تلت الانتخابات سار الى البيت الابيض جمهور كبير يحمل الاعلام والفوانيس وأدوات الزينة . وتلا الرئيس خطاباً من احدى النوافذ ، بينما كان بروكس يحمل شمعاً لانهارة المخطوطة . وبما جاء في خطابه قوله : « اذ كانت الثورة قد اجهدت الشعب الموالي وهو متعب ، أفلا يكون فشله محققاً لو كان منقسماً مشلولاً بسبب حرب سياسية . غير ان الانتخاب كان لا بد منه ، فلا سبيل الى حكومة حرة بدونه ، فلو اجبرتنا الثورة على الغائه أو تأجيله ، لكان لها الحق في ان تدعي الغلبة علينا . ولقد افادتنا الانتخابات بما رافقها من منافسة وخصومة ، اذ أثبتت ان حكومة الشعب تستطيع أن تجري انتخابات عامة في وسط حرب اهلية كبرى ، ولم يكن العالم يعلم بإمكانية ذلك حتى اليوم .

تشاءم وارد لامون صديق لنكولان من الحلم الذي رآه الرئيس ليلة

الانتخابات . فمئذ ترشيع لنكولن الرئاسة ، خشى لامون على سلامة صديقه وجعل من نفسه حارساً خاصاً له . ولعل أحداً سواهما لم يكن يعلم بما حل بالرئيس ذات ليلة من خريف ١٨٦٢ ، عندما ركب وحده ليبيت في مصيفه خارج العاصمة ، فانطلقت رصاصة في الظلام الدامس وانتزعت قبة الرئيس فالقتها في حفرة على الطريق . وكان لامون قد حذره من وجود أشقياء ومجازيب ومتهوسين من مواطني الجنوب ، وانهم سينتهزون كل من فرصة لقتله . اما وقد أعيد انتخابه لاربع سنوات أخرى ، فمن المؤكد ان تتفاقم البغضاء . وسرت القشعريرة في بدن لامون عندما له الرئيس ذلك الحلم . فأخذ يلزمه في غدواته وروحانه ، الى ان يأوي الى فراشه ، فيستلقي على حرام يفرشه على الأرض في الممر خارج غرفة نوم الرئيس ، حيث ينام حتى صباح اليوم التالي . وذلك على غير علم من الرئيس . وكان ستانتون أيضاً يخاف على سلامة الرئيس ، فدعا الى الانتباه والحذر . وعين مفرزة من الجنود لحراسة البيت الابيض ، وكتيبة من الفرسان لحراسة دار الجنود التي كان يبيت فيها الرئيس خارج العاصمة وكانت هذه الاحتياطات تزعج الرئيس ، لا لانه لم يدرك ما هو فيه من خطر ، اذ لم يكن يمر اسبوع دون ان يتسلم رسالة تهديد ، بل لانه كان يعتقد ان لا احتياطات تحول دون رجل مغامر يجازف بحياته في سبيل قتله . ومن رأيه انه لا يليق بالرئيس ان يحيط نفسه بحرس مسلح كأباطور مشغوف بالابهة . وكان يقول ان من الضروري ان يعرف الناس انه يتجول بينهم دون خوف أو وجل .

الفصل التاسع عشر

صورة جانبيه للرئيس

ما اكثر متاعب الرئاسة في الاحوال العادية ، فماقولك بها في عهد لنكولن الذي زخر بمشاكل الحرب بالاضافة الى مهام المنصب المعتادة . كانت هيئة السكرتارية مؤلفة من نيكولي وهيبي ، الى أن أضيف ولیم ستودارد لمساعدتها ابان الحرب . فلما مرض هذا خلفه ادواردنيل . وكانت مهمة اولئك الشبان تفحص الزوار ، وأعداد ملخص يومي عن الاخبار والمعلومات العسكرية ، وقراءة البريد وفرزه ، وما الى ذلك . كان لنكولن يبدأ يوم عمله مبكراً ، اذ كان قليل النوم متقطعه . وكان يعمل ساعة أو اكثر قبل موعد الفطور في الساعة الثامنة . ولم تشمل وجبة الصباح الا على بيضة وفتجان من القهوة ، اذ كان مقلاً في طعامه بما كان يضطر زوجته الى دعوة الضيوف الى مائدة الفطور . ثم يعمل ساعة اخرى قبل ان يفتح بابه للزائرين . وكانت اسرته تحتل الجناح الغربي من الطابق الثاني في البيت الابيض ، وقد خصص الجناح الشرقي للاعمال الرسمية . وكان مكتبه عبارة عن غرفة فسيحة في الجنوب ، بسيطة الياش ، - طاولة كبيرة من البلوط تجتمع حولها ، الوزارة ، وطاولة اخرى يجلس اليها الرئيس للكتابة ، ومكتبة عالية فيها عيون للاوراق ، واريكتان وبضعة كراسي - وقد ابي في اول الامر تحديد ساعات الزيارة . فلما اخذ

المراجعون يتوافدون قبل الافطار ويتأخر بعضهم الى الليل ، وافق على تحديد وقت الزيارة من العاشرة صباحاً الى الثالثة بعد الظهر ، ولما تراكت عليه الاشغال ، عاد فاختصرها الى ما بين العاشرة والواحدة . وكانت الاسبقية تمنح لاعضاء الوزارة فالشيوخ فاعضاء مجلس النواب ، فالمواطنين العاديين اذا اتسع الوقت لهم .

ولم تكن مقابلته امراً يسيراً ، على رغم رغبته بان يكون قريب الصلة بالجميع . وذكر أحد ضيوف البيت الابيض ان الشيوخ كثيراً ما كانوا ينتظرون عشره ايام قبل التمكن من مقابلته ، وكان الزوار يتمتعون بالتنقل بين الغرف العامة بحرية تامة ، اذ لم يكن يحرس القصر سوى ادواره سوران الارلندي الواقف على الباب الامامي ، ولويس بغدروف الذي اتخذ مكانه في الدهليز العلوي . وحذر لامون الرئيس من وجود الجواسيس والحونة بين جمهرة الزائرين ، واقترح تعيين بولويس سري لاكتشافهم ، او يجب على الاقل ابقاء الناس في الطابق الاسفل الى ان يستدعوا . ولم يعمل بهذه النصيحة حتى تشرين الثاني من عام ١٨٦٤ حين عين اربعة من الشرطة باللباس المدني . وكان الزائر اذا اجتاز الحواجز الخارجية ودخل مكتب الرئيس ، لا يصادف حرجاً ولا رسميات أخرى . وكان الرئيس يبادر زائره بقوله كيف حالك او ما ذا أستطيع ان افعل لك ، وهو يبتسم له ، فقد كان يمقت التظاهر بالعظمة ، ولم يكن يوحى الخوف أو الارتباك . ومع ذلك كان يوحى الهيبة والوقار . وكان يكيف اجوبته وفق خراج زائريه ، فيتواضع مع المتواضعين ويتعاضم مع المتعاضمين ، ويشتمد مع الدعيين الوقحين ، ويتأدب مع الجميع حتى مع اعدائه اذا جاؤا بحسن نية . وكان يحترم اراء الآخرين فيصغي اليهم ، فلعلمهم يرون من الحقيقة اكثر مما يروى ، والناس لا يتوصلون الى الحقيقة الا بالمباحثة الحرة . ولا حظ سكرتيراه انه ظل طيلة ايام الحرب العصبية باذي الاطمئنان

والثبات ظاهرياً على رغم ما كان يحتاج في نفسه من لواعج وهموم .
قال أحدهم ان الرئيس كان يحتفظ بشخصيتين في رجل واحد ، شخصية
لنكولان الرجل الفكرة العصامي القادم من الغرب ، وشخصية لنكولان
الرئيس والسياسي الذي كانت عيناه كأنها تنفذان إلى أعماق مخراب الفكر ،
وتخترقان حجب المستقبل .

كان يسره دائماً أن يلبي طلباً أو يمنح التماساً ، بيد ان أعظم ثثار ذلق
اللسان لم يكن يستطيع مغالبتة وقلما كان يجيب بلاصراحة بل يتصرف
بالكلام بحيث لا تبقى حاجة للرفض ، أو يحول الحديث بقصة أو نكتة .
فاذا خرج اصحاب الطلبات الى الدهليز ، أدهشتم الكيفية التي تخلص بها
منهم . وكانت اقوى الشخصيات تشعر بنفوذه الحفي وسيطرته الهادئة
وعاد ثيرلو ويد الى بيته بعد مقابلته ، فكتب اليه يقول : عند ما اكون
معك لا اقول نصف ما اتوي قوله ، لانك تخرجني بحديثك عن معتقداتي
ومخاوفي . وكان الرئيس يخرج عن طوره في بعض الاحيان ، فقد قال
لاحد الزوار ذات مرة : اذهب عني اذهب عني ! .. فلا استطيع معالجة
جميع هذه التفاصيل ، واسهل علي ان افرغ نهر بوتوماك بملعة شاي .
ولكنه عادة كان يكبح جماح غضبه ويهديء من نائرة اعصابه ، ويأبى
مخاصمة الناس ويحاول ردعهم عن التخاصم . واضطر ذات مرة الى توبيخ
ضابط شاب هو جيمز كاتس الذي دأب على مخاصمة الضباط الآخرين .
ويلوح ان لنكولان وضع مذكرة بما كان يريد ان يقوله له ، اذ قد عثر بين
اوراقه على وثيقة جاء فيها : مع ان ما اريد ان اقله الآن هو اشبه
بالتوبيخ ، فلا يقصد منه ان يضيف وخزة ضمير أخرى الى ما شعرت به
من التبكيت بهدد الموضوع . ان امامك عمراً طويلاً ، وقد اظهرت
من الكفاءة كضابط ما يملك على عدم الاستهتار بمستقبلك . لقد نصح
أحد الآباء ابنه بقوله احذر من الدخول في نزاع ، فاذا دخلته تصرف

بحيث تجعل خصمك يحذر منك ، وهي نصيحة طيبة ولكن هناك افضل منها . لا تتخاصم ابداً ، فالرجل الذي يريد ان يستفيد من حياته ، لا يجد وقتاً يضيقه في المنازعات الشخصية ، ولا يسهه ان يتحمل تبعاتها من مثل افساد الطبع وفقدان ضبط النفس . وقد سار لنكولن شو طاً بعيداً في تهذيب نفسه ، فاصبح غير ذلك السياسي الشاب المتهم الذي كانه عام ١٨٤٢ حين قاد خصمه الى المبارزة . فقد قال عام ١٨٦٤ : منذ ان كنت هنا لم اغرس بأرادتي شوكة في صدر اي انسان والفضل في ضبط النفس هذا يعود معظمه الى روح الفكاهة الكامنة فيه والتي مكنته من ادراك الاشياء المضحكة والسخيفة ورؤية الامور على حقيقتها .

كان من المدهش حقاً ان يظفر كثير من عامة الناس بدخول البيت الابيض ، في حين ان ذوى النفوذ من موظفي الحكومة كانوا يجرمون من مقابلته . كان اذا علم بأن عجوزاً او زوجة او جندياً بسيطاً ظل ينتظر مقابلته من يوم الى آخر ، يتم بترتيب تلك المقابلة وينفق اكثر من الوقت المقرر لها لسماع الشكوى . ويقول سكرتيره الخاص انه كان ينفق لا اقل من ثلاثة ارباع وقته في مقابلة الناس ، كأنما يريد ان يحمل هموم جميع افراد الامة ، فاذا ما اغلق الباب في آخر النهار كان يتمالك على كرسيه اعياء . كانت هذه المقابلات اليومية ترهق جسمه ولكنها تنشط عقله وروحه ، اذ كان يقيس بها نبضات قلب الشعب ، فتعلم ان يكيف اعماله وفقاً لتلك النبضات ، فيصطنع الحذر عند بطئها والسرعة عند انتعاشها . وكان يسميها حمامات الرأي العام ، وكانت في الواقع اكثر من ذلك ، لانها مكنته من كبح جماح مرؤوسيه والقضاء على غطرسة رجال الدواوين وعدم اكثرائهم . وكثيراً ما كان يجيل صاحب الشكوى الى احد اعضاء وزارته او السلطات المختصة ، وفي يده كتاب توصية بالاهتمام بامرته او اعادة النظر فيه ، او اصلاح ما وقع من خطأ او التحقق

من صحة الشكوى . بل كثيراً ما كان يحيل اصحاب الطلبات الى رئيس دائرة مصحوبين بأوامره من مثل ما يلي : دعوا هذه المرأة تأخذ ابنها من السجن . ايها النائب العام ارجو ان ترسل الي عفواً في هذه القضية . الارجح ان ظلماً ارتكب في هذه القضية ، يا حضرة وزير الحربية فالرجاء تحري ذلك . ومن العسير احصاء عدد الجنود الذين حوكموا بتهمة النوم في اثناء الحراسة او بتهمة الفرار من المعركة او بتهمة التغيب دون اذن لزيارة والديهم او زوجاتهم ، وقد انقذوا من الاعدام برفقة مقتضبة من الرئيس تقول : اوقفوا التنفيذ وارسلوا ملف القضية للتحقيق فيه ، او دعوه يقاتل بدلاً من اعدامه . وكان بعض تعليقاته ينم عن فلسفة مستترة فقد كتب مرة يقول : هذا الرجل يحتاج الى عمل ، وهي حاجة نادرة ارى وجوب تلبيتها . ولطالبي توقيعها كان يكتب : انكم تلتمسون توقيعني فما هو ثم يوقعه .

كانت هذه الاعمال تستغرق وقته كل صباح . وفي الساعة الواحدة او بعدها بقليل يشق طريقه الى الجناح الذي تسكنه الاسرة ، عبر الدهليز المكنظ بالمنتظرين ، فكان ذوو الجراة منهم يعترضون سبيله متذرعين بعبء الى رفع الكفاة وعدم التقيد بالرسميات . وفي عام ١٨٦٤ فتح في جدار مكتبه باب يؤدي الى شقة العائلة مباشرة . كان وقت الزيارة ينتهي مبكراً ايام الثلاثاء والجمعة اذ كانت الوزارة تجتمع عند الظهر ايام الاثنين عند ما كان يقيم حفلة استقبال من الواحدة الى الثانية بعد الظهر ، فكان لا يتناول طعام الغذاء . ولم يبال بذلك لانه لم يكن يأكل سوى قطعة من البسكويت مع بعض فاكهة الموسم ويشرب قدحاً من الحليب وكان يجلس بعد الغذاء في كرسي كبير لبطالع بعض الوقت . ويأتي احد الخدم اثناء النهار فيحلق له شاربيه ويهذب لحيته . وكان يعود الى العمل بعد الظهر في ساعة مبكرة ، لاسباب بعد ان كبر عدد الجيش بما اوجب

توقيع الآلاف من التعيينات للضباط . ثم تبع ذلك التصديق على احكام المحاكم العسكرية ، وقد بلغت ثلاثين الفاً في العام الواحد وكانت يدقق كثيراً في احكام الاعدام ، ويجاول جهده ايجاد مخرج لانقاذ حياة المحكوم وكان يكره تصديق حكم الاعدام ، بسبب الجبن كالفرار من المعركة ، فيبدل الحكم او يخففه . وعلى رغم ميله هذا الى التسامح ، كان شديداً فيما يتعلق بالنظام العسكري . فقد رفض العفو عن خمسة من الجنود الفارين لما علم ان الجنرال ميد كان مقتنعاً بفضاحة اولئك المجرمين وبضرورة معاقبتهم اشد العقاب ، وطلب منه ان يبلغهم ان استئنافهم قد رفض . كان السكرتير ان يفرزان البريد في الصباح . وكانت الرسائل ترد كالسيل المنهمر وكانت رسائل التهديد او الشتائم تلقى في سلة المهملات ، وتوزع وسائل الاشغال على الدوائر المختصة ، فلم يكن يصل الى ط-اوله الرئيس سوى عدد قليل نسبياً ، وقد اشير عليها بكلمة شخصي او سياسي مع تلخيص محتوياتها .

كان شعور انكولان الانساني الرقيق يصل الى ابعد من معرفة ويجعله قريباً من الجميع . كتب مرة الى السيدة ليديا بكسي وهي ارملة من بوسطن يقول : اطلعت وانا في وزارة الحربية على ملف جاء فيه انك ام لخمسة ابناء ماتوا جميعاً مية الشرف في ميدان القتال . واني اشعر بضعف وعقم التعزية التي احاول ان اسري بها عنك في هذا المصاب الاليم ولكن لا يسعني الا ان اقدم اليك التعزية التي يتضمنها شكر الجمهورية التي قضى ابناءؤك في سبيل انقاذها . واني ابتهل الى الله ان يلهك جميل الصبر والعزاء بذكرى اولئك الاحبة المفقودين ، والافتخار بتلك التضحية الثمينة التي ضحيتها على مذبح الحرية

الفصل العشرون

تضميد عراج الأمة

لما توغل شيرمن في أراضي العدو ، وجد صعوبة في اطعام جيشه لكثرة الهجوم على خطوط مواصلاته . فطلب من غرانت ان يسمح له باتلاف سكة الحديد المتصلة بشتانوغا ، لان العدو ما فتىء يفتروها ، وان يصل بجنوده الى البحر ، فلعل الاقدام على ذلك يقنع العدو بجهوت أسلحة الاتحاد ويرغمه على الاستسلام ، إذ كان ينوي اطلاق يد جيشه في التخريب ليعلم الاهالي فظاعة الحرب . وارتاب غرانت في مقدرة شيرمن على اختراق ارض العدو بجيشه الكبير ، كما ان الرئيس نفسه كان يوجس خيفة من مثل هذه الحركة . ولكن غرانت عاد فاقنع بصواب الخطة وسمح له بتنفيذها ، واطمان الرئيس بان لا خوف على قائد محنك من طراز شيرمن . ووافق لنكولن على ذلك القرار ، فابرق ستانتون الى شيرمن بموافقة الرئيس على خطته ، وان اسطولاً يحمل المؤن سيلاقبه في ميناء سافانا . وأصدر شيرمن أوامره باتلاف جميع المؤسسات العسكرية في اتلنتا ، - جميع المباني العامة ودور الاسلحة والمخازن والمصانع يجب ان تحرق ، فلا يبقى شيء يستفيد منه العدو ، كما قطعت خطوط البرق والسكك الحديدية . وفي صباح ١٦ تشرين الثاني تحرك جيش شيرمن المؤلف من ٦٢,٠٠٠ من خيرة الرجال بين وفرقة الاعلام وصدح الموسيقى

وبينما كان الدخان ينعقد كالسحب فوق اتلنتا . وسار الجيش في ثلاثة فيالق يتقدمها المناوشون وتحرسها مفارز الفرسان على الجانبين ، وكانت سرعته ١٥ ميلاً في اليوم . وكانت الليالي قارسه البرودة . ولم تنج مزرعة من جامعي العلف للحيوانات ، وهم يتقدمون الجيش كل صباح . كما كانوا يستولون على ما يعثرون عليه من مركبات فيحملونها باللحوم والطيور وشق المأكولات ، ويسوقون قطعان الماشية لتغذية الجيش . وقد أجاز شير من جمع الاقوات للجيش بينما كان يحرم النهب والسلب . ولكن جيشه لم ينجل من بعض الرعاع ومحبي الانتقام ، فكان هؤلاء يمزقون الفراش بحثاً عن مال او مصاغ مخبوء ، وينهبون الادراج وخزائن الثياب . وكان شير من يقول للناس إذ يبدون استنكارهم وفزعهم : اننا لا نريد زنوجكم ولا خيلكم ولا بيوتكم ولا اراضيكم ، وكل ما نبغيه طاعتكم لقوانين الولايات المتحدة وسنفوز بذلك حتى ولو اضطررنا الى التخريب والتهديم . اني أريد السلام وسأتابع الحرب الى ان افوز به .

سار الجيش في عزلة تامة ، وبقيت وشنتن ٣٢ يوماً لا تسمع عنه شيئاً الا ما تسرب من صحافة الجنوب التي قالت ان الجيش قد دب فيه الفساد وأخذ يقاسي الجوع . فدب القلق في قلب الشعب والرئيس ، واكن غرانت بدد مخاوفه قائلاً ان شير من سيظهر سالمًا عند ما يحين الاوان وقال الرئيس في رسالته السنوية : « ان ابرز ما في عمليات هذا العام العسكرية انما هو اقتحام شير من بجيشه قطع ثلاث مئة ميل داخل ارض العدو ، ومما يدل على ازدياد قوتنا ان يشعر قائدنا الاعلى باكانه شل حركة العدو واستغناؤه في نفس الوقت عن قسم الجيش الذي قام بتلك الحملة . وما دامت النتيجة غير معروفة فالتخمين لا محل له هنا . وخلف شير من وزاعة رقعة طويلة من الارض المقفرة ، لا يرى فيها سوى معالم الحرائق والتخريب . فلم يترك وراءه معلفًا واحداً ولا بالة قطن حتى ولا

بغلاً لحرارة الارض ، حتى علق احدهم على ذلك بقوله انه لا يمكن ان
يكون الحراب اشد وأفظع فيما لو كانت اتلنتا بر كانا أثراً فسالت منها
المعادن المصهورة كنه عرضة ستون ميلاً وطوله خمسة اضعاف ذلك .
وكان هود أحد قواد الجنوب قد اعاد تنظيم جيشه ، فتوجه شمالاً لا سر
جيس توماس واجتذاب جيش شيرمن من ولاية جورجيا . وفي ١٥
كانون الاول هجم توماس وسط بحر من الوحول ، فانهارت ميسرة هود
وولى جيشه الادبار . ووصلت انباء ذلك النصر الى وزارة الحربية في
ساعة متأخرة من الليل . وحمل ستانرتون البرقية الى الرئيس واضطر الى
ان يصيحه من نومه . وفي الصباح التالي أبرق الرئيس الى توماس بالشكر
والتهنئة قائلاً له : « لقد بدأت بداية ممتازة وفي وسعك ان تتوجهها بنجاعة
اعظم ، ولا تدع الفرصة تفلت » . ولم يكن توماس بحاجة . الى التعميس
فقد لاحق العدو وغم الامطار الغزيرة واثخنه جرحاً بحيث لم يعد بالامكان
اعادة تنظيمه كقوة مقاتلة . ووردت على الرئيس مساء عيد الميلاد برقية
من شيرمن قال فيها : « اود ان اقدم اليكم كهدية عيد الميلاد مدينة سافانا
مع ١٥٠ مدفعاً ثقيلاً وكثير من الذخيرة ونحو ٢٥٠٠٠ بالة من القطن » .
وطار الشمال فرحاً بذلك النبأ ، وكانت العاصمة تهتز من قصف المدافع
تحية وابتهاجاً ، بينما كان لنكولن يكتب الى شيرمن ما يلي : « لقد
اضطربت وفرغت عند ما غادرت اتلنتا متوجهاً ساحل الاطلسي ، لكنني
لم ادخل لاني تذكرت المثل القائل « لا مغامرة ، لا ربح » ، وشعرت
بان حكمك خير من حكمي . اما الآن وقد نجحت المغامرة فالفضل كله لك ،
واذا اضفنا الى ذلك ما قام به الجنرال توماس ، فان النجاح لا شك عظيم .
اما ما بعد ذلك ، فالأفضل ان اترك تقريره الى الجنرال غرانت واليك » .
توفي قاضي القضاة تاغي في ١٣ تشرين الاول ١٨٦٤ ، وبدأ الناس
يفكرون في ترشيح خلفه . مات ذلك الشيخ عن ٨٧ سنة ، وكان موته

للكتيرين اشبه بازالة حاجز يعترض سبيل التقدم . وكان تشايس يعتبر نفسه احق خلف له ، ومع ان انهما كه بالسياسة حال دون تميزه في المحاماة فان أحداً لم يكن يشك في مقدرته العقلية ، اذف الى ذلك ما كان قد اكتسبه من اختبار وهو في الوزارة . وكثيراً ما اطلع اصدقاءه المقربين على طموحه الى رئاسة المحكمة العليا ، وقد ابدى لنكولن استعداداه لتعيينه في ذلك المنصب فيما لو شفر . فلما توترت العلاقات بينهما ، اخذ المطلعون على الامر يتساءلون عما اذا كان الرئيس قد غير فكره بخصوص صلاحية تشايس . ومرت الاسبوع دون ان تتكشف نية الرئيس . فلما ارسل اليه تشايس خطاباً ودياً ، فهقه وقال لنيكولي : ضع هذه الرسالة في اضرارته مع التوصيات الاخرى . ولكن لما جاء رتشارد دانا والقاضي هور الى البيت الابيض للاحتجاج على تشايس ، قال لهما الرئيس : « ان السيد تشايس رجل في غاية المقدرة والكفاءة . انه طموح جداً ، واظنه مختلفاً نوعاً ما فيما يتعلق برئاسة الجمهورية . ولم يكن سلوكه مرضياً في الآونة الاخيرة ، فأخذ الناس يرضونني على سحقة انتقاماً منه . ولكني لا احبذ سحق اي انسان . فاذا كان في استطاعة انسان ان يتقن عملاً ما ، فاعطوه الفرصة ودعوه بعمله » . وكان انكولن قد قرر تعيين تشايس نظراً لموافقة اغلبية الحزب ، بيد انه كان يخشى ان تؤثر مطامحه السياسية على سلوكه كقاضي . حتى لقد فكر في أخذ تعهد من تشايس على ان يتخلى عن اية مطامع او اماني للرئاسة ، الا ان الشيخ سمتر رده عن ذلك بحجة ان اعداء الرئيس قد يتهمون به باتخاذ اجراءات غير قانونية وغير عادلة ضد احد منافسيه . وفي ٦ كانون الاول كتب لنكولن كتاب تعيين تشايس بيده وارسله الى مجلس الشيوخ للموافقة عليه ، وهكذا انعم على اشد خصومه ازعاجاً باعلى منصب يمكن ان يمنحه .

اجاز مجلس الشيوخ في ٨ نيسان ١٨٦٤ التعديل الثالث عشر للدستور

الذي ينص على تحريم الرق في جميع الولايات المتحدة ، غير ان مجلس النواب فشل في اجازته إذ لم يحز على ثلثي الاصوات المطلوبة . وطلب الرئيس في رسالته السنوية من المجلس اعادة النظر فيه ، قائلاً انه تبين من الانتخابات ان الكونغرس القادم سيحيز التعديل بلا شك ، وان الافضل ان يجيزه الكونغرس الحالي لاجل عرضه بسرعة على الولايات لاقراءه ، بعد ان قال الشعب كلمته في هذا الصدد . واعيد التعديل الى مجلس النواب في ٣١ كانون الثاني ، واكتظت القاعة بالحضور ، وكان بينهم عدد من اعضاء مجلس الشيوخ . وادرك لنكون ان النقاش سيكون حاداً وان الاصوات ستكون متعادلة تقريباً ، فساوغز الى العضو جيمس اشلي بان يضمن اصوات بعض الديمقراطيين المترددين ، باذلاً لهم الوعود بتحقيق مطالبهم . وبدأت تلاوة الاسماء واحصاء المجيبين بنعم اولاً . وتعالق الهتافات عندما اقترح الديمقراطيون بالايجاب . واعلن الكاتب النتيجة وكانت ١١٩ اجابة بنعم و ٥٦ بلا وامتنع ثمانية عن التصويت . وضج المكان بالصياح والضوضاء ، ولم يتورع الاعضاء الرزناء عن الوثب والزعيق وحيث المدفعية في الخارج بمئة طلقة . وهكذا قضى التعديل الثالث عشر على الرق قضاء مبرماً . وسار في اليوم التالي موكب كبير الى البيت الابيض ، وطلب ظهور الرئيس . فأطل من الشرفة وشكر الكونغرس على ما صنع . وقال انه بقي اقرار التعديل من قبل الولايات ، غير انه فيخور بولايته البنوي لانها كانت اول من اقره في نفس اليوم ، وان ماريلند التي كانت تسمح بالرق سبق سابقاً قد تبعتها . وتبقى توثيق عرى الاتحاد بين الولايات ومحو اسباب الخصام بينها وقال ان التعديل قد اكمل عملية التحرير ، فان بلاغه الاول لم يكن سوى بداية وقد كان يمكن تعطيله من قبل المحاكم . واختتم بتهنئة نفسه والامة والعالم على ذلك الفوز الادبي العظيم . وهكذا اصبغت الولايات المتحدة في مطلع ١٨٦٥ في طريقها

الى ان تكون امة حرة . ولاح النصر غير بعيد ، لان حكومة الجنوب كانت تعاني سكرات الموت فقد قام اسطول من ستين سفينة حربية بقصف قلعة فيشر واحتلالها لاغلاق ميناء ولونغتون . وكان جيش لي حـول ريتشموند يفتقر الى الاغطية والمعاطف والاحذية ، وقل طعامه . وكثير الفرار بين جنوده ، لا سيما بعد عيد الميلاد عندما دب الرعب من جيش شيرمن ، وكان الفارون يستسلمون بأسلحتهم . ورفض حكام الولايات التي كانت مهددة بالغزو ان يبعثوا بجنودهم خارج الولاية وبدأ حديث الصلح سرآ في اركنساس والاباما ، وعلى المكشوف في كارولينا الشمالية . وبالأجمال أخذ اتحاد الجنوب يتمزق وينفرط عقده عسكريا وحكوميا . كان لنكولن العامل الرئيسي الذي احبط جهود الجنوب . فلقد قاتل جنود الجنوب ببسالة لا مثيل لها تحت قيادة قوية حازمة ، واطهر شعبه جلدآ نادراً . وقد كان في وسع الجنوب ان يحقق اهدافه لو كان يحتل البيت الابيض زعيم غير لنكولن . ولكن هذا الرئيس الذي آمن ايمانا ثابتا بمصير الامة ، اشاع في شعب الشمال قبسا من روحه القوية . انه ادرك منذ البداية ان بلبلة الرأي كانت تتطلب ارشادآ دقيقا حذراً لاقية اعادة عنيدة ، فاخذ يتخطى الصعاب بنحطى عادلة حكيمة ، وجعل مباديء الديمقراطية رائده اليومي . ولعل ذلك لم يكن عن وعي او تعمد ، بل لان المثل العليا الديمقراطية كانت قد اصبحت جزءآ من طبيعته . وظل ايمانه بالشعب قويا في وسط التجارب والمحن ، وكان يكره الحرب وما تجره من فساد وربح مشكوك فيه وتكالب النفعيين على مغامره القدرة . لقد طرق بابيه جميع اصناف البشر من نصابين ومرايين وكذابين ودجالين ومتملئين ، فآلم بنقائص البشر . وكانت تعجبه مؤلفات الكتاب الهزليين لانها كانت تكشف القناع عما كان يصادفه يوميا من ادعاء وزور وابطيل فارغة . وادرك ان المثل العليا الديمقراطية لا يمكن تحقيقها كاملة ، وانما

هي اهداف يسعى اليها وان الانسان في سعيه اليها يكتسب قوة .
لقد اكتسبته معالجة البشر تحديد غاياته ومقاصده . فكثيراً ما اكتشف
في الازمات خطأ ما كان ينصح له به كبار رجال الفكر . ولذلك كان
يركن الى حكمة الشعب واستقامته الادبية ، وهو مقتنع بأن الشعب يستحق
الاثبات إذا أطلع على ما جريات الامور . وكان يحتكم الى العقل لا الى
العاطفة ، ذاكرة ان أفضل طريق الى العقل هي القلب . وكانت قيادته
حاذقة الى حد أن الشعب لم يشعر بها . وقليلون هم الذين اعتبروه عظيماً ،
فقد كانت قوته لدنة مطاطة مرهفة الحس بكل ضغط او حاجة فتلين ولا
ولا تنكسر . فلما أجبر على اتخاذ اجراءات صارمة ، مزجها باللطف واللين ،
محترماً المشاعر الشخصية والحقوق الانسانية . وعده البعض ضعيفاً ، كما
اعتبره غيرهم بليداً عنيداً . والحقيقة ان روح اميركا العظيمة الوادعة كانت
تتمثل فيه ، وهي الروح التي تتمرد على الاجراءات المتطرفة واكثرها تسير
بتؤدة وثبات نحو الاهداف السامية . كان يسلك مسلكاً مسيحياً ، يعمل
وفق تعاليم القاعدة الذهبية وموعظة الجبل ، لا عن تظاهر بالقداسة بل
لعلمه ان الفضائل المسيحية هي نفسها الفضائل الديمقراطية . ان ممارسة السلطة
وضغط المسؤولية اكسبها قوة جديدة ، فقد كان يزداد نمواً بازدياد مهامه .
ولم يكن الصحافي غريبي من المعجبين بالرئيس ابان حياته ، ولكنه كتب
فيها بعد يقول : « انه لم يولد ملكاً على الناس ، بل كان ابناً للشعب ، جعل
من نفسه داعياً عظيماً ، فاصبح قائداً بفضل صدق عزيمته وطول اناته وشدة
ثباته . وقد شق طريقه الى الجاه والعظمة بقيامه بما اسند اليه بكل طاقته ،
متعلماً من فشله وانخطائه . لقد فتح صدره لكافة العوامل والمؤثرات ،
فاستفاد من عبر الحوادث مهما كان لونها ، وهذا الشعب الساذج البسيط
الذي اربكته شؤون الحرب الدستورية ولم يفهم مغزاها الديمقراطي ،
استطاع ان يفهم رئيسه المواطن البسيط . كان الشعب يشق « بأبيه ابراهيم »

ويقبل بقراراته لانها تمثل امانيه واماله. ان حياة الرئيس لأصدق بوهان على ان الديمقراطية تمنح الفرصة لا وضع الناس منزلة ، كما ان ممارسته للسلطة أظهرت صورة حكومة الشعب بواسطة الشعب ولاجل الشعب باجلى مظاهرها . ولقد واتاه النجاح لانه عاش وحكم وفقاً لمثل الامة العليا . ان السياسة في الحكومة الديمقراطية هي الوسيلة التي يعرب فيها الشعب عن إرادته . لقد اثبت لنكون تفوقه كسياسي بارع ، فقد انفق معظم حياته في معالجة السياسة ، فتسلم مهام منصبه وهو على اتم استعداد. فقد رأيناه في السنوي يكرس الساعات الطوال لاجتماعات الحزب والمؤتمرات والدورات التشريعية وكتابة النشرات الحزبية واعداد الخطب ودراسة الطلبات والتواصي وابتكار خطط الحزب ووضع نصوص سياسته. ولم يجعله هذه الاختبارات رجلاً حزبياً انانياً ضيق النظر وقد اكسبته ادارة الناس جماعية كثيراً من الحدق في المعالجة وبعد النظر . ولو انه امتنع عن تقديم المنن والاكراميات لاصدقائه وأقاربه في تلك الظروف التي اجتازها ، لكان انساناً فوق البشر . غير انه كان يمنحهم لا ما يطلبونه بالذات ، بل ما يراه هو مناسباً لهم . ولم يكن معصوماً عن الخطأ غير انه كان حذراً في معاملاته ، حتى ان اقرب اصدقائه كانوا يشكون منه ويتهمون به بنكران الجميل . وقد تألفت أدوات انعامه من اموال الحملات الانتخابية والوظائف ، ولكنه كان يقد أدوات الكذب والغش والمخاتلة . ولم يكن من السهل ان يجمع في حزب واحد في اثناء الحرب شتى العناصر المتباينة من انصار التجريم وانصار الرقيق والتجار الجشعين وأعضاء من الحزب الديمقراطي وحزب الاحرار السابق واللاادريين والمهاجرين . فاذا كان قد عجز عن جمعهم تحت لواء الولاء لشخصه ، فانه ضمهم تحت لواء اهدافه الكبرى . وقد طبق في سياسته المثل القائل : إذا اردت ان تطاع غسل ما يستطيع . وتعلم من تقدمه البطيء فضائل الصبر وطول الاناة . ولما

كان يؤمن بسيادة ارادة الشعب ، فقد كان ينتظر الى ان يمكنه الاقتناع العام او سباق الحوادث من التحرك والعمل ، فيركز ويثبت كل خطوة جديدة قبل الانتقال الى التالية . وتحقق من ان مهمة القائد السياسي في البلاد الديمقراطية ليست فرض إرادته فرضاً ، وانما مساعدة الشعب على تقرير أموره بنفسه ، ولذلك ما فتىء يبين للناس ان افضل ما يخدمون سواهم معاملة عادلة كريمة . كان يتقدم نحو آفاق جديدة بقدم ثابتة ، معتمداً على الماضي وما اكتسبته الاجيال المتعاقبة من حكمة واختبار . وكانت المثل العليا للاباء المؤسسين منارته التي يهتدي بها في العواصف . ولعل اتقانه اللغة كان عاملاً آخر من عوامل نجاحه . فهذا الرجل العصامي الذي علم نفسه بنفسه قد ادرك اوج البلاغة . ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة ، ولم يأت عفواً ، بل كان نتيجة تدريب شاق طويل ودراسة عميقة لبعض مؤلفات الادب الانكليزي ، حتى اصبح من خيرة الكتاب والخطباء ، فاذا ما اختلجت العواطف والمشاعر في اعماقه ، تراحت على لسانه في الفاظ خالدة .

كان لنكولن يشك في جدوى مفاخرة العدو بالصلح ، على رغم ما اصاب حكومة الجنوب من تأخر وتدهور ، فقد اصر الرئيس ديفيس على القتال حتى الهزيمة . وقال لنكولن في رسالته السنوية لعام ١٨٦٤ : وان ديفيس لا يقبل باقل من انفصام الاتحاد ، وهو ما لا يمكن ان نقبل به . فان تصر يحاته بهذا الخصوص واضحة وقد كررها مراراً . انه لا يحاول ان يخذلنا ، ولذا لا يترك لنا عذراً لخداع انفسنا . ومع ان معظم رجال الفكر في الشمال كانوا متفقين مع رأي الرئيس ، فان البعض الآخر ظل يلح في طلب الصلح . وكذا ان المتفاوضين سيصلون الى اتفاق حتماً . وكان اشدهم اخاحاً فرنسيس بليز الذي طلب الاذن بمقابلة ديفيس في رتشموند . فقال له لنكولن ان يعود اليه بعد سقوط سافانا ، فلم يـ

سقطت جدد التماسه من الرئيس ، الذي اذعن الى طلبه . وقد اسفرت
محادثات بلير الطويلة مع ديفس عن انه اذا قبل لنكولن بمقابلة وفد للصلح
فان ديفس سيعين ذلك الوفد في الحال (بغية تحقيق السلام بين البلدين)
ولم يفت لنكولن مغزى الجملة الاخيرة ، وكما كان يتوقع اصر ديفس على
الاعتراف باستقلال الجنوب . ومع ذلك لم يستخف بأية فرصة قد تجلب
الصلح . وعاد باير الى ريشموند يحمل كتاباً من لنكولن جاء فيه :
« تستطيع ان تقول لديفس اني الآن كما كنت في الماضي وكما سأكون
في المستقبل ، مستعد لقبول اي وفد يرسله هو او اي شخص آخر من
ذوي النفوذ الذين يقاومون الآن الساطة الوطنية ، بصورة غير رسمية
بغية تحقيق السلام لشعب بلادنا الواحدة » . وعين ديفس ثلاثة مبعوثين
هم اسكندر ستيفنس نائب رئيس الجنوب ، والقاضي جون كامبل ، ورو.
هنتر من فرجينيا . ولعله فعل ذلك ليضع على عاتق لنكولن تبعه سفك
دماء اخرى ، اذ جاء في تعليماته لهم ما يلي : وفقاً لرسالة السيد لنكولن
فان عليكم التوجه الى مدينة وشنتن لاجراء محادثات غير رسمية معه فيما
يتعلق بشؤون الحرب الحاضرة وبغية تحقيق السلام بين البلدين . وكانت
المفاوضات مقضياً عليها سلفاً لتعارض هذه التعليمات مع رسالة لنكولن
وارسل لنكولن المقدم اكرت للملاقات المبعوثين في مقر غرانت ، فلما
اطلع هذا على تعليماتهم نفص يديه منهم . الا ان المبعوثين كانوا قد اقنعوا
غرانت بنواياهم الطيبة ، فالتمس من لنكولن ان يقابلهم . وفي ٣ شباط
اجتمع لنكولن وسيورد بالمبعوثين الثلاثة في غرفة على ظهر السفينة
« ملكة النهر » واشفق الرئيس على صديقه القديم اسكندر ستيفنس ، فقد
كان شيخاً متهدماً يتدثر بمنعطف ثقيل مع عدد من الصداري والاشحة .
ودامت المقابلة اربع ساعات كانت اشبه بمعركة حادة بين تلك العقول
الكبيرة . وابتى لنكولن مساومة عدو يحمل سلاحاً . فلما قال له هنتر

ان ملك الانكليز تشارلز الاول تفاوض مع اناس يحملون السلاح ضد
حكومته ، اجاب الرئيس انه ليس متضلعا من التاريخ ، وانه لا يذكر
سوى ان تشارلز قد اضاع رأسه . فرد هنتر بقوله انه يفهم من ذلك ان
الرئيس يعتبر زعماء حكومة الجنوب خونة . فأمن لنكولن على كلامه ،
وساد الصمت برهة ، ثم ابتسم هنتر قائلاً : « اذن يا سيد لنكولن فنحن
قد قررنا ان لا نشنق مادمت انت رئيسا ، اذا سلكنا سلوكا مرضيا .
وذكر لنكولن انه ما زال يجبذ دفع التعويض لاصحاب العبيد المحررين ،
وانه يعتقد ان تبعة الرق تقع على عاتق اهل الجنوب واهل الشمال على
السواء ، وان على الحكومة إذا توقف القتال والعت الولايات الرق بمحض
إرادتها ، ان تعوض اصحاب العبيد حتى ولو كلف ذلك ٤٠٠ مليون
دولار . ولم يسفر المؤتمر عن شيء . وعندما اجتمعت الوزارة بعد يومين
تلا لنكولن اقتراحاً بتخصيص ٤٠٠ مليون دولار لتعويض اصحاب
العبيد بشرط ان يتوقف القتال قبل اول نيسان . وكان هذا الاقتراح
غاية في الجود وكرم النفس ، حين انه اضطر الى النخلي عنه لان وزاره
رفضته في الاجماع . وقال للاعضاء وهو بادي الاسف : لقد قتم جميعاً
ضدي ، ومن الافضل أن لا تذكروا شيئاً عن الاقتراح لاي أحد خارج
الوزارة . واستأذن لي من ديفس في مطلع شهر اذار أن يفا وض غرانت
في سبيل تسوية المشاكل الحاضرة في مؤتمر عسكري . ودخل ستانتون
على لنكولن يحمل بوقية من غرانت في ذلك الصدد . فامسك بالقلم
وكتب ما يلي : أمرني الرئيس بان أخبركم انه لا يرغب في مفاوضة
الجنرال لي إلا فيما يتعلق باستسلام جيشه دون قيد أو شرط أو في غير
ذلك من الشؤون العسكرية . ويقول انه لا يجوز لك ان تقرر أو تبحث
أو تتفاوض في أية مسألة سياسية ، التي هي من اختصاص الرئيس وحده .
وما عليك الآن إلا ان تشدد الحناق على العدو .

كان اليوم الرابع من آذار يشبه في طقسه يوم التنصيب قبل أربع سنوات . وسار الموكب يغوص في الوحل إلى ان وصل قاعة التنصيب في دار الكونغرس . وساد الصمت عندما نهض لنكولن وأخذ يتلو خطابه قال :

أيها المواطنون في هذه المرة الثانية التي أقسم فيها بين الرئاسة ، لا أجد مجالاً لخطاب مستفيض كالمرة الأولى . إن نجاح اسلحتنا معلوم لديكم كما هو معلوم لدي ، واني واثق من أن الجميع يعتبره مرضياً ومشجعاً . ولي أمل كبير في المستقبل ، ولكني لا أنوي التمكن بذلك الآن . لم يمكن أحد الطرفين يتوقع ان تبلغ الحرب هذا المبلغ وأن تطول هذه المدة ، كما لم يتوقع أحدهما ان تنتهي أسباب النزاع قبل ان تنتهي الحرب نفسها . ان كلا الطرفين يقرأ الكتاب المقدس ويصلي إلى إله واحد ويطلب معونته ضد الآخر . لا تمكن إستجابة صلوات الطرفين معاً . فاذا فرضنا أن الرق في أميركا هو من الذنوب التي شاء الله ان تستقر ردها من الزمن ثم تزول ، وانه تعالى سلط هذه الحرب على الشمال والجنوب عقابا للذين تسببوا في هذه الذنوب ، فهل يبرر ذلك الحياذ عن تلك الصفات الالهيه التي ينسبها المؤمنون إلى الله الحي ؟ اننا نضرع بجرارة ان تزول عنا ضربة الحرب هذه . أما إذا شاء الله ان تبقى هذه الحرب الى أن تزول الثروة التي جمعت بعرق جبين العبيد ، والى ان كل قطرة من الدم أسيلت بالسوط سيكفر عنها بقطرة تنزف بالسيف ، فكما قيل منذ ثلاثة آلاف عام ، يجب أن يقال اليوم ان أحكام الله عادلة ومستقيمة جميعها . فلنجتهد إذن في إنجاز العمل الذي بدأنا به ، ونحن لا نحمل في قلوبنا ضغينه لاحد بل حبا للجميع ، وبثبات في الحق كما يلهمنا الله ان نراه ، ولنضمد جراح الامة ، ونزعى من تحملوا اعباء القتال وأراملهم

وأيتامهم ، في سبيل تحقيق سلم عادل دائم بين بعضنا بعضا وممع جميع الامم .

واقسم لنحكون بين الرئاسة أمام قاضي القضاة تشايس ، ثم قبل الكتاب المقدس وانحنى محبياً وغادر المنصة .

كان شيرمن قد اقنع غرانت بالسير بجيشه برآ لا بحـراً ثم ينفذ الى جيش رئيسه . ولم تكن ثمة طرق معبدة ولا خرائط متوفرة ، فاضطر الى سلوك أرض واطئة تتخللها الجداول والمستنقعات التي لا بد من فرشها بجذوع الاشجار لتسهيل المرور عليها . ودخل جنوده كارولينا الجنوبية كأسراب الجراد لا تبقي ولا تذر . وأحرق شيرمن مدينة كولمبيا ، ووصف أحد الضباط ما قام به الجنود بقوله : « لقد أحرقوا كل ما وصلت اليه أيديهم في كارولينا الجنوبية لا بموجب الاوامر ولكن على رغمها ، فقد كانوا ناقلين على الولاية فنفذوا انتقامهم على طريقتهم . وقد توقف التخريب والاحراق حالما دخلوا كارولينا الشمالية » . وكان جيش الاتحاد يجر وراءه ذبلا طويلا من الزوج اللاجئين وهم راجلون أو راكبون عربات محطمة تحمل ممتلكاتهم القليلة . وتصعدى جونستون لمقاومة شيرمن ، ولكن شيرمن تاوشه مناوشات طفيفة بجيشه الذي بلغ ٩٠ الف مقاتل مقابل ٣٥ الف لدى جونستون ، وتابع سيره . أما لي فقد ثبت بشجاعة بينما كان فكا الكاشة يطبقان عليه . وقد استعد غرانت للمعركة الاخيرة الحاسمة بجيش مزود بكل ما يلزمه من طعام وكساء وذخيرة . وكان ينتظر قوات جديدة ، إذ كان لنكولن قد أمر بتجنيد ٣٠٠٠٠٠٠ مقاتل ، ولبت البلاد دعوته عن طيبة خاطر . وكان لا بد للجنرال لي من التحرك أو الموت جوعا . فقد كان يرسل المركبات لجمع القوات والعلف فتعود فارغة . وأحست رتشموند بالضيق ، وأخذ الاهالي يبيعون مقتنياتهم لشراء الطعام ، حتى اضطرت زوجة الرئيس ديفس الى

بيع خيول عربتها . وكان أخشى ما يخشاه غرانت ان يفر لي خلسة في الليل لينضم الى قوات جونستون ، فيرغم غرانت على ملاحقته بعيداً عن قواعده .

في ٢٠ آذار دعا غرانت الرئيس وزوجته لزيارته في مقره . ورحب الرئيس بالدعوة بغية الاستراحة من اعماله المضنية . كان قد أرهق نفسه كثيراً في الاسابيع الاخيرة ، - فقد قاد اجازة التعديل الثالث عشر وتصارع مصارعة فكرية مع مبعوثي حكومة الجنوب ، وراقب بدقة نشاط غرانت وشيرمن وشريدان ، ودعا الى تجنيد قرعة أخرى ، وبحث عن وسائل جباية الاموال اللازمة ، واختار عضوين جديدين للوزارة ، وكتب خطبة تفصيلية الثاني ، كل ذلك بالاضافة الى واجباته اليومية المعتادة . وقد انهكت قواه العقلية والبدنية حتى اضطر في ١٤ آذار الى عقد جلسة الوزارة في غرفة نومه . وركب الرئيس وزوجته وابنها الاصغر السفينة « ملكة النهر » ، فسارت بهم حتى رست في نهر جيمس عند مكان اسمه ستي بونيت . وكان النهر يعج بالسفن والزوارق تشحن الرجال والموئن وتنقل الجرحى وأمري الحرب . ووصل الملازم روبرت اكبر أبناء الرئيس ساعة الفطور في صباح اليوم التالي ، وكان ضابطاً تحت امره غرانت ، فاخبر عن نشوب معركة في الفجر الباكر ، إذ حاول لي الافلات عبر صفوف جيش الاتحاد ، ولكنه صد بهجوم معاكس . وأعرب الرئيس عن رغبته في مشاهدة القتال ، وسمح له غرانت بعدلأبي . فركب الرئيس عربة سارت به خلف الخطوط ، وتطلع من مكان مرتفع فرأى ساحة القتال وقد انتثرت فيها جثث الجرحى والقتلى .

ووصل شيرمن من كارولينا الشمالية ، فاجتمع الثلاثة لنكولن وغرانت وشيرمن في غرفة على السفينة « ملكة النهر » . كان الثلاثة يتحدرون من الغرب الاوسط ، وما كان يتاح لاحد منهم ان يصل

الى القمة الا في امير كا . لقد ألفت الحرب بين قلوبهم ، فاطمأن كل منهم الى الآخر ، ولم يخالج ضمير احد منهم أي شك في انه يخفي نوايا مستترة لقد ترك القائدان للنكولن مهمة تحديد السياسة وادارة الشؤون العامة واستخدما الجيش لتحقيق غاياته . وقد حضر ذلك المؤتمر ايضا الاميرال بورتو . وأجمع رأي القائدين على انه ما زال امام احدهما معركة دموية حاسمة . وسأل شير من عن مصير جيش الثوار بعد هزيمته ومصير الرئيس ديفس وغيره من زعماء الجنوب . فقال لنكولن انه يأمل ان يعود الجنود الى بيوتهم ليستأنفون اعمالهم في المزارع والمصانع باسرع ما يمكن ، اما ديفس فقد كان يتمنى ان يفر ويختفي . كان الرئيس يتوقع احداثا حاسمة في الايام القريبة تضع حداً لتلك المجزرة واهراق الدماء و كان يحن الى السلام حين الظمان الى الماء .

في ٢٦ آذار أبلغ لي الرئيس ديفس انه لا بد من اخلاء رتشموند ؛ وانه سيحاول الصمود في بترسبرغ ريثما يتم استعداده للهرب . وكان شريدان قد انضم بجيشه الى جيش غرانت ، فاخذوا معاً يضيقان الخناق على لي . وهطلت الامطار الغزيرة فحولت الارض الى مستنقع تغوص فيه الخيل الى بطونها . وفي تلك الليلة أبرق لنكولن الى ستانتون يقول: «أخذت أشعر بضرورة العودة الى العاصمة ، ومع ذلك فلا رغبة لي في أن أترك هذا المكان قبل ان أرى نهاية حركات غرانت » . وفي اول نيسان أبرق غرانت الى الرئيس يخبره بأن شريدان قد اكتسح كل ما كان امامه وقد أسر ثلاثة فصائل من المشاة وعدة مدافع وقطاراً بعرباته . وزار مقر غرانت في ذلك اليوم أحد الصحافيين الحربيين قادماً من الجبهة . فكلفه غرانت بان يحمل الى الرئيس في سني بونيت عدداً من اعلام العدو التي أرسلها شريدان ، كدليل لما قام به من عمل مجيد . ووصل الصحافي في المساء ، فوجد الرئيس في استقباله على ظهر السفينة ، ولما رأى الاعلام

قال : « هذا شيء مادي محسوس ، انه يعني النصر بل انه النصر حقاً » .
وظفح وجه الرئيس بالبشر عند ما روى له الصحافي ما سمعه من غرانت
وما شاهده بأمر عينه في جبهة القتال .
ابتدأ غرانت المعركة بقصف شديد من مدافعه في الصباح الباكر ،
وأخذ يبعث بالتقارير الى الرئيس كل ساعة ، فيحولها الى العاصمة . وتخطت
مقاومة لي ، فانما كان يقاتل ليعطي حكومة الجنوب وقتاً تهرب فيه من
رتشموند . وفي تلك الليلة أخلى لي بطرسبرغ وتوجة غرباً . ودخلها جنود
الاتحاد وأبرق غرانت يطلب حضور الرئيس . ولم يمض الا القليل حتى
شاهد الرئيس ينزل عن فرسه ويسير ممسكاً بيد ابنه الأصغر . وأشرق
وجهه عند ما صافح غرانت ، وبقي يحادثه ساعة ونصف حول الشؤون
المدنية التي ستنبجم عن هزيمة لي وقد كرر في هذه المناسبة انه يريد سلماً
رحيماً . وكانت أصوات الانفجارات تسمع آتية من جهة رتشموند . وعلم
الرئيس وهو عائد الى ستي بونيت ان المدينة استسلمت الى الجنرال وايتزل ،
فأبرق يقول لستانتون ان رتشموند قد سقطت وانه ينوي الشخصوص اليها
في اليوم التالي . وأقلعت « ملكة النهر » فعلاً متجهة صوب رتشموند ،
وتبعها الاميرال بورتر في سفينته الحربية ، وسارت وراءهما النقالة كوليبلس
تحمل حرساً من الفرسان لمرافقة الرئيس . وكان الثوار قد سدوا مجرى
النهر على بعد بضعة اميال ، فاضطر الرئيس الى الانتقال الى زورق يجذف
فيه ١٢ بحاراً . ودخل الرئيس المدينة مع حاشيته وحرسه ، فسار نحو
ميلين حتى بلغ مقر الجنرال وايتزل . وكان الثوار قد احرقوا قسماً
كبيراً من المدينة قبل اخلائها ، واغرقوا الزوارق الحربية ، وقد امتلأت
الشوارع بشظايا الزجاج المتناثر . وشوهد حشد كبير من الناس يتدافع
في الشارع ، وكان مؤلفاً من الزنوج الفرحين الشاكرين يسرون في أثر
الرئيس . فلما شاع نبأ مقدمه ، اكتظت الارصفة والنوافذ والشرفات

بالمتفرجين ، حتى تسلق بعضهم الاشجار وأعمدة البرق . واستقبل الرئيس بسكون عميق شامل ، لا تتخلله صيحات التحدي ولا هتافات الابتهاج ، وسار لنكولن جامد الوجه كمن يقوم بواجب لا مفر منه . وكان وايتزل قد جعل مقره في بيت الرئيس ديفس ، فلما وصله الرئيس كانت متعباً فطلب كوباً من الماء ، وأخذ يتفحص المكان . ثم زار الاماكن العامة التي احرقها الثوار ، كالسجن العسكري وغيره . ولاحظ أحد الضباط ما ينم على ما كان يلقاه أسرى الحرب من سوء المعاملة ، فقال ان ديفس يستحق الشنق . فاجاب الرئيس على الفور « لا تدينوا لكي لا قدانوا » . ولما سأله القائد عن معاملة أهل رتشموند قال انه يفضل معامتهم بالحسنى . كما وافق على السماح لمجلس فرجينيا التشريعي بالاجتماع في رتشموند لالغاء قرار الانفصال عن الاتحاد وسحب جيشها من الحرب .

ظل لنكولن ينتظر في ستي بونيت وهو على أحر من الجمر بينما لعب لي بورفته الاخيرة ، إذ لم يبق لديه من امل سوى حركة سريعة للالتحاق بقوات جونستون ولم تصل المؤن التي طلبها الى المكان الذي عينه ، فساعد هذا التأخير فرسان شريدان على سبقه الى الطريق التي كان ينوي اتباعها . فغير وجهته الى الغرب ، والتقت فلول جيشه بجيش الاتحاد ، ففقد نصف الجيش ومعظم مركبات القطار . وأبرق شريدان الى غرانت بخرج موقف لي وبأنه سيستلم لا محالة إذا اشتد الضغط عليه . فأمر الرئيس بالقيام بذلك . وأخذ جيش لي يعاني الجوع ونفذت زخيرته . تلك هي ثمار سياسة لنكولن الحكيمة المبتدئة انذاك الجنوب ، وكسر عنفوانه وإرغامه على الاستسلام والعودة الى حظيرة الاتحاد .

نمي الى الرئيس أن سيورد سقط من عربته وأصيب باذى شديد ، فأسرع بالعودة الى واشنطن ، فألقى سيورد يعاني المأ شديداً وقد كسر فكاه وفراعه . ووردت برفقة من غرانت في تلك الليلة ، جاء فيها ان

الجنرال لي استسلم وفق الشروط التي أملاها غرانت ، وان التفاصيل ستصل في البريد . وكانت الشروط تسمح بعودة الضباط والجنود الى بيوتهم ، مع احتفاظ الضباط بسببوفهم والجنود بنجيلهم للحرارة ، وقد كان غرانت كريماً في شروطه تمثيلاً مع تعليمات الرئيس وانتشر الخبر في العاصمة فأفاق الناس على قصف المدافع وقرع الاجراس ، ورفعت الرايات وأدوات الزينة على المباني . واندفعت الجموع المحتشدة صوب البيت الابيض لتمنئته الرئيس ، الذي أطل من النافذة بوجه مشرق ولكنه بادي التعب ، ووعدهم بالقاء خطبة في مساء اليوم التالي . واستعدت العاصمة لاستقبال الرئيس باحتفال عظيم مساء الخطبة الموعودة ، كان الزحام شديداً بحيث تعطلت حركة السير ، واطل الرئيس على بحر من الوجوه المرفوعة اليه . ولم يكن في صوته ما ينم على الافتخار بالنصر . قال انه طالما تاق الى نهاية الحرب ليكف عن موجباتها ويجمع الشعب تحت لواء سلم دائم ثابت ، وان في أعماق قلبه بقعة منهوكة يبدو ان لا سبيل الى شفائها . ثم دعا الشعب الى اصطناع الدين والمسامحة قائلاً : « اننا متفقون جميعاً على ان الولايات المنشقة خرجت عن علاقتها الطبيعية مع الاتحاد ، وان غاية الحكومة مدنية كانت ام عسكرية ، انما هي اعادة تلك العلاقة الى سابق عهدها . وبقيني ان القيام بذلك سيكون أسهل إذا تناسينا خروج تلك الولايات عن الاتحاد فلنتحد ولنتعاون في تأدية كل ما يلزم لاعادة العلاقات الطبيعية بين تلك الولايات والاتحاد ، بغض النظر عن انفصالها عنه ، وسبختبرون بانفسكم افضلية هذه الخطة فيما بعد . ولم يكن الشعب وهو في اوج حماسه وزهوه بالنصر ، ينتظر مثل تلك الخطبة ، فأخذ يتفرق وقد زابله حماسه .

كان يوم ١٤ نيسان من أهبج أيام الربيع ، فنهض الرئيس مبكراً حسب عادته ، وذهب الى مكتبه حيث ترك لسبورد تعليمات بدعوة الوزارة

الى الاجتماع في الساعة الحادية عشرة ، وكتب الى غرانت يدعوه الى حضور الجلسة . واجتمعت الاسرة بكاملها على مائدة الفطور ، ثم انصرف الرئيس الى مقابلة زواره . وأسرع الى وزارة الحربية في زيارة خاطفة للاطلاع على آخر الانباء من شيرمن . ولما لم يجد شيئاً عاد الى مكتبه حيث كان غرانت والوزراء ينتظرونه . وروى غرانت تفاصيل آخر معركة واستسلام لي ، وقال انه يتوقع في اية لحظة استسلام جونستون . وقال لنكولن ان ذلك النبأ سيصل قريباً ، لانه في الليلة الماضية رأى حلمًا كثيراً ما سبق له ان رآه عشية حدث خطير . كان يرى في الحلم شبح سفينة تتحرك بسرعة باتجاه شاطيء مظلم غير محدود ، وقد رأى ذلك الحلم قبيل الانتصارات السابقة . ثم تطرق الحديث الى مستقبل العلاقات مع الجنوب . وكان الرئيس في حديثه رقيقاً بالجنرال لي وغيره من الضباط ولا سيما بالجنود الذين حاربوا ببسالة . وقال انه مسرور لان الكونغرس لم يكن منعقدًا في احدى دوراته ، وانه يأمل في اعادة انشاء العلاقات الودية قبل انعقاده ، فلا يعرقل مساعيه اعضاء أفعيت قلوبهم بالبغضاء والانتقام . وأكد انه لن يشترك في اعمال انتقامية ضد ارفع انصار الانشقاق ، ولن يوافق على ذلك . وتخلف غرانت بعد ارفض الجلسة ليعتذر للرئيس عن عدم تمكنه من قبول دعوته لحضور التمثيلية في مسرح فورد ذلك المساء ، فقد كان مضطراً الى السفر مع زوجته الى نيوجرسي لرؤية ابنائه . وعاد الرئيس بعد الغذاء الى مكتبه ، فوقع وثيقة عفو عن أحد الفارين من الجندية وكتب معلقاً ان ذلك الجندي سيهرب الى احدى افرق الارض منه تح الارض . ثم امضى حكم الاعدام على أحد جواسيس الجنوب ، ووقع وثائق أخرى . وتمكن في الساعة الرابعة من التخلص من زائريه ليخرج في نزهة مع زوجته . وأخذ يتحدثان عن حياتهما في المستقبل ، ووعدا بان يكونا اكثر ابتهاجاً ومرحاً بعد ما

فاسياه من شداثد الحرب وفقدان ابنها العزيز ولیم . ولما عادا الى البيت ،
قصد الى وزارة الحربية ثم قابل بعض الزوار . وكانت الساعة قد بلغت
الثامنة والرابع عند ما قصد مع زوجته الى بيت الشيخ هاريس ، وقد
كانت ابنته كلارا وابن زوجته المدم رايبون قد قبلوا الدعوة الى
المسرح التي اعتذر غرانت عن قبولها . وكان الضباب منتشرأ عند ما
خرجت العربية من البيت الابيض . او وصلت العربية مسرح فورد في
الثامنة والنصف وتوقف التمثيل وتعالت الهتافات بينما كان الدليل يقودهم
الى المقصورة المزدانة بالاعلام . وجلس رايبون وكلارا في الكرسيين
الاماميين ، و خلفها زوجة الرئيس كما تمالك الرئيس على كرسي في آخر
المقصورة بعد ان رد على تحية الشعب ، وتخير جون باركر حارس الرئيس
مقعدأ يستطيع منه مشاهدة التمثيل . ولم يلاحظ أحد ان ثقباً صغيراً
كان قد نقب في باب المقصورة .

في نفس الوقت الذي دخلت فيه جماعة الرئيس الى المسرح ، جلس
اربعة رجال حول مائدة في دار لا تبعد كثيراً عن المسرح وانهم كانوا في
حديث تأمري . وكان زعيم العصاة جون بوث وهو ممثل وسيم الطلعة
لم يحسن استعمال مواهبه الغريزية . وقد برع في ركوب الخيل واستعمال
السيف والرماية بالاسلحة النارية ، وكانت تتنابه نوبات من حدة الطبع
جعلته لا يصبر على الدراسة ، فاكتسب شهرة بين مرتادي المسارح فترأ
لوسامته وحركاته العاطفية وخفة وثبه على المسرح وقد كان يعشق
الجنوب ولكنه لم يشترك بالدفاع عنه . فلما انتصر الشمال زين له ضميره
ان يقوم بعمل مربع افتداء لقضية خاسرة . وكان اول ما تبادر الى
ذهنه ان يختطف لنكولن ويسلمه للجنوب كرهينة للسجناء الذين رفض
غرانت مبادلتهم . فلما فشل ذلك المشروع وطن النفس على اغتيال
الرئيس . واستطاع بشخصيته الجذابة ان يورط آخرين في المؤامرة ،



صورة لوجه قنصل الرئيس بالبراهام لشكوان أثناء وضعه وثيقة تحرير العبيد



ابراهام لنكولن لدى وصوله الى واشنطن بعد انتخابه رئيسا للولايات المتحدة

ولكن عدداً منهم عاد فانسحب عندما علموا بنية الاغتيال . وكان
يجلس معه في ذلك المساء جبار شاب يدعى لويس باين ، والشهير جورج
انسيروت ، وشاب آخر اسمه ديفي هارولد . وتفرقت الجماعة ، وقاد
بوت جواده الى خلف مسرح فورد ، ثم دخل حانة وطلب الوسكي .
ابتدأ الفصل الثالث من التمثيلية . وفيما كان انكولن يراقب التمثيل
بسرور ، لم ينتبه أحد إلى رجل كان يمشي متثدداً في الممر المؤدي الى مخادع
الممثلين ثم القى نظره على المسرح والنظارة ، ثم تقدم من فوريز سائق
عربة الرئيس الذي كان يجلس في الممر أمام باب المقصورة وسلمه ورقة
فسمح له بالدخول . وسمع صوت طلقة خافتة ، ووثب رجل من مقصورة
الرئيس الى خشبة المسرح ، وشوهد تصاعد بعض الدخان في المقصورة ،
وسمعت صرخة حادة من تلك الناحية . ونهض بوت من خشبة المسرح
ولوح بسكين وصاح بشيء يشبه شعار فرجينيا ، ثم غادر المسرح من
الباب الخلفي . وساء المخرج والمرج حالما ذاع ان الرئيس أصيب بطلق
فازي ، فأخذ الناس يتدافعون في جلبة وفوضى . وأسرع الجنود لاخللاء
المدار وفتح طريق بين الحشد ليمر الرجال الذين كانوا يحملون الرئيس
الى ماقد الوعي الى بيت الخياط وليم بيترسون ، حيث وضعوه على سرير في
غرفة خلفية . وكان تنفسه متقطعاً ، وأثبت الفحص الطبي ان الرصاصة
دخلت من مؤخرة الرأس الى جانبه الايسر واستقرت قرب عينه اليمنى ،
ولم ينزف الجرح الا قليلاً . واكتظت الغرفة بالاطباء والوزراء وأعضاء
الكونغرس وغيرهم . وشاع ان سيورد أصيب بطعنة قاتلة وأن ابنه
قد جرحاً ، كما شاع أيضاً انه اعتدى على جونسون نائب الرئيس . واستولى
الذعر على العاصمة ، ولم يكن يسمع في حللكة الليل سوى وقع خطى
الحراس في الشوارع . وجلست زوجة الرئيس تنتحب في غرفة مجاورة ،
وانهمك ستانتان في توقيع الاوراق وإصدار الاوامر . وظل القوم الى

جانب سرير الرئيس طول الليل . وكان الاطباء من وقت الى آخر يعطونه المنعشات ويزيلون خثرات الدم لتخفيف الضغط عن الدماغ ، ولم يكن في وسعهم عمل أي شيء آخر . وانهمر المطر في الفجر الباكر ، ولكن الجمهور ظل يملأ الشوارع ، وجاءت النهاية ببطء ، وكأن الرئيس يتشبث بالحياة ؛ ولكن ما لبثت الحشجة ان تباطأت ثم أخذت تتلاشى ، وفي الساعة السابعة والدقيقة الثانية والعشرين من صباح ١٥ نيسان عام ١٨٦٥ انتقل لنكولن الى رحمة ربه ، ونعم بالسلام - وبالخلود .

ففي الايام التالية التي اسبجي فيها جثمانه في البيت الابيض ، ثم اقلته عربة قطار مجللة بالسواد الى التربة التي نشأ عليها ، سالكة نفس الطريق المتعرجة التي سلكها في السفر الى واشنطن ، نشأت في البلاد اسطورة لنكولن ، فاضفت عليه صفات البطل الشعبي الخالد . بل لقد بدأت الاسطورة تتكون خلال حياته ، ففي حملتين سياسيتين اكنسب لقب « ابراهيم الامين » ولقب « شقاق القضبان الحشبية » . ولاقت الكتب التي جمع قصصه ورواياته رواجاً عظيماً . وقد جعله لقب « المحرر العظيم » رمزاً للحرية . وكان السذج من الناس يدعونه بالاب ابراهيم . وقد صار الناس يلفظون هذه الاسماء والالقاب بالمزيد من التجلت والاحترام ، مع اضافة « الشهيد » و « منقذ الاتحاد » ، وينظرون اليه كشخص اجتمعت فيه جميع صفات الامة الحميدة والمواطن الاميركي الحقيقي . ومع ذلك فلن يتيسر لاكثر مواطنيه ان يفهموا مغزى حياته السامي الا مع مرور الزمان ، ولن يشار كوه في نظراته الى مستقبل الانسان البعيد ، ومعرفة نصيبهم في تكييفه ، الا بالتمحيص وفحص الضمير الناجمين عن التجربة والتحدي ، لان الشعب الاميركي كان في نظره الرائد الاول لبقظة شعوب العالم . فقد انبثق عن الثورة الاميركية التي سبقت اليقظة ، اعلان الحرية والمساواة ، مما لا بد منه في التطور التقدمي للبشر . وكان

لنكولن يعتبر مواطنيه امناء على تراث مجيد ، اذ كان من نصيبهم انجاح الديمقراطية وتنقيتها من جميع الشوائب التي تحول دون تطبيقها في العالم . وكان يرى في الديمقراطية الحلقة الامل الاخير الاوحد في مكافحة اي طاغية تسول له نفسه تضليل الشعب واضطهاده او الحط من كرامته ، وفي سبيل تحقيق السلام على الارض والمحبة بين البشر .





رابطہ بدیل
lisanerab.com

مکتبۃ لسان العرب

أ. علاء الدین شوقی

www.lisanarb.com



twitter

مکتبۃ لسان العرب



facebook

مکتبۃ لسان العرب



instagram

مکتبۃ لسان العرب



”هذه السبع، بحراست الله،
سبتمبر مولد حرية الجزيرة،
وهذه الطائفة، حكومة السبع،
البنية عن السبع، طائفة السبع،
لكن نكوشى من على القورضى“

من خطاب ابراهيم شكولون
في غيتسبرغ . ارض المعركة الهامة
في الحرب الأهلية خلال تموز ١٨٦٢